آخر أساطير الحبّ

كمال السيّد



مركز الغدير

www.alqadir.net

آخر
أساطير الحبّ

مركز الغدير للدراسات والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - حارة حريك - شارع السيد عباس الموسوي - بناية مركز الغدير

تلفاكس: ٠١ / ٥٥٨٢١٥ ـــ ٠١ / ٥٥٢٢٦٢ خليوي: ٠٣ / ٦٤٤٦٦٢

ص.ب.: ٢٤/٥٠ - الرمز البريدي: ١٠١٧ - ٢٠١٠ - برج البراجنة

www.alqadir.org

www.alqadir.net

الطبعة الثانية

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

كمال السيّد

آخر أساطير الحبّ

رواية تسجيليّة

مركز الغدير
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزي القارئ . . .

ها هي أقدمها إليك

كما ولدت

ربما لا تجد في سطورها شيئاً

إلّا إنك ستلمح ما بين السطور

طيوفاً هائمةً من الأحلام

وآثاراً دارسةً من الآلام.

شواطئ الفرات ـ 1

على ضفاف ذلك الشط الذي ينتمي إلى الفرات تنهض قريـة جنوبيـة بكـل ما تنطوي عليه قرى الجنـوب مـن ملامـح في سـمرتها وفي أحلامهـا وناسـها وحكايات الحب والعشق والثأر، ولقرب القرية من حوض الفـرات الأوسـط اكسبها قدراً من تقاليد بعض المدن الهادئة وشيء آخر ميزها أيـضاً هـو ظهـور أفكار ثورية لدى شبابها في فترة مبكرة مع مطلع الستينيات، ولماذا نخـوض في مثل هذه التفاصيل قبل أن نتلمس الخيـوط الأولى التـي سـتكوّن نـسيج آخـر أساطير الحب في الربع الأخير من القرن العشرين.

بالقرب من مسجد الشط يقع بيت قروي يعد من معالم تلـك القريـة التـي بدا وكأنها تحاول أن ترتدي ثوب مدينة صغيرة أنـه بيـت الحـاج حامـد مـؤذن جامع الشط وهو رجل مهيب في قامته وقـد اكـسبته لحيتـه قـدراً مـن الوقـار، وبالرغم من أنّه لم يناهز الستين من العمر حتى الآن، إلّا أنّ لحيته التـي اشـتعل فيها الشيب وزواج ابنه حميد منذ عشر سنوات قد جعله في مصاف الأجداد .

وأصبح الحاج حامد معلماً في تلك البلدة حيث تغفـو بيوتهـا المتواضـعة على شطآن نهر الرفاعي شمال مدينة الناصرية.

كان الحاج حامداً جالساً على جرف الشط إذ يحلو له في بعض الأصـائل الجلوس، حتى إذا جنحت الشمس للمغيب نهض ليؤذن أما حفيده حسام فلم يكن يرمي حصاته كما هو في كل مرّة فقد ظـل يراقـب قطيـع الأغنـام يسوقه جاسم إلى حظائره عبر الطريق الزراعية.

وهذا التغيير الذي طرأ عليه لم يحصل فجأة فقد سبقه شعور بالزهو لأنّه استطاع أن يعلم صديقه خيّون الصلاة.

من بعد كان قارب ينساب ماضياً في طريقـه بعكـس تيـار النهـر وكـان صوت حزين لأشعار شاعت حديثاً:

وآنه من دم ولحم

مو من صخر ... چبدة العندي

والله مليت الصبر وامگاطر الدمعة

اعله خدي..

وآنه خلاني الوكت

ناعور بس اترس وأبدّي

وفيما كان الجدّ ينظر إلى مياه الـشط وإلى تـدافع أمواجـه الـصغيرة كـان خليل قد ظهر ومن وراء نخلة ونادى على حسام الذي شعر البهجة لرؤيـة

صديقه الذي يصغره بعامين.

وانطلقا يعبران السواقي في المزارع الممتدة إلى ما وراء حدود القرية.

وكان الحاج حامد ينظر إلى حفيده بأمل وحبّ، ثمّ استقرت نظراته على المياه مرّة أخرى؛ وقد اندمجت مع رنين أجراس الأغنام والماعز ولم تمنع شمس تموز من هبوب نسمات ما قبل الغروب المنعشة وراح الحاج حامد يسبغ وضوءه وقد امتلأ صدره بعبير الزرع، وراحت عيناه تتابعان زهرة طافية على الماء يحملها النهر بعيداً.

وتراجعت الأصوات شيئاً فشيئاً لتحل سكينة الغروب بكل جلاله في ذلك المشهد الريفي الحالم وما هي إلّا لحظات حتى كانت كلمات الأذان بصوت شجي تنساب من مكبرة الصوت الوحيدة المشدودة إلى المئذنة الصغيرة.

وشيئاً فشيئاً انبعثت من قرب الشطآن ومن بعض البرك التي تجتمع فيها المياه مئات الأصوات فتختلط مع بعضها مؤلفة سمفونية الوجود وهو يلج محراب الليل ... فالأصوات التي تصدرها الهوام ونقيق الضفادع وثغاء بعض الخراف ونباح الكلاب وعواء ذئاب بعيدة تمتزج مع بعضها في ليالي صيف تموز ومع كل هذا الضجيج الذي تصدره الكائنات إلّا أن النفس تشعر بقدر رائع من الطمأنينة والسلام، هل يكمن من وراء ذلك ادراك فطري لتسبيح الكائنات أو تناغم اجزاء الوجود؟!

كانت أم حسام قد أعدّت ساحة الدار لإستقبال الحاج حامد وعودة

زوجها الذي يعمل في حقل قريب.

وكانت آخر ما تقوم به هو رش الماء حول البسط التي تتوسط البواري، فتصّاعد رائحة الأرض الندية إلى توقظ في النفوس عبير الزخات الأولى للمطر .

كانت السماء مرصّعة بالنجوم، وقد ظهرت ثلمة في القمر فوق ذرى الأشجار .

الفانوس الذي يتوسط المجلس يرسل ضوءه الخافت وقد هيمن الحاج حامد بوقاره ومهابته على المكان، كان حسام قد أخذ مكانه بالقرب من جدّه وقد جلست إلى جانبه شقيقته أنعام في حين كانت الأم تحتضن رضيعتها وترمق زوجها الذي كان يغسل يديه للوضوء فهو يفضل الصلاة في داره وهذا ما كان يغيظ والده مؤذن الجامع.

وضعت أم حسام الطبق المصنوع من خوص النخيل وفيه صحن كبير مليء بالتمن العنبر وثلاث أوان فخارية ملأى باللبن الرائب وأرغفة الخبز وتناول حسام عشاءه مع أبيه وجدّه وقد هيمن صمت مفعم بالسلام وكان الجميع يفضل الاصغاء إلى آلاف الأصوات التي تصدر عن كائنات لا حصر لها. كان حامد قد سأل جدّه عن ذلك ذات مساء فقال إنّها تسبح الله فشعر بقشعريرة تسري في جسمه.

وكعادته كان حسام ينتظر حكاية جدّه قبل أن يأوي إلى فراشه قال الجدّ

بعد أن ارتشف الشاي وأوشكت سيجارته التي يلفّها بنفسه على الانتهاء:

ـ كان يوسف صبياً طاهراً جميلاً وكان يعقوب النبي يحبه كثيراً فحسده أخوته واضمروا له الحقد وتآمروا عليه وكانوا عشرة يعملون في رعي الأغنام فجاؤوا إلى أبيهم وقالوا: لماذا لا ترسل معنا يوسف ليلعب في البراري والحّوا عليه وكان يوسف يحب الذهاب مع أخوته ليلعب معهم في البرية.

ونجحت خطتهم وفرح يوسف كثيراً وهو يرى أخوته يلاعبونه ويضاحكونه حتى إذا صاروا في البرية إذا بأحدهم يفاجئ يوسف بصفعة اوقعته أرضاً.

نظر يوسف إليه بدهشة قال: لماذا يا أخي؟!! وشعر بالخوف وهو يرى عيني أخيه يهوذا تبرقان بالشرّ وظهرت أسنانه كأنّها أنياب ذئب؛ نهض يوسف وراح ينفض التراب عن ثيابه وإذا بأخ آخر يركله بقسوة قال يوسف بألم:

ـ لماذا يا شمعون؟ أنا أخوك.

وضربه رابين وهو يصرخ:

ـ أنت عدوّنا الوحيد.

اجتمعوا عليه يضربونه واستل أحدهم خنجره وأراد أن يقتله، ركض يوسف فركضوا خلفه وأمسكوا به قال أحدهم: لا تقتلوا يوسف وألقوه في ظلمة البئر فأما أن يموت أو تنتشله القوافل وتأخذه بعيداً.

ثمّ إنّهم أخذوا يوسف إلى بئر عميقة ودفعوه فيها فسقط في ظلمات البئر...

سكت الجدّ لحظات ثمّ قال: غداً سأحكي لك بقية القصة نهض الجدّ إلى فراشه.

كان القمر المثلوم قد توسط السماء وهو يغمر القرية بفضته فتنعكس صورته في البرك وتتكسر في مياه النهر. وظهرت غيمات صغيرة كنفس تائهة ومن خلال هدأة الليل والأشجار كان صوت شجي يشق على وهن طريقه إلى الآذان.

ـ يا ليل... يا ليل... طال السهر وطال الفراگ ـ يا ليل .

وفي ساعة السحر التي تسافر فيها الروح إلى عوالم مليئة بالنبوءات والرموز عوالم لا يعرف كنهها الإنسان... كانت آلاف الذئاب تتدفق بجنون من مغارة ما... كانت الذئاب تجوس خلال القرى الغارقة في الظلام... السماء بلا قمر ولا نجوم كانت أشبه بالقار... العواء يملأ الفضاء... عواء آلاف الذئاب... ذئاب... ذئاب... ذئاب!!

وهب من نومه... واستيقظت الأُم:

ـ اسم الله عليك وليدي!

ـ ذيابه يمّه ذيابه...

استيقظ الجدّ:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم... انشاء الله خير... توضأ لتـذهب معـي إلى الجامع .

واستيقظت القرية فجر ذلك اليوم على صوت أذان صبي يناهز التاسعة من العمر...

وعندما عاد حسام وجد أمّه تنظر إليه بعينين تبتسمان من خـلال دمـوع الفرح.

شواطئ دجلة ـ 1

بالقرب من شواطئ دجلة عندما يخترق النهر مدينة بغداد وفي ذلك الشارع الذي تظلله أشجار النخيل تنساب الحياة هادئة أشرقت شمس تموز وتدفقت أنوارها شلالات من الذهب.

كان أبو ميسون قد غادر منزله قبل بزوغ الشمس وقطع المسافة بين منزله وتلك الساحة القريبة من مرقد الإمام حيث يقصدها القرويون لبيع منتجاتهم من البيض والقيمر والجبنة والزبدة، وكان القيمر أول المبيعات التي تنفد لهذا يحرص الكثيرون على التبكير خاصّة في صباحات الجمعة حيث يجتمع شمل الأسرة على تناول الإفطار.

كانت الساحة تضجّ بالحياة بعكس الشوارع التي بدت مقفرة في زرقة الفجر، وعندما وصل أبو ميسون كانت أنوار الشمس قد غمرت ذرى النخيل أما القبة الذهبية فقد بدت تحت دفق النور شمساً هبطت من غور المجرات البعيدة .

عندما عاد أبو ميسون إلى منزله كانت الجدران قد غمرتها أضواء شمس

الصباح وكانت الظلال الوارفة تغطي معظم الحديقة والثيل بخضرته الزاهية وفي ركن الحديقة بدت شجرة البرتقال عروساً تستحم في شلال من الضوء تحت عريشة العنب فقد كانت مساقط الضوء قد جعلها أكثر جمالاً وبدت السيارة الحديثة تتألق في ذلك الصباح. كان أبو ميسون الذي تجاوز الثلاثين بعامين يشعر بالرضا فقد شعر بأن أبواب السماء قد تفتحت عليه، خاصّة عندما ولدت ابنته ميسون.

ومضت تلك الذكرى في ذهنه كقوس قزح فقد اتصلت به أخت زوجته، وبشرته قائلة:

ـ أبشرك الله رزقك حورية!

وخلال الطريق قفزت في رأسه عشرات الأسماء كغزلان يمرحن في وديان خضراء ... ليلى... سلمى ... ميساء... هناء... هيفاء... ناهدة ... سميرة... وشيئاً فشيئاً كانت الغزلان يختبئن وراء الخمائل وعندما وصل إلى البيت لم يبق في ذهنه أي اسم واقفر الوادي تماماً.

وجدها في أحضان زوجته لؤلؤة تتألق... إنّها حورية حقّاً... قبّل زوجته في جبينها فأشرقت ابتسامة كما تشرق الشمس ثمّ قبل ابنته، كانت تغفو بسلام...

قالت أخت زوجته:

ـ مبروك أبو ميسون الله يحفظها ويصونها من كل شر.

ـ لم يقل شيئاً اكتفى بابتسامة رضا... التقت نظراته مع نظرات زوجتـه... لقد جاءت باسمها.

منذ أن كان في دراسة الثانوية كانت مسألة الأسماء تحيّره، أسـماء النـاس وأسماء المدن كيف تظهر وتختفي وكيف تغير المدن أسماءها!!

أنّه يستطيع أن يعرف السبب الـذي يكمـن وراء اسـمه، كثـيرون جـداً الذين سمّوا أسماءهم بأسماء الملوك أما من أجل أن يكسب أبنـاءهم المجـد عندما يصبحون رجالاً أو لأن ولادتهـم صـادفت اعـتلاء ملـك أو حـاكم البلاد...

لقد كان غازي ملكاً على العراق وقـد صـادفت ولادتـه ذلـك فـومض الاسم في تفكير والدته أو والده أو كليهما معاً فإذا غازي الأسدي من قبيلة بني أسد التي تكاد تنتشر في كل الفرات الأوسط ويهاجر بعـض أبنائهـا إلى نقاط كثيرة في العراق كما هاجر والده...

انتبه إلى نفسه وهو يدخل صالة اسـتقبال الـضيوف متجهـاً إلى المطـبخ حانت منه التفاته فرأى زوجته عند سريـر ابنتـه ميـسون تـداعب شـعرها الذهبي الذي يشبه نبعاً صغيراً يجري فوق الوسادة:

ـ صباح الخير... اشو عايفه الرضيعة وجالسة عند أم عيون الوسيعه.

ـ صباح الخير .. تأخرت!!

ـ تريدين الصدگ اليوم لزمت أبو إحسان وحچيت لـه قـصة حيـاتي..

امچلب لي استاد ما استاد...

ـ مرة مرتين شايفك شايل كتاب اتصوّرك استاد.

ـ هسه ميخالف معلّم.. مدرس مو أستاد جامعي.

ـ يالله يا معود قابل أستاد الجامعة أحسن منك!!

ـ القضيه غير شي يا أم ميسون...

وجاء صوت ميسون الطفولي يتخلل ملاءة من النعاس:

ـ بابا أمي شافت حلم.

قال الأب وهو يقبل ابنته في سريرها.

ـ ليش هاي أول مرّة ... امچ عايشة بالأحلام.

والتفت إلى زوجته!

ـ خير انشاء الله؟

لم يجد رغبة لديها في الحديث فغير الموضوع..

ـ ريحة الچاي تفوح..

جلس الثلاثة في حديقة المنزل.. لتناول طعام الافطار... طلبت ميسون استكان شاي فقال الأب:

ـ العسل والگيمر أطيب بنتي.

ـ چاي حليب بابا ما يهم؟!

التفت إلى زوجته.

ـ بنتج عنوديه شويه تدرين؟

ـ طالعه على أمها مو هذا قصدك؟

وجاء صوت طفل رضيع يهم بالبكاء.

بادرت ميسون ولكن الأم قالت:

ـ آني حروح.. اختج جوعانه ماما...

قالت ميسون:

ـ أمي شافتني بالحلم حورية أطير للسماء.

قال الأب وهو ينظر إليها بفرح!

ـ بابا هذا مو حلم هاي حقيقة.. والله أنت مثل الحورية شعرك خيوط مثل شمس الصبح .. عيونچ يفيضن شهد، الرموش مثل النخيل على جرف دجلة

ابتسمت ميسون بفرح واستأنف الأب:

ـ أسنانك مثل اللؤلؤ المنضود...

عادت زوجته تحمل طفلتها الرضيعة قال مخاطباً زوجته:

ـ لحد الآن أگول ميسون جتنا من السما.

قالت زوجته:

ـ يمكن حكت لك الحلم؟!

ـ نص و نص.

ـ چنت آنه وياك نتمشى بالمحيط وميسون بالوسط بعدين ميسون راحت تمشي بدجله فوگ الماي أنت ركضت عليها لكن ميسون كبرت صارت مثل العروس بعدين شويه شويه راحت ترتفع ... وتطير وعيوننا عليها...

ـ انشاء الله خير الله يحفظها وتشوف كل الخير ميسون بنية حبابة ذكية طالعة على أبوها.

ـ من عنودية طالعة على امها ومن تكون ذكية حبابة طالعة على أبوها؟!

وامتزجت الابتسامات مع رشفات الشاي في تلك الساعة الحالمة من الصباح.

***

السيارة تتهادى في شوارع بغداد وكانت ميسون تتطلع من النافذة بوجهها البريء وأنسام دجلة من فوق الجسر المؤدي إلى الأعظمية تداعب شعرها الذهبي الأب يقود سيارته على مهل في ذلك الأصيل البغدادي شارع الرشيد العريض حيث تزدحم المحال التجارية والسيارة تجتاز تمثال الرصافي وعينا ميسون تنفتحان كنافذتين تنعكس فيهما المرئيات التي تمرّ على هون...

مرّت من أمام سينما علاء الدين ولافته كبيرة ملوّنة صراع في الوادي بطولة عمر الشريف فاتن حمامة وتصل السيارة إلى الباب الشرقي وساحة التحرير ويبدو نصب الحرية العتيد مهيمناً على المشهد كما بدا تمثال الأمومة

موحياً وهو يتوسط حديقة الأمة...

وعندما وصلوا إلى بيت أخيه في الكرادة كانت الشمس تلامس الأفق وقد بدت ذرى النخيل تتقد بحمرة أشعتها، قال أخوه وهو يستقبله:

- تأخرتوا !

- طفنا بعض الشوارع ... بغداد اتصير أحلى يوم الجمعة.

- تشربون استكان چاي؟

- ما ظل وقت أبو خولة.

- طلعنا احنا المطلوبين.

- لا طالب ولا مطلوب.

في ظلال الأشجار في ضريح سيد ادريس على شاطئ دجلة جلسا معاً قال أبو ميسون.

- أريد ان تبقى بذاكرتها أشياء جميلة وحلوة عندما تكبر...

قاطعة أخوه:

- أنت متشائم كثيراً في رأيي الواحد لازم ينظر للمستقبل نظرة أمل.

- والله يا أبو خولة أنا اتعجب أنت مدرس تاريخ... يقولون التاريخ يعيد نفسه.

واستطرد هامساً:

- ليش أنت نسيت الحرس القومي وفظائعهم ؟!

ـ لحد الآن ماكو شي صافيه دافية.

ـ صافية؟! قبل أيام طلع سيد مهدي جاسوس والله الساتر مـن المـستقبل! هذولة عندهم نية گشره.

جاء صوت زوجته وكانت مشغولة بالحديث مع أم خولـة عـلى مقربـة من النهر.

ـ الشموع حاضرة حتى خولة و شيماء يعني كل واحد شمعة.

نهض أبو ميسون وأوقد سبع شموع وانحدروا إلى الجرف. كانـت ميـاه دجلة تلامس الشطآن برفق وكانت تحمل شمعتها على صحن خشبي وقـد تشبثت بوالدها ملأت رائحة النهر انوفهم .

قال أبو خولة:

ـ صاير تدوّر خرافات هاي الأيام!

ـ أبو خولة والله راح تتحسر على مثل هاي الأيام.

بدت الشموع في ظلمة الغروب كسفن الأحلام وكانت ميسون تراقـب شمعتها بفرح وانتشاء، أغمضت أم ميسون عينيها وكـان مرادهـا أن تـرى ميسون في حفلة العرس وثياب الزفاف...

ومضت في ذاكرتها مشاهد من عرسها ومراسم الزفاف في الكاظمية لـه مشاهد لا يمكن أن تنسى .

شطآن الفرات ـ 2

لشهر محرم نكهة حـزن خاصّـة لا يـدركها إلّا أهـل الجنـوب وسـكان الفرات الأوسط ... حتى المدن المقدّسة تفتقد هذه المسحة من الأسى الذي يعتصر قلوب الناس الفقراء...

حلّ الحزن في الرفاعي كما هو شأنه في كل عام إلّا أن هذا العام قـد بـدا جديداً في أساه بعد رحيل السيد محسن الحيكم وما شاع أنه توفي بعـد اتهـام ابنه سيد مهدي بأنّه جاسوس!

وما تزال مشاهد تشييعه الذي استمر ثلاثة أيام مـن بغـداد إلى النجـف مروراً بكربلاء ماثلة في العيان وكيف دخل الجيش حالة الانذار «جيم».

استمرت مجـالس العـزاء اربعـين يومـاً في كـل أنحـاء العـراق وكانـت الرفاعي ترتدي ثوب الحزن لكثرة الذين يقلدون المرجع الراحل الذي ملأ جوامع العراق بالمكتبـات فأصـبح للجـامع دور ثقـافي وفكـري وواجهـة عصرية.

صادف شهر محرم فصل الخريف ما ضاعف من مشاعر الناس بالحنين والأسى أما الأطفال فكان لهم شأن آخر... فقد بدأوا في تحضير الأعلام والسيوف المصنوعة من العصي والدرق من علب الزيت الكبيرة..

فيما كان الكبار يستعدون لاقامة التشابيه في يوم العاشر من المحرم والفتيات والنسوة لعرس القاسم واعداد صواني الشموع والحناء وعيدان البخور..

حتى الطبيعة تكتسب ملامح تاريخية قديمة فالشط يبدو شط الفرات والنخيل الممتد على ضفاف نهر الرفاعي يمثل المشرعة والساحة الممتدة من الضفاف وحتى حقول الحنطة ستكون أرض الطفوف .

الشريعة على ضفاف الشط سيكون معسكر يزيد، أما أصحاب الحسين فسيكون مخيمهم على مشارف الحقول بعيداً عن النهر.

سبق الصغار الكبار في إقامة التشابيه إذ انطلقوا في السادس من المحرم إلى تخوم المزارع وقد انقسموا إلى فريقين، فريق مؤلف من عشرين صبياً تتراوح أعمارهم بين السابعة إلى الثالثة عشر من العمر وفريق صغير مؤلف من سبعة أطفال وبأيدي الجميع سيوف خشبية ودرق وكان حسام مع الفريق الصغير وكان يحب أن يمثل دور أبي الفضل الذي يهزم الأعداء مرّتين.

راح فريق يزيد المؤلف من داغر وجسّام وصگبان يجولون عند الساقية

وقد ملاؤا الفضاء ضجيجاً بصياحهم:

«الدولة دولة يزيد الدولة دولة يزيد!».

كان حسام قد أكثر من ملازمة جدّه وكان يسأله عن يوم العاشر وما جرى في كربلاء وحفظ بعض الأشعار خاصة أشعار أبي الفضل عندما قطعوا يديه وهو يحاول جلب الماء للأطفال.

وقد اقنع حسام أخته أن ترتدي عباءة أمها وتحمل دميتها وكذلك فعل خليل الذي مثل دور الإمام إذ أحضر معه ابنة عمته الصغيرة كان الضجيج ما يزال يعلو!

الدولة دولة يزيد الدولة دولة يزيد

انطلقت صرخة من فريق الإمام:

«الله أكبر الله أكبر» وهجم ثلاثة منهم فاشتبكوا مع فريق يزيد وكانت صوت العصي وهي تتلاقى مثيراً وسقط الثلاثة صرعى وتظاهر جنود يزيد بقطع رؤوسهم وهنا هجم حسام فبددهم...

وفي هجوم آخر كان يحمل القربة فوصل إلى الساقية بعد قتال شديد واستطاع أن يملأ القربة بالماء ويعود ولكن ...

وكان صوته ينطلق أثناء المعركة:

والله إن قطعتموا يميني إني أحامي أبدً عن ديني

وتنتهي المعركة مع سقوط الجميع بينما يعلو هتاف:

«الدولة دولة يزيد الدولة دولة يزيد».

وخلال الأيام التي تلت ذلك كان حسام يتساءل في نفسه بدهشة كيف ارتضى كل هذا العدد من اترابه أن يكونوا مع جيش يزيد ويهتفون بحناجرهم: الدولة دولة يزيد؟! كيف؟!

في صباح يوم العاشر من المحرم كانت المنطقة المحاذية لحقول القمح والتي تنتهي من طرفها الآخر عند الشط قد اعدّت لتكون مسرحاً للتشابيه فقد نصبت بعض الخيم الصغيرة والكبيرة عند حافة الزرع وظهر شبان ورجال يرتدون ثياباً يغلب عليها اللون الأزرق الفاتح والأخضر البراق وكان الأطفال يرتدون ثياباً وردية اللون...

وعلى حافة النهر كانت الخيام التي ترمز لجيش يزيد من اللون الذي يشبه بدلات الجنود المشاة أما الرجال فقد غلب على أزيائهم اللون الأحمر، وقد شهروا سيوفهم التي كانت تبرق كجلود الأفاعي...

تميز هذا العام عن الأعوام السابقة باستعدادات أكثر من حيث كثره المشاركين في المعسكرين وحماس الجميع، وأيضاً حضور مفرزة مسلحة من الشرطة أوقفت سيارتها قريباً من معسكر يزيد وحضور شخصيات عشائرية في طليعتها شيخ عشائر بني ركاب حربي آل مزعل وحضور شيخ وصل من النجف الأشرف قيل أنّه وكيل يمثل السيد محمد باقر الصدر.

كان جنود يزيد يقرعون طبول الحرب ويجولون في ساحة المعركة

ويقومـون بحركـات استفزازية متوعـدين أصـحاب الحـسين بالقتـل والذبح.

كان قد انبرى إلى تمثيل دور الحسين رجل وقـور مـن الـسادة وقـد بـان الشيب على لحيته.

وكان رائعاً في وقفته التي عبرت عن بطولـة وابـاء ممتزجـة بالمظلوميـة، حتى أن النسوة - خاصّـة النـسوة اللائـي اجتـزن مرحلـة الـشباب - قـد شرعن بالبكاء لمشهد الرجل وقد حف به صبية وأطفال والى جانبـه وقـف شبيه أبي الفضل العباس وهو يرتدي لامة الحرب وكانت الرايـة الخـضراء التي خط عليها:

«نصر من الله وفتح قريب» تخفق فوق هامته.

ويبدو ان الجمهور قد اندمج بالمشهد بعد ما علا صـوت شـبيه الحـسين بالخطاب وسط قرع الطبول...

ـ أيها الناس إن الله تعالى خلق الدنيا فجعلهـا دار فنـاء وزوال متـصرفة بأهلها حالاً بعد حال فالمغرور من غرّته والشقي من فتنته فلا تغرنكم هـذه الدنيا..

تزايد قرع الطبول والتـشويش عـلى الخطـاب الحـسيني الـذي حـرص الشبيه على إلقائه بطريقة الشيخ عبد الزهـرة الكعبـي الـذي منـع بثـه عـبر الإذاعة.

وتطور الوضع عندما قام جنود يزيد برمي السهام فالتفت الحسين إلى اصحابه قائلاً:

ـ قوموا إلى الموت الذي لابد منه فإن هذه السهام رسل القوم اليكم.

والتحم الفريقان في القتال وقد التهب شعور الجماهير حتى خيّل إليهم أن ما يجري هو حقيقي وواقعي وليس بتمثيل.

وهوى عدد من أصحاب الحسين صرعى على الأرض وراح أبو الفضل وعلي الأكبر يحملان الشهداء إلى داخل خيمة وعلا البكاء والنحيب عندما وصل الدور إلى أهل البيت في الاستشهاد والواحد بعد الآخر ولم يبق سوى أبي الفضل وكانت الراية ما تزال تخفق..

وعندما استأذن أخاه في الهجوم علت أصوات طفولية: تهتف بحرقه وألم: العطش العطش.

كان حسام مأخوذاً بما يجري وكانت قبضته تشتد على حجر فقد صمم مع صديقه خليل على رمي الشمر بعد انتهاء المعركة..

لمح الحاج حامد حفيده وعرف أن حسام سوف يقوم بذلك وتصوّر ما سيحصل فابتسم على الرغم منه وقال:

ـ ابني! أنّه مجرّد تمثيل.. بارك الله فيك وفي غيرتك واجرك على الحسين.. ولكن ما ذنب هؤلاء المساكين.

نظر حسام إلى جدّه وتراخت قبضته وسقط الحجر من يده أما

صديقه خليل فقد اختفى..

لم ينتبه الناس إلى حضور سيارة أخرى للشرطة الذين يعتمرون بيريات حمراء اللون... ترجلوا من سيارتهم ووقفوا قريباً جداً من جيش يزيد حتى بدوا جزءً من معسكر بني امية .

حان الوقت لهجوم أبي الفضل الذي راح يودع أخاه بشكل مؤثر...

ووفقاً لما جرت عليه العادة فإن للعباس ثلاث حملات وفيها يخلخل جيش يزيد ويلحق به هزيمة ساحقة. وفي الحملة الثالثة من أجل ملء القربة بالماء وصل في حملته إلى شرطة الانضباط الذين كانوا يعتمرون البريات الحمر وقد شاهدوا في عينيه ما ينذر بالخطر فولوا هاربين مع من هرب من جنود يزيد .

وانتشى الجمهور بسكرة النصر الذي يراه بأم عينيه ولكن العباس كان في طريق العودة وتتكالب عليه الجموع تكالب الذئاب فيصيح باعلى صوته..

ـ السلام عليك يا أبا عبد الله.

وهنا ينتضي الحسين سيفه ويهجم كالليث الغضبان فيتفرق عنه الاعداء ويجلس الحسين عند رأس أخيه الذي ودع أخاه...

ويعود الحسين إلى المخيّم وقد بدا منكسر الظهر لفقده أخيه وحامل الراية..

ويحتفُّ به الأطفال والنساء، يتعلقـون بـه ويبكـون ويـودع الحـسين عياله ويشنّ هجومه الكاسح على جيوش يزيد الـذين يتبعثـرون قـرب الشاطئ...

وعندما وقف ليستريح يتلقّى الحسين سهماً غادراً يصيب قلبه أو هكـذا يبدو فينظر إلى السماء ثم يهوي صريعاً وتهوي الراية فوق الثرى.. وتنبعـث من الجمهور صيحات الأسى والبكاء ويبـادر الـشمر فيرتقـي عـلى صـدر الحسين.

وهنا حدث ما لم يخطر على الأذهان إذ يصيب حجر رأس الشمر الـذي يصرخ ألماً لكنه يبادر إلى استكمال مهمته في ذبح الحسين. وفي هذه اللحظـة يتغير الجوّ فقد قام النسوة بالقاء التراب على رؤوسهن وعلا صوت العويل لتتحول تلك البقعة إلى مناحة كبرى..

كان رجال الشرطة من ذوي القبعات الحمر قد استعدوا لإلقاء القـبض على بعض الأشخاص من الفريقين بتهمة الفرار من الخدمة العسكرية..

وكانت وتيرة الفرار من معسكرات الجيش قـد زادت بـشكل ملحـوظ بعد انتشار فتوى السيد الحكيم بحرمة محاربة الاكراد...

شطآن الفرات ـ 3

يمكن لمن يمرّ ذلك المساء الخريفي من أمام الـدار التـي يقطنهـا وكيـل السيد الصدر والذي عرف بالشيخ ابو محمـد ان يـسمع طرفـاً مـن الحـوار الذي دار بينه وبين شيخ حسين وهو شاب من أهالي الرفاعي قصد النجف للدراسة الدينية وقد عاد إلى أهله في شهر محرم وصفر حيث تعطل الدارسة في الحوزة العلمية بالنجف خلال موسم الحزن .

ولو أرهف المرء سمعه لسمع صوت أحد الشبان وكان نادراً مـا يـتكلم إلّا ان السامع لن يفهم مما يدور شيئاً فقد امتزج مـع صـوت حـزين غـير مـألوف لشخص يتحدث من دون توقف.. وكان الصوت الذي ينطوي على رنة أسـىً يمتزج مع أصداء هوام الليل في ذلك المساء الخريفي بالقرب من الشط:

ـ ان كل محنة لها جانبها الموضـوعي وجانبهـا الـذاتي، فلابـدّ ـ بالاضـافة إلى التفكير في الجانب الموضوعي الذي تتولى التفكير فيه الجهات المسؤولة عن تلـك المحنة ـ لابد للممتحنين جميعاً أن يفكروا في الجانب الذاتي من المحنـة أيـضاً وأن يعيشوا المحنة كعملية تطهير لأنفسهم وتزكية لأرواحهـم وتـصميم عـلى التوبـة

من التقصيرات المتراكمة المتدافعة التي عاشوها عبر حياتهم العملية والعلمية، هذه التقصيرات قد لا يحسّ بكل واحد منها على حدة.. لكنها حينما تتراكم تتحول إلى فتنة تأكل الاخضر واليابس... تأكل من ساهم ومن لم يساهم... تأكل من قصر ومن لم يقصر... حتى الحسين نفسه أكلته الفتنة بالرغم من أنّه كان أنظف الناس وأبعد الناس عن كل تقصير في قول وعمل...

قال شيخ حسين:

ـ متى ألقى السيد هذه المحاضرة.

قال الشيخ أبو محمد:

ـ في صفر العام الماضي في أواخر شهر صفر.

وجاء الصوت الحزين.

ـ أضرب لكم مثلاً قبل أن نأتي إلى الموضوع الذي نتحدث عنه هناك محنة يعيشها العراق منذ سنين وسنين... محنة صراع مسلّح بين أخوين مسلمين في الشمال... بين بعض الاكراد وبعض العرب هذه محنة يعيشها العراق...

قد يخطر على بال الإنسان.. يعني قد يكون شعور بعض الناس ازاء هذه المحنة أنّ هذه المحنة كلّفته ولده... كلّفته أخاه.. كلّفته صديقه... لأنّه أُخذ أخوه أو أُخذ أبوه أو أُخذ صديقه للمعركة فقتل قد يعيش هذه المحنة على هذا المستوى ويشعر بها بهذه الدرجة وهذا هو الشعور الشخصي المحدود بالمحنة.. وموقفه ازاء هذا الشعور أن يهرّب أخاه، أن يهرّب أباه.. أن يتهرّب من واجبات القانون حتى لا ينخرط في مأساة من

هذا القبيل ولا يرى واجباً وراء ذلك..

وأخرى يتعمق هذا الشعور أكثر فأكثر، فيكون شعوره ازاء المحنة شعوراً إقليمياً على أساس أن أبناء البلد الواحد يتصارعون ويتنازعون فيما بينهم، وهذا الشعور والانفعال الأقليمي تجاه المشكلة يؤدي إلى اتخاذ موقف أوسع من الموقف الأول... إلى موقف يفكر فيه بأنه كيف يعيد الصفاء والسلام إلى أبناء البلد الواحد.

وقد يكون شعوره أعمق من هذا وذلك... قد يشعر ولا يرى واجباً وراء ذلك..

وقد يكون شعوره أعمق من هذا وذاك... قد يشعر بأزاء المحنة أن هذه المحنة هي نتاج عدم تطبيق شريعة الله على هؤلاء المسلمين إن عدم تطبيق شريعة الله عليهم هو الذي أدّى إلى تعميق التناقض بين الأخ وأخيه حتى ولدت مشكلة بين هذا وذاك وتصارع الكردي والعربي وكذلك المحنة التي نعيشها الآن.

تساءل الشاب:

ـ ماذا يقصد السيد بذلك؟

قال الشيخ أبو محمد:

ـ محنة تسفير الطلبة الايرانيين والباكستانيين.

وعلق شيخ حسين:

ـ أصبحت النجف كربلاء ثانية.

ـ انهم يستهدفون تدمير الحوزة.. تحطيم هذا الكيان.

ـ السيد يستشعر الخطر أنّه يتصوره على الأبواب لهذا فهو يـذكر مأسـاة الفقيه محمد بن عمير الذي تعرّض لتعـذيب رهيـب عـلى أيـدي جـلاوزة هارون وكانوا يطلبون منه الكشف عن أسماء تلامذة الإمام الصادق ولكنه صمد. يقول أنّه انتابته لحظة ضعف أثناء التعـذيب وأراد الاعـتراف لكـن تمثّل له أستاذه حمران – وكان قد توفي – يقول له: يا محمـد إيـاك أن تنطـق بكلمة ولو مت تحت السياط....

وجاء صوت السيد حزيناً لكنه ينطوي على أصداء من الإباء والبطولة.

ـ حمل هكذا إلى بيته بعد أن عجزوا عن استنطاقه ثم صودرت أملاكـه. كان بزازاً تاجراً واسع النطاق في الثراء والمال واصبح بين عـشية وضـحاها إنساناً فقيراً لا يملك شيئاً .

تساءل شيخ حسين:

ـ ترى هل يعيد التاريخ نفسه كما يقال؟!

ـ من يدري غير اني اؤمن بأن السيد يرى ما وراء ستار المستقبل أنّه يرى أهوالاً سوف تحدث ولهذا فإن المرء يلاحظ في عينيه حزناً وأسى أكـاد أرى في عينيه سماء ملبّدة بالغيوم... حتى صـوته ينطـوي عـلى نـبرة مـن حـزن جنوبي. اسمع هذا المقطع.

وجاء صوت السيد يقول:

ـ من أعظم مظاهر هـذا الـشعور بالمـسؤولية هـو الـشمول.. يعنـي أن

يكون هذا الانفعال وهذا الغضب وهذا الشعور بالألم.. ان يكون هذا الالم الماً يعيشه كل أبناء هذا الكيان لا أن يعيشه من يواجه النار وجهاً لوجه...

يجب أن يشعر اي واحد منا بأن الجسم الواحد إذا قطعت يده اليمنى أو قطعت يده اليسرى فليس بامكان اليد الأخرى أن تقول: أنا في أمان لاني أنا لم أقطع قطعت اليد الأخرى وأنا لم أقطع لأن إحدى اليدين إذا قطعت فاليد الأخرى سوف تشل عن العمل في لحظة عاجلة أو آجلة حتماً.

ثم أولئك الذين يواجهون الأحداث وجهاً لوجه يجب ألا ينهاروا ... ألا يفقدوا إرادتهم بين ساعة وأخرى يجب أن لا يشعروا بأن حل المشكلة هو أن يغادروا أرض الله الطيبة هنا.

قال ابو محمد:

ـ لقد بدأت ظاهرة النزوح من النجف اعني عودة الطلبة إلى ديارهم سواء في الداخل أو الخارج وإذا استمر الوضع على هذا المنوال فإن كيان الحوزة سوف يتفتت بعد سنوات قلائل.

وحدثت ضجة في هدأة المساء فخرج شيخ حسين ومعه الشاب لاستطلاع الأمر.

وعادا بعد مدّة كان شيخ حسين يضحك، سأله ابو محمد:

ـ ماذا وراءك؟

ـ الشمر معصوب الرأس ويطارد أخاه!

ـ لا أكاد أفهم!

ـ ألم تنتبه للمشهد اليوم عندما أراد الشمر ذبح الحسين تلقى حجراً على رأسه.. وتبين أن أخاه هو الذي عصّبه بذلك!!

استطاع خليل الافلات ولجأ إلى بيت صديقه حسام وهذه خامس عملية هروب بعد أن نجح أربعة من الفارين من الخدمة العسكرية في الهروب من قبضة ذوي القبعات الحمر..

وكان الأهالي قد ساعدوا الفارين على الافلات ..

كانت أسرة الحاج حامد تصغي إلى ما يقوله خليل وكان خليل يروي قصته وملامح من خوف يشوبها دهشة تنعكس على وجهه البريء قال:

ـ ما خطر في بالي أن يكون الشمر هو أخي لقد كان ملثماً.

قال الحاج حامد:

ـ ومن تظنه سيكون؟ إنّه أحد أبناء هذه المنطقة.

ـ لم أفكر في ذلك أبداً لقد تراءى لي أنّه الشمر وشعرت بنار الغضب تستعر في قلبي.

وفي الاثناء سمعت طرقات على الباب وحدس الجميع هوية الطارق.

فتح الحاج حامد الباب بنفسه فجاءه صوت ابو خليل:

ـ جئنا لنشرب الشاي عندكم.

لم يكن وحده كان معه ابنه فيصل وهو معصوب الرأس..

بعد أن استقر المجلس قال الحاج حامد:

ـ الزلمة دخيل والدخيل بأمان.

قال الأب وكان قد تجاوز الخمسين بقليل.

ـ ترضون يضرب رأس أخيّه.

ـ لا والله ما نقبل لكن هو ضرب الشمر.

ـ هذا لف ودوران يا حجي!!

ـ على كل حال الله سبحانه يقول: وإن تعفوا أقرب للتقوى.

ـ على العين والرأس بشرط لا يكررها.

ابتسم الحاج حامد:

ـ السنة الجاية هو متحلّف لابن سعد .

وتشعب الحديث إلى الزرع والأرض. ونهضوا قبل انتصاف الليل وكان خليل قد داخله شعور بالزهو فقد عومل باعتباره زلمة. أما حسام فقد ظل يتساءل في نفسه هل كان صديقه مخطئاً في فعله ومن هومن هو المذنب في ذلك؟ لماذا رضي فيصل أن يقوم بدور الشمر ولماذا ارتضى مجبل دور حرملة وكبرت اسئلته لتصل إلى قوله إذا كان الناس يحبون الحسين فلماذا سمحوا بقتله؟!

لم يكن حسام بالرغم من ذكائه ليستوعب ما يجري وما سيجري في الآتي من الأيام سوف يكبر ويكبر جيله وأبناء منطقته وسوف تتوزعهم دروب الحياة سيؤدي دوره في الحياة سيصبح بعضهم من ذوي القبعات الحمر وبعض سيؤدي دور المطارد والمشرّد.. قد يصبح أخو خليل سجّاناً وضابط استخبارات وقد يؤدي خليل دور مسلم بن عقيل يطارد فلا يجد مأوى أو ملاذ.. وربما يصبح فلان وفلان الذين يشاركهم في اللعب

والسباحة في النهر جنوداً في جيش ابن سعد من يدري!

في مساء اليوم التالي وبعد أداء صلاة العشاء وكالمعتاد كان حسام يرافق جدّه وقد جاء دور المنبر الحسيني فارتقى المنبر وكيل السيد الشيخ ابو محمد وراح يتحدث عن المجتمع ثم ساق الكلام إلى حديث للإمام زين العابدين نجل الإمام الحسين:

ـ يقول سيد الساجدين زين العابدين على بن الحسين عليهم السلام.

وهو يتحدث عن عصره: «الناس في زماننا على ست طبقات أسود وذئاب وثعالب وكلاب وخنازير وشياه... فإما الأسود فملوك الدنيا يحب كل واحد أن يَغلب ولا يُغلب... وأمّا الذئاب فتجاركم يذّمون إذا اشتروا ويمدحون إذا باعوا وأما الثعالب فهؤلاء الذين يأكلون بأديانهم ولا يكون في قلوبهم ما يصفون بألسنتهم، وأما الكلاب فيهرّون على الناس بألسنتهم فيكرمها الناس من شرّ ألسنتها وأمّا الخنازير فهؤلاء المخنثون وأشباههم لا يُدعون إلى فاحشة إلا أجابوا وأمّا الشياه فهم المؤمنون الذين تجزّ شعورهم وتُؤكل لحومهم وتكسّر عظامهم... فكيف تصنع الشاة بين أسد وذئب وكلب وخنزير؟!!

دجلة ـ 2

أجواء محرّم واضحة في مدينة الكاظمية فالأعلام والرايات السود واللافتات كبيرة وكثيرة وكلما ابتعد المرء عن مرقد الإمامين الكاظمين تقل نسبة مظاهر الحزن، كانت هناك بعض الأعلام في الشارع حيث يقع منزل أبو ميسون في منطقة علي الصالح..

انفتح الباب وخرجت سيارة وعندما اخذت موقعاً في جانب الرصيف من الشارع ترجّل أبو ميسون، كان يرتدي بدلة داكنة اللون وقميصاً أسود فهو يعتقد بأن محرم هو شهر حزن ويجب ارتداء السواد طوال الشهر.

نادى:

ـ يا الله شويه بسرعة ورانا مشوار طويل.

ـ حاضر.

أجابت أم ميسون وهي تحث اختها وابنتها على الاسراع كانت تمسك بيد ابنتها التي تبلغ من العمر ثلاثة أعوام.

وجاءت ميسون مع خالتها وفتحت الباب الخلفي للسيارة تساءل:

ـ هل أقفلت الباب في الداخل.

ـ نعم.

وانسابت السيارة تشق طريقها في ذلك الصباح الخريفي...

قالت ام ميسون:

ـ انشاء الله ساعتين ثلاثة ونصل النجف.

وبلهجة فيها شيء من التهكم علّق أبو ميسون :

ـ مضبوط!

ـ المسافة كلها ١٣٠ كم!

ـ اضربي الرقم في أربعة.

ـ ليش يابه؟!

ـ أنت ما حاسبه حساب السيطرات بالطريق.

فتح راديو السيارة وجاء صوت المذيع هنا: إذاعة بغداد تقدم لكم الآن اغنية لا خبر لا... غير الموجة ثم أطفأ الجهاز كانت السيارة قد وصلت إلى ساحة التحرير وظهر نصب الحرية...

كانت بغداد هادئة إلى حد ما في ذلك الصباح الحزين.. لم تكن هناك أية لافتة سوداء او أعلام ولكن بدا المكان حزيناً انها النفس الإنسانية ترى الأشياء كئيبة إذا مستها موجة حزن وتراها راقصة طروب إذا رجتها هزّات الفرح...

لوهلة اشتعلت في ذاكرته ضجيج مظاهرات قديمة في زمن عبد الكريم قاسم بعد فشل حركة الانقلاب بقيادة عبد السلام عارف.

ـ لا تگول ما عندي وكت اعدم ... اعدم.

الما يصفق عفلقي والحبال موجودة ...

ـ هاي شبيك أبو ميسون انتبه للطريق.

ـ تذكرت الشعارات أيام زمان والآن العفالقة بالحكم والناس يهتفون: كل الشعب وياك يا مجلس الثورة ... بعدها لما جاء السيّد إلى بغداد الناس طلعوا بالآلاف يهتفون: كل ارواحنه فدوه لأبو يوسف!

ـ فدوه اروح لك لا تدخلنا بالسياسة هؤلاء لا يرحمون صغير ولا كبير والدي الله يرحمه من سمع بالانقلاب سقط من ايده استكان الشاي وقال: الله يستر رجعوا الحرس القومي!

وفيما كانت السيارة تعبر نهر دجلة

جاء صوت خالة ميسون.

ـ عيني ميسون اين وصلت بدرس القراءة

كانت ميسون ومن شدة تعلقها بالمدرسة قد احضرت معها كتاب القراءة الخلدونية قالت:

ـ خالة وصلت: إلى متى يبقى البعير على التل؟ إلى المساء. من طوى ردائي؟ سلمى طوت ردائي.

قالت ذلك وراحت تتصفح كتـاب القـراءة وظهـر البعـير واقفـاً عـلى التلال التفت ام ميسون إلى زوجها وقالت:

ـ وصل البلاغ للمدرسة حول القراءة الخلدونية المديرة ابلغتنا أن كتاب القراءة هذا حيلغى من المنهج الدراسي السنة الجاية.

انتظرت تعليقاً من زوجهـا فرأتـه يـؤثر الـصمت فحولـت نظرهـا إلى الجانب الآخر تراقب رتل السيارات الذي راح يخفف من سرعته..

ذهن أبو ميسون سرح إلى ما يخبئه المستقبل وقال في نفسه: إلى متى يبقى البعير على التل؟!

وصلوا إلى مدينة البياع في تخوم بغداد.. لاحظ ان السيارات التي تسبقه بدأت تخفض من سرعتها بشكل واضح.

ـ بدت لغاوي التفتيش هذه سيطرة الدورة.

اصطفت السيارات في طابور طويل.

ـ من هنا نبدأ باحتساب الوقت الضائع.

ـ ماذا يفتشون؟!

ـ الحقائب والسيارات.

ـ ليش احنا وين مسافرين؟ قابل حنروح إلى بلد اجنبي؟

ـ من سافرت للكويت ما كان تفتيش مثل هذا!

ـ طول بالك.

ووصل الدور وظهر شخص يتّسم وجهه بالصرامة مع شارب كث:

ـ مرحبه أخي

ـ أهلا بيك

ـ هويتك

ابرز له بطاقة نظر فيها ودون أن يحول بصره عنها قال:

ـ وين تسكن!

ـ بغداد

ـ بغداد كبيرة

ـ على الصالح

ـ لوين رايح؟

ـ النجف

ـ الزيارة

ـ نعم زيارة أقارب

اعاد له الهوية قائلاً:

ـ افتح الصندوق

ترجل أبو ميسون وفتح صندوق السيارة وراح الرجل يعبث في الحقيبة.. التفت إلى أبو ميسون قائلاً.

ـ تفضل .

وغادرت السيارة بغداد واستوت على الطريق العام وظهرت مجاميع من

الناس من مختلف الاعمار بعضهم يحمل أعلام سود أو خضر.

كان مشهد أولئك الناس وهم يقطعون المسافة إلى كربلاء مشياً على الأقدام مهيباً ومؤثراً قالت أم ميسون.

ـ هنيئاً لهم على هذا الإيمان.

ـ صدق من قال حب الحسين أجنّني.. هؤلاء ليسوا مؤمنين فقط هؤلاء عشّاق..

وخلال الطريق كانت نقاط التفتيش كثيرة حتى ان أم ميسون قالت:

ـ ليش كل هذا التفتيش؟؟

ـ هؤلاء يريدون أن يرهبوا الناس.. اسألي والدك عن الحرس القومي.

مضت ثلاث ساعات إلى أن وصلوا مدينة الكفل وكان حدس أبو ميسون صحيحاً حتى أنهم بعد أن وصلوا الكوفة كانوا قد اجتازوا الكثير من نقاط التفتيش قال أبو ميسون.

ـ هذا الطريق أهون من طريق كربلاء فهناك ما هو ادهى وأمرّ.

ساد الصمت لحظات وكانت السيارة تخترق طريقاً تنتشر على جانبيه الأشجار وعبرت السيارة نهراً صغيراً... قال أبو ميسون:

ـ هنا منطقة حلوة على نهر الفرات نرتاح فيها ما رأيكم؟

لم يسمع جواباً نظر من خلال المرآة كانت ميسون نائمة في حضن خالتها والخالة هي الأخرى قد غلبها النوم.. اما زوجته فقد التزمت

الصمت يبدو انها كانت مستغرقة في الفكر أو أنّها على وشـك أن تغـرق في بحيرة رائعة من خدر النوم ابتسم أبو ميسون وخفـض مـن سرعتـه وراح يقود السيارة على مهل في طريق فرعية خالية وبعد دقائق اصبح الطريـق في محاذاة نهر الفرات فبدا مشهد الفرات تلك الظهيرة العظمى أخـاذاً... عـلى ضفاف هذا النهر وقبل ثلاثة عشر قرنـاً دارت في مثـل هـذه الأيـام أعظـم معركـة في تـاريخ الإنـسان... بحيـث يبقـى اسـم البطـل قويـاً وفي ذروه العنفوان وتبقى كلماته ترنّ في سمع التاريخ: هيهـات منـا الذلّـة.. ويهتـف عشاقه على مرّ العصور والاجيال: ابد والله ما ننسى حـسيناه... وراح أبـو ميـسون يـسترسل في أفكـاره هــل كـان يفكـر في المـاضي.. الحـاضر.. المستقبل... لا أحد يدري وأفاق إلى نفسه على صوت ميسون.

الفرات ـ 4

كان الضباب كثيفاً وجاثماً على الأرض الموحلة في صبح ذاك اليوم من أخريات كانون الثاني، درجة الحرارة كانت منخفضة ما جعل البرد قارساً والسماء مثقلة بجبال من الغيوم وفي مثل هكذا جوّ حيث تختفي الظلال تفقد الأشياء لونها أو تبدو باهتة لا لون لها.

ذهب حسام إلى مدرسته في أطراف المدينة الصغيرة وسلك طريقاً غير طريقه المعتاد بسبب الوحل الذي يجعل من السير في بعض الطرقات أمراً شاقاً، كان يضع يديه في جيبه وقد تأبط حقيبته ومرّ في طريقه بالمسجد فلفت نظره الباب إذ كان نصف مفتوح لكنه واصل طريقه نحو المدرسة فوصل مع رنين الجرس.

دخل التلاميذ في صفوفهم وجلس حسام في رحلته القريبة من السبورة وساد السكون، تناهى إلى سمعه أصداء موسيقى لم يكن قد سمعها من قبل، وجاء معلم الجغرافية وهو من أهالي الشطرة فبدأ بإلقاء مادّة الدرس وبين فترة وأخرى كان يقترب من باب الصف عندما ينقطع صوت

الموسيقى محاولاً سماع صوت المذيع كانت ملامح الفرح واضحة في وجهه لم يهتم حسام بالأمر وقد انصرف إلى كتاب الجغرافية المفتوح أمامه، كان حسام مجدّاً في دروسه وقد اظهر تفوقه في وقت مبكر واصبح معروفاً لدى الجميع حتى مدير المدرسة كان يبتسم له كلما رآه ... فقد جمع الذكاء إلى الخلق والأدب وكان يبدو أكبر من سنِّهِ.

رنّ جرس الفرصة وقد فضل معظم التلاميذ البقاء في الصفوف بسبب البرد... كان الضباب ما يزال جاثماً ومن خلال نوافذ المدرسة كانت الحقول قد اكتنفها الضباب الكثيف...

وبعد أن رنّ الجرس للمرّة الثالثة حضر مدرس الحياتيات الذي بدا ساهماً يكثر من النظر من خلال النافذة إلى السماء الملبّدة بالغيوم.

القى المدرس نظرة على السبورة ثم التفت إلى حسام وطلب منه ان يحضر طباشير ملوّنة..

أسرع حسام إلى غرفة الإدارة وطرق الباب مستأذناً كان صوت الموسيقى العسكرية ينبعث من جهاز راديو موضوع على رف النافذة وكان المدير قد أدار وجهه باتجاه النافذة اشار بيده إلى حسام من دون أن يلتفت وكأنّه يعرف سبب حضوره...

ومن علبة كارتونية صغيرة أخذ حسام ثلاثة أصابع من الطباشير وفي خروجه ألقى نظرة على المدير الذي بدا نهباً لأفكار لا نهاية لها...

عاد حسام إلى منزله كالعادة كان يتوسط صديقه خليل وجابر وخلال دقائق افترقوا وأخذ كل واحد طريقه...

وجد أخته تنتظره وقد ارتدت حلّتها المدرسية إذ عليه أن يوصلها إلى المدرسة في مثل هذا الجو. كانت والدته فيما سبق تقوم بهذه المهمة ولكن بدت تعاني من آلام في الظهر فطلب منها أن يقوم هو بهذه المهمة.

وقد ابتهجت الأم كذلك إذ رأت في عينيه شهامة مبكرة لم تجدها حتى في زوجها حتى انها قبلته ورفعت كفيها إلى السماء أن يوفقه الله ويحميه من كل سوء...

وكانت أنعام أكثر سعادة فهي تحب أخاها بشكل عجيب أثار انتباه الأم...

كان حسام يحنو على أخته الصغيرة ويساعدها في درس الحساب ويشجعها على الدراسة وهي لا تنسى العروسة التي اشتراها لها عندما نجحت في الصف الاول... وقد بلغ تعلّقها بدميتها انها كانت تأخذها معها إلى المدرسة وتضعها إلى جانبها عند النوم...

حلّ المساء وما تزال الشمس غائبة وراء اكوام السحب، كانت أم حسام قد اسرجت الفانوس الذي راح يبدد الظلام في الحجرة جلس حسام قرب المدفأة التي طالما سبح في خيال لهبها الأزرق أنّه يذكر جيداً اليوم الذي اشتراها ابوه عندما ذهب إلى الناصرية قبل عامين وشدّته جملة: «دجلة

ذات اللهب الأزرق»... وتمنى وقتها أن يرى نهر دجلة..

لم يأت الحاج حامد كما هي العادة بعد صلاة العشاء وكذلك والد حسام وعرف حسام من خلال أمه انهما في مضيف شيخ حربي.

تناول عشاءه بصمت ثم نظر إلى أمه كما لو أنه يستأذنها في الذهاب إلى هناك... وادركت الأم رغبته فطلبت منه أن يأخذ معه علبة التبغ إلى جدّه حيث يلف معظم الرجال سجائرهم بأنفسهم ... فرح في داخله فقد وجدت له والدته سبباً في الذهاب إلى المضيف.

أخذ المصباح اليدوي وانطلق إلى المضيف... كانت السماء تنث مطراً ناعماً وتألقت قطرات المطر في دائرة الضوء. عندما وصل باب المضيف الكبير المصنوع من حزم كبيرة من القصب والبردي لاح له الموقد الكبير الذي يتوسط المضيف وقد استقرت دلال القهوة إلى جانبه ما أثار انتباهه واستغرابه، هو صوت الموسيقى العسكرية ينبعث من جهاز راديو كبير..

كان الوجوم يسيطر على الوجوه... قال حسام وهو يجتاز عتبة المضيف: سلام عليكم واتجه نحو جدّه وبيده علبة التبغ التي بدّدتْ نظرات الدهشة التي أطلقها والده .

سمع في طريقه جواباً لتحيته من هنا وهناك وادرك الجدّ أن حفيده لم يأت من أجل ايصال علبة التبغ لهذا أومأ لحفيده بالجلوس وأفسح له أبوه إلى جانبه مكاناً فاستقر به .

كانت أمواج الدفء التي أشاعها الموقد في المضيف قد نفذت إلى ضلوعه غير أن الموسيقى التي ما تزال تنبعث بصوت خافت والوجوه الساهمة لم تكن لتوحي بالرضا...

وعندما جاء صوت المذيع مدّ شيخ حربي يده ورفع الصوت قليلاً وجاء صوت المذيع وهو يتكلف الفخامة:

ـ أيها المواطنون! أن مؤامرة خسيسة قد دبرتها الامبريالية الأمريكية والرجعية الإيرانية مع الرجعية المحلية للإطاحة بالثورة ومكتسباتها لتعيد العراق إلى حظيرة الاستعمار الامريكي ونفوذه ومخططاته... ولكن الثورة بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي كانت للمؤامرة الدنيئة بالمرصاد فأحبطتها في مهدها وان الرؤوس المدبّرة الخائنة ستنال جزاءها الصارم.

وانطلقت الموسيقى العسكرية من جديد تصك الآذان .. وجاء صوت مذيع آخر ليعلن تشكيل محكمة ثورية خاصة في الصباح الباكر برئاسة الرفيق المناضل طه الجزراوي وعضوية الرفيق المناضل ناظم گزار والرفيق المناضل علي رضا .. وتقوم المحكمة الخاصة حالياً بالتحقيق مع المتآمرين واصدار الأحكام وتنفيذها فوراً...

وقد أصدرت محكمة الثورة بحق المتآمرين رشيد عبد المحسن الجنابي. صالح مهدي السامرائي جابر حسن حداد عبد الوهاب عبد الرحمن الداوود.. أحكام الإعدام شنقاً حتى الموت.

وتوقفت الموسيقى مرة أخرى فجاء الصوت الضخم المتكلف:

- أيها المواطنون حكمت محكمة الثورة بالإعدام شنقاً حتى الموت على المتآمرين الخونة راهي العبد الواحد آل سكر...

وفي هذه اللحظة خرج شيخ حربي عن وقاره وتماسكه وضرب بكفه على جبينه ... وقال: الله ينتقم منكم يا كلاب الآن حلّ الظلام بالعراق... هؤلاء أنذال لا يؤمن جانبهم، يغدرون حتى بأصدقائهم... تدرون عبد الوهاب الداوود يصير أخو ابراهيم الداود آمر الحرس الجمهوري الذي جابهم للحكم البارحة!

والمرحوم راهي العبد الواحد شيخ عشاير فتله شيخ محترم وجابر حسن حداد ضابط قومي هذا شنو علاقته بإيران؟! شي ما يشبه شي!

وسكت شيخ حربي واطفأ جهاز المذياع فساد سكوت سوى هسهسة النار في الموقد ووشوشة المطر خارج المضيف.

دجلة ـ 3

بغداد يغمرها الضباب يجثم على شوارعها وأحيائها فبدت مدينة موحشة في ذلك المساء الكئيب في أخريات كانون الثاني...

وكان الضباب جاثماً منذ يوم أمس كأنّما هو في حلف مع الموسيقى العسكرية التي ما انفكت منذ صباح أمس تنفثها أجهزة المذياع كأفاعي رقطاء.

كثيرون من أهالي بغداد انكمشوا في بيوتهم بسبب البرد وما تعلنه نشرات الأخبار خاصّة وأن مدير الاذاعة والتلفزيون هو الذي أذاع نبأ المؤامرة وأن قيادة حزب البعث احبطت هذه المؤامرة وبدأت الرؤوس تتساقط الواحد بعد الآخر إلى انتهت حفلات الأعلام بعد أن استكملت قتل ما يناهز الستين إنسان شيوخ عشائر تجار وضباط وحقوقيون وأطباء .

أي جنون يعصف بهذه المدينة ؟!

في صبيحة أمس كان أبو ميسون يستعد للذهاب إلى محل عمله في شارع النهر.

كان جهاز المذياع على الرف يبث برنامجه العادي عندما توقف فجأة ثم

ظهر صوت غريب لم يكن صوت احد المذيعين.

أيّها المواطنون نسترعي الانتباه... أن مؤامرة خسيسة قد دبرتها الامبريالية، الأمريكية والرجعية الإيرانية مع الرجعية العميلة للإطاحة بالثورة...

وعندما سمع بتشكيل المحكمة الثورية الخاصة برئاسة طه الجزراوي سقط كوب الشاي من يده، وألغى فكرة الذهاب إلى محلّه في شارع النهر، وظل جالساً قرب المذياع ساعتين ثم نهض واقترب من النافذة المطلّة على الحديقة..

الضباب ما يزال جاثماً والغيوم متراكمة بعضها فوق بعض حتى أنّه شعر بثقلها في قلبه... لم تستطع ميسون بوجهها البريء وابتسامتها المشرقة أن تبدد سحب الهم التي جثمت على قلبه كما يجثم غراب على غصن ميت في مساء خريفي.

تساءل في نفسه هل حقا أنه متشائم أم أنه يستشعر خطراً ما.. كل الناس الآن يحيون حياتهم العادية أنّه لا يعرف من هؤلاء الذين حوكموا واعدموا بسرعة ثورية أحداً فلماذا هذا الهمّ؟ ولماذا هذا الحزن؟ حدّثته أمه ذات يوم أنّه عندما كان طفلاً رضيعاً كان يبكي إذا سمع بكاء! هل مشاعره الآن استمرار لذلك الماضي البعيد؟!

راحت السماء تنث مطرها على هون فبدت وكأنّها تبكي بصمت...

تذكر أخاه وكلماته: لماذا لا تنظر إلى المستقبل بأمل أنت متشائم كثيراً...

ولكن أين هذا الأمل إنني لا أكاد أرى سوى الظلام هكذا كان يحدث نفسه، وقد تكاثفت ظلمة المساء، وكانت شجرة البرتقال الوحيدة تستحم في رشاس الغيث المنهمر.. ورنّ جرس التلفون وحدس أن تكون وراء الخط خالة ميسون أمرها عجيب! كم هي متعلقة بميسون لا تريد أن تفارقها أبداً رفع سماعة الهاتف:

- الو؟!

- مساء الخير أنا أبو شيماء

- ابو شيماء خير انشاء الله!!

- ما كو شي اشتقنا لكم... باختصار شديد احنا جاييلكم.

- على العين وعلى الراس لكن الجو بارد والمطر...

- يعني ما تريدون خطاطير؟!

- الضيف حبيب الله... اهلا وسهلا بيكم.. اتحبّ اجي عليكم بالسيارة؟!

- اتفقت مع أحد الجيران عنده سيارة تاكسي... ثلث ساعة واحنا يمك أريد شاي من راس القوري.

- نحن بانتظاركم.

قال ذلك ولم يحب ان يجاريه في المزاح... فحالته النفسيه لا تشجع على ذلك.

ومرّت الدقائق بطيئة متثاقلة، ونهضت أم ميسون لاعداد الشاي لقد شعرت بالنشاط يدب في داخلها وأصبح قلبها عصفورة تزقزق بفرح.. لقد سرى إليها الحزن من كثرة ما كانت تراقب زوجها بطرف خفي.. لقد كان يمثل مأساة قاتلة..

ميسون هي الأخرى عادت إليها الحيوية والبسمة عندما عرفت ان عمها سيأتي...

كان بخار شفيف يتصاعد من ابريق الشاي عندما جاء صوت بوق سيارة .. ارتدى أبو ميسون معطفه وأخذ مظلته لاستقبال الضيوف.

ـ مرحبا بيكم

ورحبت ام ميسون بالضيوف.

ـ كل الهلا بيكم

واتجه الجميع إلى الغرفة فهم يعرفون طبيعة أبو شيماء في عدم رغبته في الجلوس في صالة الضيوف وطالما كان يعلق بأنها تذكرني بأن اقامتي مؤقتة.

وعندما كانوا يحتسون الشاي قالت أم شيماء لزوجها:

ـ أشو ساكت ليش ما تحچي؟!

ـ التفت أبو ميسون وقال لأخيه:

ـ ها ابو شيماء اكو شي؟

ـ لا والله ماكو شي... بس.

ـ كمّل!

ـ والله فكرت ان نروح للزيارة ... هل يعتبر هذا خبال؟

ـ لا مو خبال لكن غير طبيعي... في مثل هذا الجو!

ـ الجو شاعري وزيارة الإمام أجر وثواب والأجر على قدر المشقة

ـ قبل ما تبدأ محاضرتك رايح أبدل ملابسي أنا أيضاً أشعر بالضيق نروح نزور باب الحوائج.

قالت أم شيماء:

ـ نحن هماتين نجي للزيارة؟!

قال ابو شيماء:

ـ هذي فرصة يمكن بعدين نمنع من الزيارة.

نظر أبو ميسون إلى أخيه نظرة طويلة ولم يقل شيئاً غير أن ملامح الحزن عادت من جديد إلى وجهه.

كانت السماء ما تزال تنث المطر ... السيارة تسير في شارع يكاد يكون خالياً قطرات المطر تتألق أمام دائرة الضوء .. الماسحات تنزلق يميناً وشمالاً فوق زجاج السيارة فتتألق صفاءً ثم تعود قطرات المطر تتزحلق فوقها من جديد...

لاحت قبة المرقد الذهبية وإحدى المنارات الأربع وكان المشهد موحياً.

تمتم بصوت هامس:

ـ السلام عليك يا موسى بن جعفر..

ـ أراد جلّادوه القضاء عليه فاستحال إلى قباب ذهبية ومنائر، أرادوا طمس اسمه فاذا المدن تولد من اسمه توقفت السيارة أمام باب المراد والتفت أبو ميسون إلى زوجته:

ـ اذهبوا إلى المرقد أنا ساركن السيارة في مكان مناسب.

بقي ابو شيماء إلى جانب أخيه الذي استدار واتجه يساراً ثم توقف إلى جانب مرقد الشيخ المفيد.

ترجّلا معاً وأقفلا الأبواب ثم اتجها نحو باب القبلة.

قال أبو ميسون.

ـ لنسرع قبل ان نبتلّ

ـ لا داعي للعجلة

وعندما وصلا الباب تسمّر ابو شيماء في مكانه! قال أبو ميسون

ـ ماذا حصل؟

ـ أريدك أن تعاهدني على أمر:

ـ ؟!!

ـ أريد أن تعاهدني على عدم التدخل بالسياسة.

ـ هاي اشبيك ابو شيماء؟

ـ حتماً سمعت بالمؤامرة؟!

قال ذلك هامساً ثم اردف:

ـ هؤلاء لا يتورعون عن قتل أي إنسان... انهم لا يريدون تكرار ما حصل في ثلاثة وستين سيرتكبون أية جريمة من أجل البقاء في الكراسي!

حاول أبو ميسون أن يهدئ من روع أخيه فابتسم قائلاً:

ـ أولاً أنا لم اتدخل يوماً في الساسية وسأستمر على ذلك في المستقبل... ولكنك فاجأتني بما تقول وقد كنت توصيني أن أكون متفائلاً بالمستقبل..

ـ الحقيقة لا أمل في المستقبل في ظل عملاء ابو ناجي.. ودمعت عيناه وهو يستطرد قائلاً:

ـ بس الله اليدري شنو نيتهم على هذا الشعب!

ـ الله كريم ... يد الله فوق أيديهم .

الفرات ـ 5

كان ربيع سنة سبعين أكثر بهجة مما مضى فقد صدر بيان ١١ آذار والقى السلام ربوعه في وديان الشمال وعاد الجنود إلى اهليهم يتحدثون عن رقصة الأمل في القرى الكردية أو رقصة الهيوه كما يقولون...

خمدت أصوات المدفعية وسكت أزير الرصاص وانطلقت زغردات النسوة في الشمال والجنوب...

وابتسمت المرأة الكردية بعد أن كانت تهدهد طفلها في المهد وتدندن قائلة:

ـ «اصفح عني يا صغيري!

لقد أحكمت قماطك

لأنك طفل كردي

يوماً ما...

سيثب عليك أعداؤك

من الترك

والعرب

والفرس

ويوثقونك

عليك أن تتعلم احتمال الأذى».

كان الأطفال في الرفاعي أكثر سعادة من غيرهم فالربيع يبث في نفوسهم الحيوية والمرح بعد شتاء قارس البرد كانوا ينصتون إلى الرعود وهي تقطّع أوصال الأرض فينطلقون سعداء يبحثون عن الكمأ وقد منحتهم الطبيعة ذكاءً فما أسرع ما يلاحظون تشقق قشر الأرض فيهتفون: «اللهم صل» وتمتد أكفهم الصغيرة لتستخرج الكماء وعندما يهتف أحدهم «اللهم صلّ اللهم صلّ» يعني أنّه شاهد تلك الشقوق التي تدلّ على تلك الكنوز الصغيرة...

وكلما دوى الرعد ظهرت شقوق هنا وهناك فيتراكض الأطفال سعداء بما يحصلون عليه من هدايا الأرض السمراء.

لم يشترك حسام ولا صديقه خليل ـ الذي حصل على لقب أبوحجر بعد أن عصّب (الشمر) بالحجر وهو لا يدري أنّه أخوه ـ خرجا يرافقان الصغار من بنين وبنات إلى البرية وكان حسام يشير بأصبعه إلى هذه الربوة الصغيرة أو تلك وكان سريع الملاحظة...

لقد شعر أنّه قد أصبح أكبر من ذلك كما أنّه كان يجد السعادة وهو يرى

فرح الأطفال والصغار وخاصّة أخته أنعام وكان جدّه قد اخبره بأنّه يتعين عليه الحضور في وليمة زاير محسن بمناسبة عودة ابنه سالماً من الشمال وهذا يعني أنّه قد أصبح عضواً في العشيرة.. هذا وغيره اختصر من فترة طفولته ليدخل عالم الكبار.

توافد عشرات الرجال والشبان على بيت زاير محسن المطل على الشط، وكان فناء البيت الواسع قد ظلل بسقف من "البواري" وقد طرزت مساقط الضوء البسط والسجاد والحصران بالدوائر المضيئة ما اضفى على المناسبة مزيداً من البهجة.. وجمع زاير محسن في وليمته بين المفطح وسمك الشبوط...

وبعد تناول الطعام بدأ الضيوف يغادرون شاكرين للزاير حسن ضيافته ودعوا له... وبقي البعض ممن يعدّون قريبين جداً من أسرة الزاير، كان الحاج حامد ممن بقي فقد آثر الحديث وبقي حسام جالساً إلى جانب جدّه، كان جاسم ابن الزاير قد التزم الصمت طوال مدّة الضيافة ملتزماً بوقاره احتراماً، فعلى شرفه قام والده بهذه الوليمة الكبيرة وربما تمهيداً للتعريف به وربما للقيام بخطوة أخرى في خطبة إحدى بنات الحسب والنسب وشيئاً فشيئاً اقترب الحديث إلى ما كان يجري في الشمال .

كان جاسم حذراً في كلامه ويجنح إلى الاختصار ويمزج بين الفكاهة والجد، تحدث عن احراق بعض القرى الكردية وقصف مدارس ابتدائية

... تحدث عن قسوة بعض الضباط في تعاملهم مع المدنيين أما تعاملهم مع "العصاة" فلا يمكن تصوّره... وبشيء من الأسى ذكر قصة جندي من قرى بعقوبة طعن طفلاً رضيعاً بالحربة وهو في حضن أمه...

ولما رأى الحزن في عيون الحاضرين غير مجرى الحديث فتحدث عن الحياة في الربايا وهي مواضع في رؤوس وقمم الجبال ... وفي الشتاء تتوقف العمليات العسكرية أحياناً وينصرف الجنود إلى لعبه الدومينة وذكر قصة جندي من رفاقة كان قد اندمج في اللعبة وفي الأثناء مدّ يده إلى بطل فأفرغ منه في فمه فظهر أنّه أسيد ونقل إلى بغداد للعلاج.

وشاعت حكاية الدببة التي تخطف الجنود والاحتفاظ بهم في الكهوف فتقوم بلحس باطن أقدامهم وركبهم لكي يفقدوا القدرة على الهروب... ولم يكن يصدّق بهذه الحكايات الا القليل فقد سمعت بأن أحد الجنود من المسيحيين من أهل بغداد كان ينام بين الجنود خوفاً من الدبّة فقام أحد رفاقه من أهل العمارة بارتداء المعطف مقلوباً يعني أظهر الفروة للخارج ونام إلى جانب سمير، ولما استيقظ سمير في منتصف الليل وتلمس الفراء وكان حمزة ضخماً بديناً كالدبّ لم يشك في انها الدبّة وأحدثت الصدمة انهياراً عصبياً فأعيد إلى أهله وظل ما حدث له سراً إلى اليوم!!

وسكت قليلاً ليستطرد وكأنّه ينظر إلى مشاهد مما مرّ به من أهوال في حرب الشمال.

ـ أحياناً تصدر أوامر بالتقدم في ظروف صعبة فالوفر ينزل بغزارة واحياناً نمرّ بمنعطفات صعبة العبور أو نجد الوادي مليئاً بالماء إلى الرقبة واذكر أن الضابط الذي كان يقودنا كان قاسياً جداً وكان يمتهن الجنود في المعسكر.

وصادف أنه كان يقودنا في ممرات جبلية وصادفنا واد مليء بالماء كنا سبعة وهو ثامننا وقد اعيانا المسير وكان الذي يعبر يتعين عليه حمل بندقيته أعلى من هامته فطلب الضابط من أحد الجنود وهو من أهل العمارة أيضاً أن يحمل عنه رشاشته فما كان من الجندي الذي سئم الحرب إلا أن قال له: انچب سيدي!

وقد فوجئ الضابط لكنه لم يفتح فمه لقد ادرك أنه قد أضحى تافهاً في هذا المكان وأدركنا أن هذا من شيم الجبناء فقد كان يضطهدنا في المعسكر ويحاول إذلالنا بكل وسيلة وظهر أن الجبناء هم الذين يصبحون أسوداً على كراسي الحكم وفئران في سوح الوغى.

الحياة صعبة والحرب مع الأخوة أصعب، البغل هناك يسمونه أبو صابر لأنه بالعواصف الثلجية يحمل العتاد ويصعد جبال... مرّة شفت بعيني بغل توقف بالطريق من ضربه الجندي حتى يتحرك، رمى نفسه بالوادي مع العتاد!!

قدموني محكمة على بغل ضاع مني بالثلج ... الحاكم العسكري صرخ

بوجهي : تدري البغل يساوي عشرة مثلك؟

حكمني سبعة أشهر... الحمد لله فرجت.. أود أشوف ذاك الضابط ومن يسألني ليش ما تاخذ تحية أجاوبه: انچب سيدي.

وضحك الجميع.

وبعدها ساد صمت كسره الحاج حامد بسؤاله:

ـ تعلمتوا شي هناك لو بس الحرب.

قال جاسم:

ـ والله يا عمي تجي أيام تهدأ الاوضاع وصارت لنا علاقات مع بعض الأهالي.. الناس في القرى طيبين مسالمين... بعضهم يعتبرنا غرباء محتلّين خاصة الذين فقدوا أبناءهم، وبعضهم يدرك الحقيقة... يعني كلنا سوية بهذه المصيبة الجندي والكردي..

ـ تريد ترجعنا للحرب؟!

ضحك جاسم وقال:

ـ مرّه كنا بقرية تابعة للسليمانية رجل كبير بالسن دعاني للغداء مع صاحبي .. الشي الحلو بحياتهم النظام والنظافة يعني مرتبين حضروا صحن كبير مليء بالتمن خلوه وسط السفرة وحضروا صحون فارغة وكل واحد يخلّي حسب حاجته حتى لا يصير تبذير.

قال أحد الحاضرين:

ـ هذي ما تصرف لنا! يمكن اكو واحد يشتهي ويستحي.

تدخل الحاج حامد:

ـ بعد ماذا تعلمت؟

ـ اكو شغلة كوخ بسيط لكن مرتب دخلت كوخ بالشتاء كان دافئ والموقد وسط الكوخ لكن دخان مابيه.. تعجبت.. تبين واضعين مدخنة.. هنا الصريفة تصير ظلمة والدخان يحرق العيون.

ـ الله ينتقم من الذي يبذر العداوة بين الأخوان.

قالها الحاج حامد وهو ينهض وأردف:

ـ معمور المحل.. بالأفراح انشاء الله..

صافح الحاج حامد زاير محسن بحرارة وكأنه يقول له: لقد أصبح ابنك من الرجال المحترمين.

وأمضى حسام ساعة ما قبل الرقاد يفكر في كل ما قاله جاسم الذي عاد سالماً من الشمال.

وفي الأيام التالية كانت الأسرة تستعد للسفر إلى بغداد فقد اجتمعت أسباب عديدة منها أنّ أحد أصدقاء أبو حسام قد وصلت منه أخبار مشجعة حول فرص العمل وأم حسام عندها نذر وحتى الحاج حامد اشتاق لزيارة مرقد الإمام الكاظم وحفيده الجواد.

دجلة ـ 4

كان أبو ميسون ينتظر أمام مدرسة الحدائق الابتدائية للبنات وقد اسند ظهره إلى السيارة نظر في ساعته بقيت دقائق على الجرس الأخير... الجرس الذي يبتهج له التلاميذ في كل انحاء العراق وتنطلق تلك الضوضاء المحببة للنفس عندما تختلط عشرات الأصوات الصادرة من حناجر صافيه وقلوب نقية ... أحياناً يتصور المرء أن الملائكة تزغرد... ولمح الأب ابنته فهي أطول قامة من زميلاتها وتألقت ضفيرتها الذهبية في ضوء شمس نيسان..

جلست ميسون إلى جانب والدها بفرح لقد وفى بوعده سيأخذها إلى محلّه الكائن في شارع النهر.

وصلت السيارة إلى ساحة الرصافي وتوقف أمام مطعم صغير فأحضر شطائر من الهمبرغر ثم ركن سيارته في مكان قريب من محلات الصياغة والمجوهرات.

في داخل المحل تناولا على مهل طعامهما.. وأدى صلاته، كانت ميسون قد تعلمت الصلاة قبل عام.

شدّت انتباهه ضجة قريبة ففتح باب المحل المغلق من الـداخل وخـرج يتفقد فرأى جمهرة عند محل أبو سرمد اقفل الباب على ابنته وأسرع إلى جاره فوجده جالساً على أرضية المحل عند عتبة الباب.

ـ ها خير أبو سرمد.

ـ يا خير! أبو ميسون هجموا بيتي أولاد الحرام!

ـ احچي شنو صار!

ـ شحچي كنسوا المحل ما خلوّا شي ... أكثره دين شسوي وين اروح.

ـ أحسن تبلّغ الشرطة يالله أنا اجي وياك .

أسرع أبو ميسون إلى محلّه:

ـ يا لله بابا ميسون عشر دقايق ونرجع.

من بعيد لاحت لافته: الشرطة في خدمـة الـشعب .. كـان أبـو سرمـد يائساً من عودة المسروقات لكنه كان يتشبث بكل شيء، فتح الضابط ملفـاً لتسجيل البلاغ.

ـ كيف تمت عملية السطو؟

راح أبو سرمد يروي للضابط ما حصل وكأنه يستعيد قصة فلم سينمائي قال:

ـ كنت أستعد لاقفال المحل مع صوت الأذان فدخل رجل يرتدي دشداشة بيضاء ناصعه ويضع غترة بيضاء أيضاً فوضع أمامي خاتم فضي وفص عقيق وقال: بالله ما تركب لي هذا الفص قلت له: تعال العصر.. قال لي متوسلاً: عندي سفر وأنا جئت من مكان بعيد.. قلت: تفضل اجلس واستغرقت في العمل بعد لحظات دخل رجل ومعه امرأة وطلب مني اصلاح سوار ذهبي.. قلت: ما تشوف اكو واحد قبلك قال الرجل: وينه؟ قلت: هذا الرجل الخيّر! فقال ما اشوف أحد. والتفت إلى المرأة: تشوفين أحد! قالت: لا وتظاهرت بالخوف قائلة: يمكن هذا مجنون! وجرّت الرجل إلى خارج المحل... ابتسم الرجل وقال: حقهم ما يشوفون لأن بس أهل الجنة يشوفوني.. اني جاي من الجنّة وابشرك أنت مرزوق وعاقبتك خير... عندي منديل جبته وياي من الجنة تحب تشم عطر الجنة.. قلت: نعم بكل سرور فأخرج لي منديلاً أبيض يفوح بالعطر فوضعته على وجهي واستنشقت حتى امتلا صدري وبعدها لم اشعر بشيء..

وفي هذه اللحظة وضع الضابط القلم جانباً وارتد بظهره إلى الكرسي وراح يقهقه من كل اعماقه.. حتى ابوميسون ابتسم وضحك ابو سرمد ثم انخرط في البكاء.

توقف الضابط عن الضحك واستعاد بعض صرامته:

ـ زين نكمل المحضر ... قائمة المسروقات؟

راح ابو سرمد يسرد الحلي الذهبية من أقراط وأساور وقلائد بعضها صياغه هندية وأخرى ايطالية..

ـ طيب راح نقوم باللازم.

ثم قال بصوت خافت:

ـ هذوله مثل الشياطين يومية يسوون دالغة.. يبقون سابقينه بخطوات.

خرج أبو سرمد يجرّ خطاه كأنها يحمل جبالاً من الهمّ حاول أبو ميسون أن يطيب خاطره.. لا تفقد الأمل أبو سرمد اخوانك ما يتخلّون عنك.. وما يصير إلّا الخير..

***

كانت شمس نيسان تلقي أشعة الأصيل على المنائر والقباب وذرى النخيل على امتداد ضفاف دجله عندما يخترق النهر بغداد...

ألقت اسرة الحاج حامد رحلها في الصحن الكاظمي وكعادة أهل الجنوب فقد اختاروا ايواناً من تلك الايوانات المنتشرة على امتداد الجدران المحيطة بالمرقد.. وبعد استراحة قليلة نهض الحاج حامد ومعه حفيده حسام للزيارة وبقي ابو حسام وزوجته وابنتاه ينتظرون عودتها..

كان حسام مدهوشاً للاجواء داخل الضريح وقد ألّفتْ همهمة الزائرين موسيقى هادئة كجدول يترقرق على هون في واد مفعم بالسكينة..

راح حسام يقرأ وهو واقف قبالة الضريح إلى جانب جدّه زيارة وارث:

ـ السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله.

السلام عليك يا وارث نوح نبي الله.

السلام عليك يا وارث ابراهيم خليل الله.

السلام عليك يا وارث موسى كليم الله.

السلام عليك يا وارث عيسى روح الله.

السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله

وتصاعدت في الفضاء آلاف التحية والسلام على الأنبياء والرسل والأولياء..

وقد استحال الضريح إلى قطب تدور حوله قلوب العاشقين والمتألمين.. تحت هذه القبة تحلّق الروح وتتحرّر من أسر المادّة.. وتندمج مع أسراب الحمام التي كانت تطوف في سماء صافية.

كانت ميسون تنظر من خلال النافذة إلى مياه دجلة وقد بدت المنائر الذهبية فتتألق تحت شمس الأصيل وأسراب من الحمام تحلّق فوق النخيل.

ركن أبو ميسون سيارته في مكان قرب مرقد الشيخ المفيد وترجلت ميسون بفرح من السيارة، حيث وجدت أباها يمدّ يده ليأخذ بها إلى داخل المرقد.

في داخلها شوق إلى هذا المكان الجميل ستجد امها وخالتها في زاوية ما تحت القباب المزينة بالمرايا وستستنشق عبير هذا المكان الطاهر حيث

الجميع يهمس بدعواته وتحياته وكانت طيور الحمام تشيع الاحساس بالسلام في المكان وقف حسام وهو يمسك بيد اخته أنعام قرب حمام الزاجل الذي راح يلتقط الحب بكل طمأنينة.

عشرات الطيور بعضها يلتقط الحب وبعضها يحلق في فضاء قريب من القبة وبعضها اتخذ اماكنه هنا وهناك في الشرفات وفوق المنائر وصل أبو ميسون ومعه ابنته بزيها المدرسي الأنيق وقد استقرت ضفيرتها الذهبية بين كتفيها.. ولفت نظرها منظر عائلة جنوبية جلست في احد الايوانات الكثيرة وكان منظر رجل يمشي بوقار ويمسك بيد ابنته قد لفت نظر العائلة أيضاً..

والتقت النظرات ابتسمت أمْ حسام إلى هذه البنت الحلوة التي بدت وردة ربيعية أو زهرة من أزهار المشمش.. حتى الحاج محمود وجد نفسه مشدوداً إلى هذا الشاب الوقور وإلى ابنته التي تفيض حيوية وأملاً لهذا استوقفه قائلاً:

ـ من رخصتك استاد!

ثم شرح له باختصار بأنهم قادمون من الرفاعي لزيارة أحد معارفهم في مدينة الثورة..

ابتسم أبو ميسون:

ـ تفضلوا عندنا الليلة نحن بالخدمة.

ـ دايم

ـ الثورة مدينة چبيرة حجي عندك عنوان مضبوط؟

نظر الحاج محمود إلى حفيده واخرج حسام من جيبه ورقة صغيرة ناولها إلى الرجل الذي يرتدي بدلة يرتديها المعلّمون عادة والموظفـون في منطقتـه والتقت نظراته بنظرات ميسون التي راحت تتأمّل في وجـه الفتـى الحنطـي الوجه وعينيه النجلاوين.

ـ مضبوط .. الثورة داخل .. قطاع... بلـوك رقـم الـدار بـدون مجاملـه حجي تفضلوا الليلة يمنا وباچر الله كريم.

ـ دايم ابنـي ... يظلّـون بقلـق.. عنـدهم خـبر.. سـامحنا عطلنـاك عـن شغلك.

ـ لا حجي على بختك بالخدمة.

ثم ارشدهم إلى الشارع الذي يؤدي إلى الساحة حيـث توجـد سـيارات فورد تنادي على الركاب: ثورة ثورة ثورة داخل ثورة داخل.

ـ في امان الله وحفظه..

والتفت الحاج حامد إلى كنّته.

ـ ها أم حسام شبعتي شوف؟

ـ لا والله عمي ما ينشبع منها شوف چنهه ورد .

وراحت ترنو إلى ابنها حسام وقد اشتعلت في اعماقها عشرات الاماني.

وراح أبو ميسون يحدث ابنته عن نهر الفرات الذي يشبه نهر دجلة وكيف يخترق الصحاري السهول ثم يلتقي بنهر دجلة في منطقة تدعى القرنة. وهناك توجد شجرة "نبق" مكتوب إلى جانبها على لوح:

«في هذه الأرض المقدسة حيث يلتقي نهر دجلة والفرات نبتت شجرة آدم المقدسة.. كأثر لجنة عدن على الأرض»

حدّثها عن عشرات القرى الجنوبية التي تعيش على ضفاف الفرات عن الناس الطيبين الذين يأتون لزيارة مرقد الإمام الكاظم وحفيده الجواد.. حدثها عن كرمهم وسخائهم عن شجاعتهم وإبائهم عن طيبتهم عن أزيائهم وعن الكوفية والعقال... واسترسل في حديثه مع إنّه يعلم أن ابنته لا تفهم مما يقول إلا القليل وأخرج من جيبه كيساً ورقياً وقال:

ـ هل تحبين نثر الحبّ على الطيور؟

وكادت ميسون تطير فرحاً وهي تتناول الكيس وتتجه نحو عشرات الطيور التي تلتقط الحب.. نثرت بكفها الصغيرة الحب وهي تدخل في منتصف المكان وأصبح منظرها والحمام يتطاير حولها موحياً في تلك الساعة وقد أشرقت الابتسامة في وجهها وراحت تشع من عينيها العسليتين.

واقبلت امرأتان ترتديان العباءة إحداهما تحمل طفلة في الثالثة عرف انها زوجته وأختها..

واكتملت فرحة ميسون برؤية امها وخالتها وكانت الحمائم تلتقط الحب

عند قدميها فكان منظرها مفعماً بالفرح..

وتمنت الخالة وجود كاميرا لتلتقط لميسون هذا المنظر.

ـ احسن معايدة تصير.

ابتسم أبو ميسون ابتسامة عريضة ونظر إلى ابنته بحب وشوق..

أما الأم فقد كانت تسرح في خيالات العرس فاختلطت ذكريات عرسها مع أحلام عرس ميسون ذات أمسية من أمامي الكاظمية أن امنيتها أن ترى ميسون سعيدة في حياتها...

وانطلقت السيارة إلى منزل في شارع المحيط تلبية لدعوة صديق...

الفرات ـ 6

كانت الشمس قد لامست الأفق الغربي وقد توهجت الغيوم باللون الأحمر واستحال الأفق الذي تخللته الغيوم إلى قطع من الجمر المتقد...

قبل أن تصل السيارة إلى القناة كان " السكِن " قد جمع الكروة وصلت السيارة إلى ساحة كبيرة صاح السكن: خمسة وخمسين اكو نازل؟

جاء صوت من رجل في الأربعين:

ـ عندك نازل.

صاح السكن: تانكي؟

ـ عندك نازل

ومع نهاية التبليط لم يبق في السيارة أحد سوى أسرة الحاج حامد التفت السائق ويبدو انه من أهالي العمارة:

ـ حجي ماتيهون العنوان سهل ... شويه تتمشون توصلون قطاع رقم ... تسألون عن بلوك رقم (..) من تدخلون الدربونة تسألون عن رقم الدار.. الله وياكم حجي.

شكر الحاج حامد السائق من كل قلبه .

في البداية لم يعرف معنى القطاع ثم تبين أنّه مجموعة من البيوت الكثيرة تحيط بها أربعة شوارع ترابية عريضة على شكل مربع وفي وسط القطاع ساحة كبيرة وفي كل قطاع مقهى يكون عادة عند الشارع .

كان البلوك أو الدربونة الذي يسكن فيه ابو محسن يفضي إلى الساحة. وشدّهم منظر مجلس الرجال يرتدون الكوفية والعقال أمام أحد البيوت وقد كنس المكان ورشَّ بالماء فتصاعدت رائحة طيبة تشبه رائحة الأرض عند تتلقى زخات مطر نيسان أما في وسط الساحة فقد تجمع الأطفال يلعبون مختلف الالعاب.

سرعان ما عثروا على الدار وخرج اليهم أبو محسن مرحّباً وادرك الحاج حامد سرّ الهجرة من الجنوب إلى هذه المدينة ففرص العمل متوفرة والمجتمع هنا مجتمع عشائري فالذين جاءوا للعيش في مدينة الثورة نقلوا معهم تقاليدهم وأزياءهم وأعرافهم.

وجيل كبار السن ما يزال كما هو حمل معه جذوره وملامح نشأته الجنوبية.

أما الشباب فقد ظهر عليهم تغيير ملحوظ لقربهم من بغداد كما أن المعلمين والمدرسين في الغالب قدموا من العاصمة وحتى المدرسين الذين لهم جذور جنوبية تأثروا خلال دراستهم الجامعية.. لكن هذه المدينة التي بدا أنها ستدمج

بين تقاليد عشائر الجنوب وحضارة العاصمة ما زالت تعيش حالة مخاض عسيرة وقد يولد جيل يجمع بين تقاليد الجنوب الراسخة والقيم الحضارية الجديدة التي تتدفق من خلال مدارسها الكثيرة ومن خلال هوائيات التلفزيون حيث بدأت اجهزته تنتشر في المقاهي أولاً ثم البيوت.

ومع ذلك فقد كان من المبكر أن تصبح الثورة مدينة فالناس هنا قادمون في الغالب من ريف الجنوب، بحيث كانوا يتجمعون من عشيرة واحدة في قطاع واحد فيكون البلوك الواحد قد حل مكان السلف فالذهيبات تجمعوا في قطاع واحد والزهيوات في قطاع آخر وكان من الطبيعي أن يسأل عن فلان من يا عمام؟ ومن يا حمولة؟

ومازالت البيارق ترتفع ويدور حولها المهوسچيه بهوسات جاءوا بها من مناطقهم الأصلية... غير أن البيوت ذات الغرف المطلية بالجص قد ظهرت فيها رفوف كثيرة وعلى الرفوف ظهرت كتب كثيرة قادمة من مصر ومن لبنان وقد اخذت أماكنها بالقرب من المصاحف وكتب الدعاء.. ثم ظهرت المكتبات في الجوامع وهي تضم مختلف الكتب المطبوعة في النجف.

ومن الطبيعي أن تحدث تفاعلات وتغييرات عميقة ولكنها تجري بهدوء وصمت.

خلال الأيام العشرة التي قضتها أسرة الحاج حامد في مدينة الثورة كان ابو حسام يذهب مع والد محسن إلى ساحة الخلّاني حيث توجد بناية كبيرة

فيها عدّة مؤسسات اضافة إلى وزارة التجارة ففي الطوابق العالية كانت شركة اعادة التأمين برئاسة الدكتور مصطفى رجب حيث يعمل حجي محمود الچايچي وهو من أهالي الثورة أما ابو محسن فيعمل فرّاشاً في الشركة الافريقية العراقية وقد تعرف هناك على رجل من سكنة الثورة من أهالي العماره يشتغل عامل في المصعد الخاص بالوزير.

كان ابو حسام يحاول أن يقنع نفسه بالهجرة إلى هذه المدينة لكن شيئاً لا يعرف كنهه كان يشدّه إلى هناك إلى داره في الرفاعي؛ فالحياة هناك رغم بعض المصاعب أكثر هدوءً كما أن هذه المدينة وبالرغم من انتمائها الواضح في ثقافتها إلى الجنوب إلا إنها تبدو ملفقة أحياناً سوف يضطر الإنسان إلى السكن في جوار ناس لا يعرفهم ولا يعرفونه ... لهذا فقد شطب على فكرة النزوح إلى الثورة بعد يومين أو ثلاثة لكنه ظل يجامل مضيفه وبعض الناس الذين تعرّف عليهم بعدة جمل عامة تحتمل أكثر من تفسير أو يفهمها السامع بحسب تصوره.

وكانت أنعام قد احبّت لعبة طم خريزة وبيت البيوت فكانت تقضي نهارها في اللعب مع اخت محسن ومع بنات الجيران في مثل سنها.

أما حسام فقد كان يتجول مع محسن في شوارع المدينة وأحياناً يذهبان في الصباح فيعودان عند الظهر، أو يذهبان في العصر ويعودان عند المساء..

وفي جولاتهما العديدة ذهبا مرّة إلى السدّة وهو ساتر ترابي كبير يحيط بالثورة

في حدودها الشرقية الشمالية وكان البعض يتصور أن الحكومة قد انشأت هـذا السد لمد سكك الحديد ولكن الحقيقة أنه من أجل حماية بغداد مـن طغيـان نهـر دجلة ذهبا في جولتهما فوق السدّة باتجاه منطقة الرشـاد وأشـار إلى وجـود نهـر يدعى نهر ديالى يقع ما وراء الرشاد واشار إلى بيوت نظيفـة وقـال أن عـائلات كردية تسكن فيها ولاح لهما مـسجد في وسـط بريـة كـان المـسجد مهجـوراً لم يكتمل بناؤه ويقال لهذه المنطقة الاورفلي وقد سمع مـن بعـض كبـار الـسن في القطاع أنّ الجنّ هم الذين يحولون دون اكمال بنائه وكانوا يحذرون الأطفال من الاقتراب منه لأن الجن يقذفون بالحجارة كل من يقترب منه!

وما وراء هذا الجامع يوجد خـط حديـدي وبـالقرب منـه يقـع مستـشفى "الشماعية" حيث يوجد المجانين وبعضهم يزرع الأرض حول بناية المستشفى بأعقاب السجائر "الگطوف" وينتظرون ان تنمو وتصبح سجائر!!

وحدثه عن شاب في السنة الأخيرة من دراسته الجامعية احب فتاة لكـن أهلها زوجوها وجنّ بسبب ذلك وقد حاول أهله معالجته ولكـن لا فائـدة وأدى به المصير إلى الشماعية.

عادا إلى الدار متعبين وشمّا رائحة تمن العنبر توضأ حسام من مـاء حنفيـة في زاوية ساحة البيت وانطلق إلى الجامع حيث ذهب جدّه إلى هناك.

كان محسن يراقب صديقه إلى أن انتهى وغادر فشمّر عن سـاعديه وراح يتوضأ ولحق بصديقه.

في الجامع كانت الصفوف قد انتظمت للصلاة وقف حسام في الصف الثاني خلف جدّه وقبيل أن ينطق بتكبيره الاحرام أشار رجل - تبدو الصرامة على وجه - أن يتأخر ويصلي في الصف الأخير مع الأطفال شعر حسام بالانزعاج لكنه عندما رأى صديقه محسن يدخل تأخر ووقف حيث أشار الرجل ذو الملامح الصارمة.

كان الحاج حامد في غاية الطيبة فقد سلّم عليهما ودعا لهما وهم في الطريق إلى الدار.

قال الحاج حامد وهو يأخذ مجلسه وقد ملأت رائحة الطعام فضاء الدار.

- الضيافة ثلاثة أيام واحنا باليوم الرابع.

قال أبو محسن.

- على بختك حجي هذا بيتكم.. الله شاهد كلما اسمع الأذان اندعيلك بلكت البخت يسويها ونسمع صوتك يدوي بجامعنا.

التفت الحاج إلى حسام ومحسن!

- البركة بالشباب احنا كبرنا.

كان الهواء عليلاً فوق سطح الدار قال محسن وقد تمدد في فراشه ووضع كفه اليمنى مسنداً رأسه.

- باچر نروح إلى حي الاكراد ناخذ صور تذكارية وبعدها نروح جولة بالبايسكل شتگول؟!

ابتسم حسام وراح ينظر إلى نجوم السماء ويراقب عمود من الضوء قال محسن:

ـ هذا الضوء يدلّي الطيارات الضايعة.

ثم نهض.

ـ تعال اراويك گلوبات الكاظم وراح حسام ينظر إلى مصابيح تـومض بوهن وسبح في نهر من الخيال أخذه بعيداً إلى أرض الأحلام.

في اليوم التالي وجـد حـسام نفـسه فـوق الـسدّه الترابيـة ومعـه محـسن متجهـين صـوب الغـرب تماماً بعكـس الاتجـاه الـذي يـؤدي إلى منطقـة "الرشاد" إلى يسارهما بدت القطاعات المحاذية للسدّة وإلى يميـنهما كانـت الفلاة مدّ البصر وكانت بحيرة هي في الحقيقة غـدير للـماء قـد بـدا بحـيرة صغيرة بعد امطار الشتاء والربيع وقد نبتت على بعض الضفاف شـجيرات قصب وقد تألقت مويجات المياه بفعل نسائم الهواء الربيعي المنعشة.

ـ يطلق على هذه المنطقة الچوادر وهي نهايات المدينة. قال محـسن ذلـك وأشار بيده مستطرداً.

ـ وبعدها منطقة زراعية يسمونها النحالة.

وعندما اجتازا البيوت انحدرا من السدّة في طريـق ضـيق بـين الحقـول تؤدي إلى بناء متوسط الحجم وبدأ صوت ماطور الماء.

ـ الصيف الماضي جيت مع أحد الأصدقاء للسباحة في النهر الصغير.

أنّه يشبه الشط في الرفاعي ولكنه أصغر بكثير ووصلا إلى الحوض الاسمنتي حيث تتدفق المياه من خلال انبوب كبير ... وفي داخل حجرة مبنية بالآجر يوجد ماطور الديزل الذي يسحب المياه من قناة بعرض أقل من مترين وعلى بعد عشرين خطوة من الحجرة يتسع العرض إلى حدود عشرة امتار ويكون مستوى المياه أقل على امتداد أقل من عشرين متراً يقصده الأطفال للسباحة في فصل الصيف. والقناة هذه تستمد مياهها من نهر دجلة.

شعر حسام بالحنين إلى الشط في مدينته الصغيرة وهو يقف عند حافة الحوض ينظر إلى دفق المياه وبين الفينة والأخرى كان يشاهد سمكة صغيرة تهوي إلى الحوض حيث تنبعث رغوة المياه في وسط الحوض لشدّة التدفق وتتفرع عن الحوض ساقيتان تبتعدان عن بعضهما بزواية منفرجة... وعلى مسافة قريبة وعند الساقية التي تتجه في جهة السدّة توجد شجرة توت متوسطة وقد استند إلى جذعها فتى في الخامسة عشرة حنطي الوجه يرتدي دشداشة رصاصية اللون كان قد اطبق الكتاب الذي بيده وقد سرح في خياله بين الغيوم أو إلى ما وراء الغيوم.

لايدري محسن ولا صديقه حسام لماذا اختارا التمشي على ضفاف الساقية حيث اصبحا على بعد خطوتين أو ثلاثة من ذلك الفتى. حياه حسام بودّ فأجاب الفتى بكلمات امتزجت مع ابتسامة صادقة شجعتهما على الجلوس بالقرب منه تعرفا إليه وعرفا أن اسمه "عبّاس" وأنّه كان

في الخامسة من عمره عندما جاءت أسرته إلى الثـورة وأنّـه يتـذكر الأيـام الأولى من السكن في هذه المنطقة تحت چادر فكان يقضي وقته في استقبال كرات الشوك التي تدفعها الرياح من البرية التي اصبحت فيها بعد مزارع وحقولاً فلم تكن هذه الساقية ولا هذه المزارع موجودة آنذاك...

فالناس الذي وزعت عليهم الأرض بمساحة مئـة واربعـة واربعـين مـتراً لكل أسرة قد سكنوا الچوادر ثم نهض البنـاء فـيها بعـد وخـلال تلـك الفـترة كانت النساء يحملن الماء من مكان ما وأيضاً يخرجن إلى هذه البرية إلى ابعد مـن النخّالة لجلب الحطب وظلت ظاهرة جلب الحطب مـن الـبراري إلى سـنوات قريبة لدى بعض الأسر والبيوت ثم جاء الـنفط الأسـود والأبـيض فالأسـود لسجر التنور وكـان "المطـال" يبـاع في الـسوق وهـو الوقـود الرئيـسي الـذي يستخدم في التنور كما يستخدم الـنفط الأسـود أحيانـاً لمكافحـة الـصراصر في المراحيض أما الأبيض فيستخدم لسجر الموقد ثم حلّت المدافئ النفطيـة عـلاء الدين ثم "دجلة" ذات اللهب الأزرق كما كان يكتب في الدعاية لها.

وظلت الفوانيس الوسيلة الوحيدة للاضاءة وقبلها اللالة وهـي قنـديل مزود بمرآة لتشديد الضوء.

ودارت أحاديث كثـيرة وكانـت الـشمس قـد لامـست الأفـق الغـربي وتوهجت حمرة المغيب وبدأ نقيق الضفادع يرتفع من بركة صغيرة إلى يسار الساقية.

وخلال الأيام التي أمضاها حسام في مدينة الثورة تعرّف على كثير من الألعاب التي يمارسها الأطفال، منها اقتناء صور ممثلين وأجانب ورياضيين وممارسة لعبة ليتم خلالها تبادل الصور بينهم. وهناك لعبة الطنب والچعاب، وهي عظام تستخرج من مفاصل الغنم ويبرز فيها الصول الذي يقوم بعضهم بثقبه بطريقة معينة وصب الرصاص في باطنه ليصبح قوياً في ضربته وهناك لعبة الدعبل وهي كرات زجاجية ملوّنة هذا في النهار بالإضافة إلى الطوبة.

وفي الليل ثمة ألعاب منها العظم الضائع وهو فك خروف يرميه أحدهم وسط الظلام الدامس ومن يعثر عليه يهرول به إلى عمود الكهرباء ويضرب على العمود معلناً عثوره عليه.

وهناك لعبة خرّ الدبس. وغيرها...

وآخر جولة قاما بها ذهبا فيها لأول مرّة إلى بغداد بمفردهما فتجولا في ساحة التحرير وانطلقا إلى شارع الرشيد وسألا عن المتحف البغدادي فرأى كثيراً من مشاهد الحياة البغدادية القديمة من البائع والحلّاق ومشهد الختان وقد يقوم الحلاق أحياناً بعملية الختان ومرّا في طريقهما بسينما علاء الدين وتناولا شطائر الفلافل المعروف باللفة وفي شارع النهر صادف مروره بمحال بيع الحلي الذهبية والمجوهرات وكان أبو ميسون في محلّه وأحد الزبائن يتفاوض معه حول خفض السعر أكثر.

جلسا عن الرصيف الاسمنتي لنهر دجلة وكانت مياه دجلة الغرينية تتجه هادئة نحو الجنوب وكانت هذه الجولة آخر جولة لهما حيث تقرر موعد عودة أسرة الحاج حامد إلى الرفاعي غداً صباحاً .

على مائدة العشاء اجتمعت الاسرتان ودارت أحاديث كثيرة وبدا أبو حسام متردداً في رأيه بالنزوح إلى مدينة الثورة فقد نظر إلى والده الحاج حامد فقال الشيخ بوقار:

ـ بويه بكيفك.

وفي قرارة نفسه لم يكن هناك ما كان يشعره بالارتياح فقد أمضى عمره كله في مدينته وديرته لكنه لا يريد أن يكون حجر عثار في طريق ابنه وأحفاده.

أشار محسن إلى حسام بالخروج لأنها آخر ليلة وبعدها الوداع.

ولم يكن يعلم أنّه سوف لن يلتقيا بعدها سوف تجرفهما تيارات الحياة بعيداً.

كانت أعمدة الكهرباء تضيء الشارع بمصابيحها ومئات الحشرات والهوام تدور داخل دائرة الضوء قريباً من المصابيح عشقاً للنور وربما الدفء أيضاً وظهرت بعض الخفافيش تتخاطف وربما رماها بعض الأطفال بالحجارة فتنقض على الحجر ثم ترتد...

وفي تلك الساعة من الليل حيث مضى على غروب الشمس ساعتان

تتألق المقاهي على حافات الشارع وعادة ما يكون لكل قطاع مقهى... فيصطف الأطفال بعد مغيب الشمس على قنفات لمشاهدة أفلام الكارتون حيث يتقاضى صاحب المقهى عشرة فلوس وأحياناً خمسة فلوس من دون أن يقدم لهم الشاي فالشاي يقدم فقط للكبار الذين يجتمعون للسمر أو يجتمعون للعب الدومينة...

وبالقرب من المقهى تقف عربة خشبية يدفعها البائع لتأخذ مكانها المعتاد مساءً ويتوهج فانوس اللوكس الذي يعمل بالضغط حيث يبخ النفط الأبيض داخل فتيلة تتوهج فتسطع بلون أبيض... ثم يسمع المارّة فرقعه رقائق الباذنجان في مقلاة مليئة بالزيت ويصنع البائع شطائر حيث يتم تناولها من قبل الشبان وهم واقفين حول العربة.

وعادة ما يتشوق الشبان لرؤية فلم السهرة الذي يعرض بعد منتصف الليل.

وهكذا تمضي الحياة فالأماسي في مدينة الثورة كانت حالمة والناس يكدحون نهاراً ويستمتعون ليلاً في جلسات السمر في البيوت أو المقاهي أو الجلوس في الطرقات وتجاذب أطراف الحديث وكانت هذه المشاهد هي آخر ما سيبقى في ذاكرة حسام عن هذه المدينة التي سيغادرها غداً صباحاً.

دجلة ـ 5

اشتعلت الحرب في الشمال من جديد وعاد نزف الدم يلوّن الجبال والسهول بلونه القاني وعلا أزير الرصاص والمدافع فوق خرير السواقي والجداول ووشوشات المطر وأغاني الربيع... اما بيان آذار فقد رمي في سلّة المهملات... وأصبح الذهاب إلى الشمال يشبه الذهاب إلى قصر النهاية فالحرب لا تطال غير الـ (كاكا وعبد الزهرة ومحمد رضا) كان أبو ميسون يطالع إحدى الصحف عندما رنّ جرس التلفون اخذت أم ميسون سماعة الهاتف.

ـ شلونلچ أم أحمد مشتاقة...

ليش شنو صار خير....

وضع أبو ميسون الجريدة جانباً!

ـ الله شاهد ما ندري...

صار له أسبوعين!!

زين.. زين آني وأبو ميسون حنجي.. مع السلامة وضعت أم ميسون

سماعة الهاتف... والتفت إلى زوجها.

ـ ابو أحمد أخذوه... زوجته ح تتخبل!!

ـ أبو أحمد التاجر بالشورجة!! حتماً اكو اشتباه.. رجّال يروح بطريقه ويجي بطريقه...

ـ شد تنتظر!! خطية أم أحمد الله يساعدها!

تطلّعت ميسون بنظرات متسائلة.

قالت الأم:

ـ عشر دقايق وراجعين حبيبتي.

وعلى عجل ارتدت بدلة الخروج وعندما رأت زوجها أخذ السيارة.

ـ البيت قريب ما يحتاج أبو ميسون.

رحبّت أم أحمد بالضيوف رغم القلق البادي على وجهها من يتأمل في وجه أم أحمد لابد وأن يكتشف أن روحها غدت نهباً للقلق حتى ابنها الصغير انعكست في ملامح وجهه آثار ما تعانيه أمه فقد ظل ينظر إلى الوجوه وكأنّه يقرأ في كتاب رغم أنّه لم يبلغ السادسة من عمره بعد!

أي جيل سينشأ في ظل هكذا ظروف قالت أم أحمد وهي تريد اختصار قصّتها:

ـ كان يتمشى بالشارع والله ما افتهمت يا شارع: الجمهورية ورايح صوب الشورجة... طلع له واحد بالله تعرف هذه العملة لأي دولة.. أخذ

الورقة وراح يحدّق بها على غفلة جاءه ثلاثة لزموه وأخذوا منه النقد وضربوه علا وجهه ورفسوه:

ـ عميل لإسرائيل..

ـ اخوان أنتم مشتبهين.. هذا الأخ أعطاني الورقة وطلب مني اخبره من أي دولة؟

ـ وينه هذا الاخ يابه؟!

التفت يميناً وشمالاً فلم يره.

ـ هسه كان هنا.

ـ تفضل ويانا هناك نتفاهم.

سأل أبو ميسون.

ـ المشكلة وين؟

قالت المرأة:

ـ اصعد وانزل وسؤال وجواب قالوا له شنو علاقتك باسرائيل؟

ـ على أي أساس؟

ـ الورقة اللي كانت بيده عمله اسرائيلية .

قال أبو ميسون:

ـ القضية واضحة لعبة.

وأردف:

ـ الآن هو موقوف؟!

ـ حكموه خمس سنوات سجن وسحبوا اجازة الاستيراد وصادروا أمواله!

ـ لا حول ولا قوة الا بالله.. على كل حال احنا بالخدمة وانشاء الله مايصير إلا الخير... أعرف محامي زين نطلب منه يستأنف الحكم...

نظر إلى زوجته فقالت:

ـ أبو ميسون الصغار وحدهم بالبيت شوية وأجي وراك.

ـ زين وحدك لا تجين.

ـ طبعاً حتجي وياي أم أحمد.

في طريق العودة كان أبو ميسون متشتت الذهن فهناك ما يدور في الخفاء وقد وصل الدور إلى التجار الشيعة والهدف اضعافهم من خلال الغاء اجازات الاستيراد بذرائع مختلفة مرّ بالاشتراكية ومرة بان التاجر يبيع بقيمة اعلى من التسعيرة ومرّة ان التاجر الفلاني يستورد بضائع لا يحتاج لها البلد أو أن الدولة تستورد البضاعة الفلانية أو ان الحكومة تريد تشجيع الصناعة الوطنية.. ولكن لماذا التجار الشيعة؟! هل صحيح أن الهدف الأصلي هو ضرب النجف الأشرف.

وعندما صار على مقربة من البيت رأى رجلاً يقف عند الباب... تأمله جيداً وهتف.

ـ أبو شيماء هذا أنت يا مرحبا يا مرحبا.. العائلة وين؟ تكلف ابو شيماء ابتسامة محاولاً اخفاء القلق والهواجس التي تتناهبه.

أشعل أبو شيماء سيجارة ولم يدخل إلى البهو ... ينظر إلى شجرة البرتقال لكن نظرته كانت أبعد بكثير ربما كان يبحلق في الفراغ أو يحاول ازاحة ستار من الدخان والضباب عن شيء لا يمكن رؤيته.

ـ صاير تدخن ابو شيماء؟!

اجاب وهو ينفث الدخان ومعها آهة حبيسة:

ـ الوكت راح يخلّي الناس كلها تدخن!

ـ صاير شي؟ خير انشاء الله؟

ـ راح زمن الخير.

ـ المبلل ما يخاف من المطر.

ـ خير انشاء الله.

ـ هو بعد اكو خير... رجل يشتغل على باب الله بالشورجه طلّعوا له علاقة باسرائيل.. احتمال زوجته تأتي بعد ساعة.. يمكن عندك خبر مثل هذا.. صحيح؟!

ـ الأمن طوقوا منطقتنا واعتقلوا الشيخ...

ـ الشيخ عارف البصري؟! لا!!

ـ الجامع امتلا برجال الأمن.

ـ ما صارت ردّة فعل؟ الشيخ عند شعبية ومحبوب بالمنطقة.

ـ الناس تخاف أبو ميسون.. البارحة قالوا سيد مهدي جاسوس.. وكل شيء ما صار! والله حيف علماء من امثال الشيخ عارف يعتقلوهم.. كان للفقراء مثل الأب كان يساعد كل المحتاجين.

ـ الشيخ مو شخص عادي عالم معروف ووكيل من قبل المرجعية في النجف.. ما اعتقد يتجرؤون على سجنه!

ـ ننتظر ونشوف!

ـ صدقني أنا لا أرى إلا الدم والمشانق... تريد نخدع انفسنا أنت ما سمعت بخبر التاجر ... من أهل البصرة طلبوا منه مليون دينار اخبرهم أنه لا يملك مثل هذا المبلغ تصور راتبي عشرين دينار ويطلبون بالملايين أهدى سيارة إلى طلفاح وعشرة آلاف دينار إلى مسؤول آخر، وآخرها البكر يصرّ على تأديبه حتى السيد الحكيم تدخل طلعوه جاسوس وعدموه... القضية واضحة حكم طائفي يستهدف الشيعة.

ـ وعنصري يستهدف الأكراد.

ـ هؤلاء يريدون يدمرون العراق... هؤلاء مثل بني أمية.. تشوف شلون حساسين من زيارة سيد الشهداء.

ـ على كيفك شويه أبو شيماء لا تروح زايد.. أنت كنت توصيني بالتفاؤل وأمس اخذت عليّ عهد لا أتدخل بالسياسة.

ـ بصراحة جئت أجدد العهد هؤلاء هدفهم الكرسي ما اعتقد يتعرضون الا للشخص الذي يشكل خطر.

ـ وأنت؟!

ـ أنا مسافر قريباً.

ـ أين؟

ـ أي دولة بالعالم.

ـ جدّ أو مزاح.

ـ لا وقت للمزاح أبو ميسون أنا فقدت الأمل... والحياة بالأمل.

وصلت أم ميسون ومعها أم أحمد وابنها الصغير أحمد كان الانكسار بادياً عليها وعيناها ما تزالان محمرتين سلّمت وواصلت طريقها مع ترحيب أم ميسون.

أما أبو شيماء مدرس التاريخ فقد كان ينظر إلى شجرة البرتقال ومشاهد من ثورات قديمة تشتعل في ذاكرته ثورة الحسين وثورة زيد وثورة ابراهيم النفس الزكية وثورة أبي سرايا وثورة العشرين وتصور وجوه الطغاة وقد تلطخت بدماء الضحايا وجه الحجاج والمنصور وهارون الرشيد والمعتضد ثم ظهر وجهه صدام قوياً قاسياً وهو يبتسم ابتسامته الصفراء.

الفرات ـ 7

كانت الأمطار في تلك الليلة الخريفية أشبه بالدموع فقد بدت الرفاعي وهي تتلفع بالليل والغيوم والمطر امرأة جنوبية تبكي بصمت.

جلس الشيخ ابو محمد حزيناً وكأنه في مأتم أو انه يشارك الطبيعة حزنها ودموعها.. كفكف دمعة يتيمة وهو يحدث صاحبه:

ـ لم أر السيد الصدر يبكي بهذه المرارة حتى في يوم عاشوراء في مصاب سيد الشهداء... كان السيد في مكتبته وجاء الخبر بتنفيذ حكم الإعدام بالشيخ عارف ورفاقه قال وهو يبكي بألم:

ـ إن هؤلاء أخافوا الناس وارهبوهم... وليس كل الناس يحركهم الفكر هذه الأمة تحتاج إلى دم كدم الحسين .

قال له فتى: إذا أنت تصنع هكذا فماذا نفعل نحن؟!

فقال السيد: يا بني والله لو أنّ البعثيين خيروني بين اعدام خمسة من أولادي وبين إعدام هؤلاء لاخترت إعدام أولادي ... وبكى الشيخ أبو محمد حزناً.

هذا البلد لن يرى خيراً بعد اليوم ... إن حزب البعث يمضي قدماً في مشروعه لتدمير العراق وهو يعرف أين يضرب، البعثيّون واثقون مما يقومون به يعرفون جيداً أن الشعب قد ركع.. وها هي شعاراتهم الوقحة تملا الشوارع خاصّة: «جئنا لنبقى».

ضربوا التجار لأنهم الشريان الذي يمدّ المؤسسات المستقلة بالحياة.. منعوا الكتاب الإسلامي.. فكتب سيد قطب ممنوعة وكتب البنا ممنوعة وكتب السيد الصدر ممنوعة، حتى الكتاب العلمي مثل «الاسلام يتحدى» ممنوع والويل كل الويل لمن يكتشفوا حيازته لها.

أنّهم يعرفون كيف يخضعون الامة.. انظر كيف يفتعلون الازمات احياناً مواد غذائية تختفي ويبدأ اللهاث خلفها وأحياناً مواد البناء.. أما إذا أعلنوا عن زيادة في الرواتب فثمة أمر خطير يريدون تمريره...

جاءوا بعدنان القيسي وسحبوا الجيش من الأردن وتركوا فلسطين تحت رحمة عملاء الماسونية وافتعلوا ازمة أمنية فظهر أبو طبر ليرعب بغداد ونفذوا جرائم وحشية بحق بعض المغضوب عليهم ثم أخرجوا مسرحية القبض عليه. لك الله يا شعب العراق.

قال له صاحبه:

ـ ألم يحدث رد فعل في بغداد فالشيخ عارف على كل حال استاذ جامعي مرموق في كلية أصول الدين..

قال الشيخ ابو محمد:

ـ تجمع طلابه أمام بناية الطب العدلي وكاد التجمع أن يتطور إلى مظاهر احتجاج ولكن قوات الأمن حضرت بكثافة ومعهم أوامر باطلاق النار إذا لم يتفرق الحشد الطلابي ... لا أظن أن هناك أمل لقد بدأ عصر الظلام.

ـ ليس من السهل أن يموت الشيخ عارف ورفاقه القرآن يقول أنّهم أحياء.

ـ هذا صحيح لكن ما حصل خسارة لهذا البلد.. خسارة كبرى فهؤلاء رجال فكر واعدموا لمجرد الرأي كان لديهم مشروع فكري... مشروع ثقافي بحت.

بدت مدينة الرفاعي تدخل فصلاً جديداً في حياتها، فقد سافر منذ مدّة شيخ حربي آل مزعل ويقال أنّه هاجر إلى سوريا مفضلاً الحياة بعيداً عن الديار...

كان ثمة شيء يتغير في داخل النسيج الاجتماعي للمدينة فقد بدأ البعثيون يتحركون لتغيير الكثير من العلاقات والقيم خاصّة بعد أن وصلت صعقات الرعب الحكومي وهي عادة تصل مضخمة بعض الشيء، وبدأت الأجهزة الأمنية تسرّب بعض تفاصيل حفلات التعذيب في بغداد...

ويبدو أن الحكومة والنظام بشكل عام كان يبعث برسائله في طبيعة

الناس الذين سيكون لهم شأن في الدولة، فكان السقوط والانحطاط الاخلاقي معياراً أكيداً في التزلف إلى النظام... ولهذا ما إن مضت مدّة وجيزة حتى ظهرت كائنات غريبة في طبيعتها، فرجل الأمن كائن لا يتردد في ارتكاب أية جريمة وليس له مقدّس على الاطلاق ثم انتشرت المنظمات الحزبية في كل مكان وراحت تسحق ببطء وبقسوة كل القيم الأخلاقية حتى أصبح البعثي كائن عجيب ليس له من عراقيته الا الانتماء الشكلي وليس له من إنسانيته إلّا أهاب... وشيئاً فشيئاً لم يعد ثمة فارق بين رجل الأمن والحزبي.

وخلال تلك الفترة ارتفعت وتيرة الهجرة إلى المدن لدى الفلاحين وغادرت قرى كاملة من الريف إلى المدينة بسبب السياسات الاقتصادية الفاشلة والنهب الذي تتعرض له مقدرات البلاد من قبل رموز حزب البعث.

واختفت الملايين من أشجار النخيل تقدر بعشرة ملايين نخلة في واحد من أبشع المجازر الزراعية في تاريخ الإنسان.

وقد بدا أن البعث يمضي قدماً في تنفيذ برنامج رهيب لتدمير العراق ثقافياً واقتصادياً وإنسانياً.

واستكمل البعثيون برنامج منع وسائل الأعلام من تغطية الشعائر الدينية كصلاة الجمعة والأذان للصلاة اليومية وشعائر الأعياد الإسلامية

بذريعة عدم اثارة حساسية الأقليات الدينية الأخرى وتعزيز الوحدة الوطنية في الوقت الذي تملأ كركوك والمدن الكردية شعارات من قبيل نفط العرب للعرب والضغط على الكثير من الكرد للانتساب إلى حزب البعث العربي وهكذا الأمر بالنسبة إلى التركمان.

وظهرت في فترة وجيزة عشرات من الأغاني الهابطة كما ظهرت مسلسلات عراقية تهدف إلى تشويه سمعة علماء الدين، وتوريد مسلسلات وأفلام عربية وأجنبية تعمل على تقويض القيم الاخلاقية أما دور السينما فقد بدأت تعرض أفلاماً شبه إباحية.

وانشئت أماكن سياحية متحللة أخلاقياً وزرعها في مناطق بالقرب من الأماكن الدينية فقد انشئت بحيرة الرزازة وبدأت حمّى الحفلات الغنائية وانتشرت مراكز بيع الخمور انتشار سرطانياً.

وظهرت مراكز الشباب وبرامج الطلائع والفتوة وإشاعة الاختلاط بين المراهقين والمراهقات والتشجيع على الأزياء المنافية للحشمة أما مصانع البيرة فقد تضاعفت طاقتها الانتاجية بشكل يلفت النظر وفتح باب الاستيراد لكل أنواع الخمور على مصراعيه واغرقت الأسواق بكميات كبيرة وأصبحت تباع بأسعار زهيدة وأعلنت الحكومة عن تقديم منحة مالية مغرية لكل مقهى ومطعم يبيع المشروبات الكحولية.

وأعلن الراديو عن قيام الرئيس البكر بتقديم هدية نقدية لممثل عراقي

قبل امرأة في عمل تلفزيوني!!

وظهرت المجلات الجنسية بشكل مريع. واصبح الانتماء إلى فرق الرقص يشكل امتيازاً مغرياً بحيث وصل راتب عضو الفرقة القومية للرقص أكثر من راتب الاستاذ الجامعي!

أما ظاهرة التخييم في السفرات التي تنظمها المدارس فقد ارتفعت وتيرتها يتم خلالها تشجيع المراهقين على الاختلاط والاتصال الجنسي.

وأصبح الحجاب منبوذاً من الدولة على كافة الصعد فتراجع بفعل سياسة البعث واعتباره رمزاً للرجعية إلى مستويات قريبة من الانقراض.

وإلى جانب التشدد في مسألة الزواج لدى الشباب خاصّة لدى البنات ووضع العراقيل في طريق الشبان والفتيات فقد كانت الحدائق العامّة والمنتزهات تفتح أبوابها ليل نهار لاغراء الشباب ودفعهم إلى علاقات جنسية خارج الزواج وكان المذياع والتلفزيون يبث باستمرار أغنية مي أكرم بصوتها الماجن وأدائها الخليع: استعجل يا ميل الساعة مواعد حبيبي آنه مواعد حبيبي.. في حين فرّ طالب جامعي إلى خارج العراق بعد أن ألقى قصيدة في جامعة بغداد في أمسية شعرية جاء في أحد أبياتها :

نفيت واستوطن الاغراب في وطني

ودمروا كل أشيائي الحبيبات

وخلّف وراءه قصّة حب مأساوية.

فلم يكد يطل عام ١٩٧٧ حتى كان البلد يمضي بوتيرة متسارعة نحو قدر رهيب..

وقد امتلا العراق بشعارات تافهه:

عشر سنوات العراقي يتقدم!

عشر سنوات الطالب يتقدم!

عشر سنوات العامل يتقدم!

عشر سنوات الفلاح يتقدم!

والحق يقال أن العراق كلّه كان يتقدّم بسرعة مخيفة نحو الهاوية ترى من سيوقف هذا الجنون؟! من سيوقف هذا السقوط المريع؟!

كان حسام غارقاً في حزن شديد فقد توفي جدّه... بعد أن اصيب بوعكة اسلمته إلى الفراش وتدهورت صحته بشكل سريع وعندما عرضوا عليه نقله إلى المستشفى رفض بشدّة لقد كان يشعر بدنو الأمر وربما أحس بأن الموت قد انشب مخالبه وفي الأيام الأخيرة كان الحاج حامد يديم النظر إلى نخلة في وسط الدار كانت تذكّره بصباه وطفولته وها هي الآن قد هرمت وشحب لونها بفعل الزمن وفصل الخريف الذي أطل من جديد يذكر الناس بالرحيل.

وأصبح الذهاب إلى جامع الشط السلوى الوحيدة لحسام الذي بات قليل الكلام يصغي إلى أمه ويصغي إلى مواعظ الشيخ الذي أصبح وجوده

قوياً والتفّ حوله بعض الشباب وإن كانوا يعدون بالأصـابع كـان حـسام يحضر إلى الجامع في كل فرصة تتاح له وكان يفضل مطالعة بعـض دروسـه في الجامع أو يجلس في داخل مكتبة الجامع فيطالع بعض الكتب. ووجـد في داخله ميلاً جارفاً لقراءة الكتب العلمية وها هو الآن قـد أصـبح الأول في صف الخامس العلمي وكانت درجاته فريدة بين أقرانه..

وعندما رأى والدته تشكو من بعض الآلام قرر أن يصبح طبيباً وبدا في عينيه النجلاوين عزم وإراده على تحقيق ما يرنو إليه.

دجلة ـ 6

أصبحت بغداد غانية لعوب لياليها الحمراء تكاد تخنق نور الفكر الذي كان ينبعث من بعض مراكزها الثقافية العريقة وهاجر الشعراء بعد أن ملأ مهرجو السلطة مسرح الحياة ضجيجاً وتهريجاً، لقد بدأ عصر الضفادع... الشوارع تضج بالنقيق، الجامعات مليئة بالنعيق..

ظهرت القصور الكبرى على شطآن دجلة ومرّة أخرى يعود التاريخ ويعود دجلة يقسم هذه المدينة شطرين فقراء وأغنياء قصور فخمة إلى جانب أكواخ خاوية ليالي ألف ليلة وليلة في قصور هارون الرشيد وأنين المظلومين في طوامير سجن المطبق الرهيب... والمطربون والمطربات يصدحون: بغداد يا بلد الرشيد... ليالي بغداد أعراس الحزب؛ الظلام يستحيل إلى نهار فكشافات الضوء تجعل منها غانية لعوب تتغنج لآلاف العاشقين.

والظلام الأبدي في سجونها الرهيبة في زنزانات أبو غريب وقصر النهاية والفضيلية ومديرية الأمن العامة وأمن بغداد والشعبة الثالثة لقمع للأكراد والشعبة الخامسة للإسلاميين (مكافحة النشاط الرجعي)

والزغفرانية و معسكر الرشيد و...

وكان آلاف العمال الذين يتدفقون فجراً من مدينة الثورة إلى قلب بغداد ويضيعون في بناياتها الضخمة على نهر دجلة وفي انحاء العاصمة يعودون منهكين مساءً فيتحدثون عن قصور البكر على النهر وقصور صدام وقصور اعضاء القيادة القومية واعضاء القيادة القطرية وعن طواقم الحمامات الموشاة بالذهب المستوردة من ايطاليا.

بين فترة وأخرى يختفي بعض العمال البسطاء الذين ساقهم القدر للعمل في منشآت سرّية، لقد غادروا مدينتهم فجراً ولكنهم لم يعودوا وانتظر الأبناء الصغار عودة الآباء لكن دون جدوى.. إنهم لن يعودوا أبداً! الذين يزورون بغداد ٧٦ يرون وجهاً صبغه البعث أشبه ما يكون بقناع يخفي أشياء كثيرة أشياء هي في الحقيقية روح هذه المدينة ... ليست بغداد وحدها ارتدت هذا القناع المخيف كل المدن العراقية المسربلة بالخوف والشعور بالخطر من المجهول ترتدي هذه الأقنعة.

إن ما يدهش المرء قدرة الإنسان على التكيف والاستمرار في الحياة، ارادة الحياة والشعور بالخطر يدفع شعباً بأسره إلى أن يحاول عبور هذه الازمة وهذا المنعطف المصيري...

لقد كان من الواضح جداً أن أفكار البعث لم تكن تحظى بأي قناعة أو احترام بل كانت تفرز طاقة سلبية في أعمق نقطة لدى الإنسان العراقي

وكان حجم الكراهية يزداد يوماً بعد آخر وإلى جانب هذه المشاعر المترسبة كانت الشخصية العراقية تزداد تعقيداً ووصلت القابلية على التظاهر بشخصية أخرى أو حياكة قناع متقن للاختباء إلى مرحلة تنذر بالاصابة بأمراض نفسية خطيرة.

وظهرت كائنات عجيبة ومدهشة في قسوتها وانعدام الإنسانية لديها ليس على مستوى رجال الأمن بمختلف المؤسسات الأمنية وإنما على صعيد تشكيلات المنظمات الحزبية الفلاحية والطلابية ونقابات العمال وانبعثت في الجامعات والمعاهد موجة رهيبة من الالحاد والسخرية من المظاهر الدينية وظهرت ازياء تخدش الذوق الاخلاقي بشدّة.

وظهرت شعارات جديدة في كل مكان تتحدث عن ربط المجتمع بـ«عجلة الثورة».

أجل كانت عجلة الثورة تسحق دون رحمة كل شيء يقف في طريقها وكانت تقود المجتمع إلى مصير مجهول.

وأطلّ شهر صفر ٧٧ حزيناً كعادته حيث تختفي الهلاهل والزغاريد في الجنوب ومعظم مناطق بغداد منذ محرم وترتدي المدن الجنوبية من البصرة وحتى شمال شرق بغداد حلّة الحزن وقد ضاعفت رياح شباط القارسة من حزن القرى فاندمجت الطبيعة مع مشاعر الحزن لترسم لوحة بكائية فريدة.

كان حسام قد عزم على التوجه إلى النجف الأشرف والاشتراك في زيارة

الأربعين مشياً على الأقدام.

فمنذ عام ٧٥ عندما كشّر البعث عن أنيابه ليعلن منع زيارة الأربعين مشياً ومشاعر غضب تتجمع في أعماق النفوس كغيوم مشحونة بصاعقة مدمّرة.

لقد انتشرت بسرعة أخبار ما حدث ليلة العاشر في سنة ٧٦ والصِدام الذي حصل بين بعض شباب النجف الذين عرفوا بصلابتهم وفرار مرتزقة الأمن مذعورين.

في يوم ١٩ صفر وصلت السيارة التي تنقل الزوّار إلى مشارف النجف كان قلب أم حسام فارغاً فلم يكن يهدأ لها بال فحثت زوجها أن يلحق بابنها الذي ذهب مع أحد أصدقاء الأعدادية فلحق به في كراج الناصرية واستقلّ نفس السيارة التي انطلقت بالزوار إلى مدينة النجف هتف السائق وقد أدرك أن أمراً قد وقع:

ـ يا ستار يا رب!

شاهد الجميع ارتال من الدبابات والسيارات المصفحة ومن بعيد لاحظ حسام رجال الأمن وبايديهم المسدسات يلوحون للسيارات بالعودة من حيث جاءوا.

شاهد السائق أحد رفاق المهنة عائداً من النجف فسأله وقد حاذاه في المسير:

ـ خير أبو شذى.

أجاب أبو شذى:

ـ الدنيا مگلوبه بـالنجف.. هوسـه.. دبابـات بالـشوارع وطيـارات الميـگ بالسما وبس الله اليدري إذا اكو شي صاير تلگاه بين كربلا والنجف.

ظل ما حدث في تلك الأيـام لغـزاً محـيراً للكثـيرين إلى أن عـاد الـشيخ أبو محمد.

وفي غروب ذلك اليوم عندما دق الجرس في الثانوية أخذ حسام طريقـه كعادته للصلاة في المسجد ومعه صـديقه وزميلـه في الـصف خليـل حيـث انتظما في صفوف المصلّين وبعد الفراغ من الصلاة وقـف الـشيخ فتحـدث حول مسائل فقهية في أحكام الصلاة وتحدث عن أهمية الصلاة وكان يوجه كلامه في ذلك إلى الـشباب الـذين كـانوا يعـدّون بالأصـابع بـين صـفوف المصلّين.

وبعد أن انفض المصلّون من الجامع رافق حسام الشيخ ومعه خليـل إلى خارج المسجد ثم إلى منزله قال الشيخ وهو يبتسم بودّ!

ـ تفضلوا على الموجود!

ـ شكراً شيخنا.

ـ زين انتظركم على الچاي.

ـ صار.

كان الشيخ أبو محمد قد أدرك ان حسام على الأقل كان ينتظر أخبار زيارة الأربعين ورأى الفرحة تتألق في عينيه عندما سمع دعوة الشيخ .

تناول حسام طعام العشاء مع والده وأخيه الصغير، كانت المدفأة التي طالما أثارت خيال حسام في صباه تبعث دفئها عبر اللهب الأزرق.

نظر الأب إلى ابنه وراح يقارن في داخله بينه وبين ابيه وكأنّه يقارن بين الجدّ والحفيد وتعجب للشبه الكبير بينهما قال من دون مقدمة:

ـ بويه حسام ليش ما تصلّي بالبيت؟

أجاب بأدب:

ـ صلاة الجماعة ثوابها عظيم .. وجدّي الله يرحمه كان يوصّيني ونبيّنا يقول: «لا صلاة لمن جاره المسجد».

ـ طلعت آنه المطلوب.. بويه اسمع أنت ما تشوف الحزبيين يراقبون الجامع؟! البارحة فتحوا گهوه اگبال الجامع ما كفاهم فتحوا مركز شباب.

كان أحمد ينظر إلى شقيقه باحترام ويعجب لكلامه وهو يتحدث مع أبيهما.

قالت أنعام:

ـ عيني حسام هذا الدرس ما افتهمه، النظرية كلش صعبة.

أجاب دون أن يحول نظر إليها:

ـ اليوم عطلة ماكو دراسة روحي ساعدي الوالدة.

ابتهجت الأم وقالت متوجعة:

ـ والله ظهري انكسر واحس امتوني تريد تنكَطع يا يمه.

قال حسام وهو يمزج بين الجد والمزاح:

ـ لازم ادخل كلية الطب واصير طبيب لخاطرج.

وعندما كانت الأم تملأ أكواب الشاي قال حسام:

ـ يمّه لا تصبّي لي چاي.

قالت أنعام:

ـ هاي بعدك ما صرت طبيب!

ـ زين أنعام باچر هم عطلة.

ـ مروتك دكتور حسام.

ـ أصلاً هذا الاسبوع كله عطلة.

قالت الأم:

ـ يمّه صدگ ما تشرب چاي؟!

ـ أشرب يمّه ... بس عند الشيخ أبو محمد متواعد آنه وخليل هناك.

انتبه الأب كالملسوع:

ـ آنه اگله لا تصلّي بالمسجد انوب يـروح لبيـت إمـام المـسجد... بويـه اگلك هذوله يراقبون المسجد والشيخ والمصلّين وطرگاعة سوده مصخمه.

ـ هذوله منين!

ـ أنت ما تعرفهم بويه؟ كلش زين تعرفهم.

قالت الأم:

ـ أبو حسام الله سبحانه هو اليحميه.. ابنك صايم مصلّي وربك هو الذي يرعاه .

أشعل أبو حسام سيجارة وأخذ نفساً عميقاً ثم بدا أنفه مدخنة قطار قديم أو مصنع حديث.

نهض حسام قبل الوقت المحدد وفي نيته أن يمرّ على صديقه خليل قالت الأم وهي تودّع ابنها بنظرات حانية!

ـ اروح لك فدوه يمّه لا تبطي... لا تنسى اللفاف.

ـ لا يمه ساعه انشاء الله وارجع.

كانت رياح شتائية تلفح وجهه بقسوة وقد غمر الظلام الأشياء بستار من الغموض ومضى حسام طريقه وقد امتزجت ولولة الريح مع نباح كلاب بعيدة.

الفرات ـ 8

كانت الريح تئنّ وهي تعدو خلال شجيرات القصب على جرف الشط حيث يقع بيت الشيخ أبو محمد.

كانت المدفأة تتوسط الغرفة حيث يستقبل الشيخ ضيوفه وفي زاوية الغرفة ثمة رفوف لمكتبة صغيرة.

رحب الشيخ بضيفيه الشابين وكان يتوسم فيهما الخير وقد حدس بأن حسام قادم لمعرفة ما حصل في حوادث الأربعين.

صبّ ثلاثة استكانات من الشاي الذي ملأت نكهته الغرفة، هيمن صمت تقطعه رشفات الشاي حدق حسام في اللهب الأزرق في المدفأة وقال:

ـ شيخنا بصراحة نريد نسمع منك أخبار الحوادث.

ابتسم الشيخ بمرارة:

ـ النظام يسميها حوادث الشغب والناس يسموها حوادث الأربعين أنا أسميها انتفاضة صفر كان من الممكن أن تكون ثورة.. أنا لم أشارك فيها لكن

عشت تفاصيلها عن قرب.. لقد رأينا الخوف في عيون البعثيين لأول مرة..

واندفع الشيخ يروي ما تراكم في صدره دون تحفظ:

ـ لأوّل مرّة يتحدى الشعب بهذه الصلابة حكومة العفالقة . القصة التي سأحكيها لكم سمعتها من شاب شارك بنفسه واعتقل ثم أفرج عنه وزرته في داره بحكم علاقتي مع والده.

بعض الشباب والمؤمنين فيهم عمال وطلبة وموظفون وحتى عسكريين قرروا تحدّي المنع الذي فرضته الحكومة على زيارة الأربعين مشياً على الأقدام.

وكان التجمع في مدينة النجف يوم ١٥ صفر وفي الساعة ١١ اكتظت الشوارع بالطبع تجمع هذه الأعداد الكبيرة لم يحدث عفوياً كان هناك تحضير للتحدي حتى الكسبة وأصحاب المحال التجارية أغلقوا متاجرهم والشيء العجيب حضور النساء والأطفال يعني هذه روح حسينية صادقة هذا اليوم يوم ١٥ صفر يوم يجب ألّا ننساه أبداً أما ساعة الصفر لإعلان التحدي فقد كان بعد تقدم مجموعة من الشباب الأبطال من شارع الإمام الصادق تتجه نحو الصحن الطاهر وارتفعت الشعارات الحسينية الثائرة وانضمت الجماهير إلى المجموعة فتحولت إلى انتفاضة شعبية وارتفعت أعلام خضراء مكتوب عليها: «نصر من الله وفتح قريب» وفي مقدمة التظاهرة رفعت راية خضراء كبيرة كتب عليها «يد الله فوق أيديهم».

ومنذ اللحظات الأولى اتخذت الحكومة تدابير تحول دون انفجار الوضع وانتقاله إلى المدن الأخرى.

طافت التظاهرة شوارع النجف تتحدى بشكل مثير نظام البعث.. وكانت أجهزة الأمن ملأت المدينة بجلاوزتها والمأجورين من عملائها..

وبعد أكثر من ساعة اتجهت المسيرة نحو مدينة كربلاء إلى ابي عبد الله عليه السلام وكان الرجال الأبطال يهتفون عالياً: (لو قطّعوا أرجلنا واليدين؟ نأتيك زحفاً سيدي يا حسين) وكان الناس يتعاطفون بشكل مؤثر مع هذه المسيرة والدموع تجري ووصلت أنباء التحدي إلى مدينة كربلاء فهب شبابها لاستقبال المسيرة الكبرى والالتحاق بها مهما كان الثمن.

وصلت جموع الزّوار والثوار إلى خان الربع على بعد عشرة كيلومترات كالعادة كل عام نزل الشباب في الخان الذي طوّق بسيارات الأمن والشرطة والمخابرات التي وصلت للكشف عن العناصر القيادية في المسيرة.

أما الشباب القياديين فسارعوا إلى وضع تدابير لحماية الزوار من أي هجوم محتمل فشدّدت الحراسة في نقاط دخول الخان وكان البطل رحيم ابو گلل قد وزع كلمة سرّ الليل "حيدر" وأعلن أمام الجميع «أنهم لن يدخلوا إلّا على جثتي» وهب شبان آخرون فراحو يجمعون الحجارة ونقلها إلى سطح الخان

لرشق البعثيين في حال قرروا اقتحام الخان.

دفع رجال المخابرات ببعض عناصرهم وعملائهم للنفوذ داخل المسيرة والتجسس وتزويدهم بالمعلومات ولكن المؤمنين قد فطنوا لهم وكشفوهم.

وضع الشباب الأبطال خطتهم لصباح غد واستفادوا من دروس العام الماضي عندما خرجت جموع الزوار على هيئة مجاميع صغيرة من النجف إلى كربلاء فسهل على البعثيين محاصرتهم واعتقالهم لهذا قرروا أن ينهض الجميع عند سماع صوت البوق وأن يهتفوا: يا حسين وكان للشاب البطل محمد سعيد البلاغي دوره القيادي في التخطيط. أمضى الزوّار الثوار تلك الليلة القارصة البرد وقد افترشوا الأرض ولا غطاء لهم سوى السماء وهكذا تمر ساعات الليل وفي فجر ١٦ صفر سمع صوت البوق وهب الرجال صوب الباب لمغادرة الخان وهم يهتفون يا حسين!

أليست هذه الكلمة بذاتها صرخة؟! أليست هذه الصرخة ثورة.. ويبدو أن الشرطة تلقت أوامر بالهجوم على الخان لكن ما حدث من ردّ فعل الجماهير دفع بالشرطة إلى الهرب كانت صرخة يا حسين تبعث الفزع في قلوب البعثيين وكان الخوف واضحاً في عيونهم وهكذا راحت المسيرة الكبرى تشق طريقها إلى خان النص وقبل أن تصل إلى هناك قدمت سيارة تابعة لمديرية الأمن وترجل منها اثنان وشهرا مسدسيهما باتجاه الناس وراحا يطلقان الرصاص

وبدل أن يفرّ الناس هجموا عليهما فاضطرا إلى ركوب السيارة حيث كان سائقها جالساً وراء المقود.

وسيطر الثوار على الطريق الرئيسي بين كربلاء والنجف وكانت الهتافات تدوي في الفضاء:

ـ يبو فاضل گوم لينه عفلق تأمّر علينه!

ـ ماكو مؤامرة تصير على الحسين بن علي !

ـ يا صدام شيل ايدك جيش وشعب ما يريدك!

ـ سجلها النجف ثورة حسينية!

شرطة البعث شرطة جبانية

ـ يا جاسم گله للبكر تره حسين ما نعوفه.

تساءل حسام:

ـ من هو جاسم؟

ـ جاسم الركابي محافظ النجف الأشرف.

وفي هذا المكان نهض صاحب رحيم أبو گلل وألقى خطاباً وقد سجله البعض على أشرطة الكاسيت حثّ فيه على الاتحاد واجتناب التفرقة والحذر من الخونة الذين يندسون في الصفوف ويثيرون الفتن.. «ان هذه المسيرة هي من أجل قضية حق وأن هذه المسيرة هي في طريق الحسين سيد الشهداء الذي ثار ضد الظلم ورفض حياة الذل.. ولكي يبعث روح

التضحية في نفوس الجميع أعلن عن اسمه بكل شجاعة..

وكان الذي يحمل راية المسيرة البطل ناجح محمد كريم فاطلق هتافاً جريئاً.

ـ هلّه هلّه يا البعث يا الحاقدين بالنجف ما ينمحي ذكر الحسين .

وهكذا نجحت المسيرة في الوصول إلى خان النص.

وكثف البعثيون من اجراءاتهم وتدفق عناصرهم وقاموا بعدّة هجمات ونجحوا في إحداها من خطف اثني عشر شاباً فردّت الجماهير الثائرة بالهجوم على مركز الأمن في ناحية الحيدرية واطلاق المعتقلين وقد حدث ذلك في ١٧ صفر.

واستخدم البعثيون البنادق الرشاشة وراحوا يطلقون النار على شعب أعزل فوقع طفل شهيداً وهوت إلى الثرى امرأة وامترج ازيز الرصاص مع هتاف: يا حسين.

وكأن التاريخ يعيد نفسه مرّة أخرى لقد كان جيش يزيد والامويون في غاية النذالة والوحشية وهؤلاء البعثيون اليوم يجسّدون ذات الدناءة والخسة والانحطاط والسقوط الأخلاقي. اطلاق الرصاص على ناس عزّل في مسيرة سلمية هدفها زيارة الحسين صلوات الله عليه هو عمل جبان لا يقوم به إلّا الأوغاد.

وراحت المسيرة تواصل طريقها بالرغم من سقوط الشهداء وعلت

هتافات مدوية:

ـ قدّم النجف أربع فدائية

گلّو للبكر كل اصبع بمية

ـ وين يروح المطلوب إلنّه

وفتح شاب هو السيد عبد الخالق العوادي صدره لرجل الأمن الذي وجه نحوه رشاشة هتف السيد البطل!

ـ اضرب انا سمعت بسقوط شهيدين واريد أن اكون الثالث .

فسقطت بندقية ذلك المجرم.

ووصلت أنباء الانتفاضة إلى مدينة النجف فانفجر الوضع وزحفت الجماهير إلى مبنى المحافظة تهدد وتتوعد المجرمين بالويل والثبور إذا لم يرفع الحصار عن المدينة فرفع الحصار وتوجهت الجماهير المضحية نحو خان النص لدعم الثوار.

آه أنّها أيام لن تنسى وسينحني تاريخ العراق الحديث أمام أولئك الشبان الذين رسموا بمواقفهم الحسينية وشجاعتهم الفريدة صفحة مشرقة لن تنسى.

هناك حوادث في التاريخ يبقى منها مجرّد ذكريات ثم تستحيل إلى سطر أو سطرين في سجل كبير وتسقط من الذاكرة وهناك حوادث خالدة لا يمكن أن تنسى..

أن ذكرى استشهاد أبي الأحرار أعظم دليل على ذلك.. كلنا في يوم عاشوراء نعيش الذكرى ونستمع إلى المقتل ونبكي وكأن الحسين قد ذبح الآن وليس قبل مئات السنين...

إنّ ما حدث في صفر هو من قبيل هذه الحوادث وهؤلاء الشبان الذين نهضوا لمواجهة نظام همجي كهذا النظام يجب ألّا ينسوا إلى الأبد..

سوف يسجل التاريخ الحادثة الكبرى في طليعة المنعطفات في مسيرة هذا الشعب الأبي...

لقد اهتز النظام بقوّة وعنف... لهذا أعلن عن رفع الحظر لامتصاص الغضب الشعبي العارم ومع ذلك فإن الثوار ظلوا حذرين و وزعت كلمة سرّ جديدة "عود شخاط" وتمكنوا من كشف بعض المدسوسين وسجنوا في مكان خاص في الخان.

وزحفت الدبابات والمدرعات لتحاصر كربلاء والنجف وحلقت طائرتا ميغ قامتا بكسر حاجز الصوت وكانت الطائرتان تحلقان على مستوى منخفض لإرهاب الجماهير الثائره فتحطم زجاج العديد من السيارات.

سجل بعض العسكريين مواقف مشرّفة بانضمامهم إلى الشعب الثائر ولا يعرف أحد السرّ في سقوط الطائرتين حتى الآن فقد سقطت إحداها في بحيرة الرزازة والأخرى بالقرب من المسيب وهكذا انتصر شعب اعزل فقد

وصلت المسيرة كربلاء وتوجهت الجموع إلى حرم أبي الفضل العباس ومنه إلى حرم سيد الشهداء الحسين وكان البعض يحمل ثياباً دامية لاحد الذين استشهدوا في المواجهات على طريق كربلاء...

وعلت في الفضاء هتافات يا حسين وكان رجال الأمن والاستخبارات قد اعدّوا العدّة لإلقاء القبض على أكبر عدد ممكن فسيق المئات إلى السجون والمعتقلات بينهم أطفال ونساء وشيوخ.. وصدرت أحكام بالاعدام والسجن المؤبد.

وأظن أن النظام فقد ثقته بالجيش، لأنه تمرّد على الأوامر باطلاق النار على الشعب وسحق الانتفاضة بالدبابات.

وقد سمعت باعتقال الكثير من العسكريين وحكم على بعضهم بالاعدام.

وقد اعتقل السيد الصدر فهم يظنون ان السيد وراء ما حصل ولهذا كانوا يسألون المعتقلين: من تقلّد؟ أو ما هي علاقتك بالصدر؟! لقد فوجئوا بدقة التنظيم في المسيرة ونجاحها في الوصول إلى كربلاء! وقد طلبوا من السيد أن يرسل برقية إلى البكر وصدام تتضمن تأييده للاجراءات الحكومية فارسل السيد برقية طالب فيها المسؤولين باحترام الشعائر الدينية وطلب من الجماهير التقيد بالإسلام في مثل هذه المناسبات .. لهذا سمعت أنّهم مزقوا هذه البرقية .

نعم ما حصل كان ثورة صحيح أنها لم تسقط النظام لكنها هزّته هزاً عنيفاً.

سكت الشيخ ورفع رأسه ينظر إلى الشابين فرأى في عين حسام بريق ثورة ربما تندلع ذات يوم.

ومدّ يده إلى كتاب فأخرج منه ورقتين وقال:

ـ هذه أشعار لشاعر في خارج العراق وأخرى في الداخل لا يعرف قائلها ومن الأفضل أن لا يعرفه أحد.

ناول ورقة إلى حسام وأخرى إلى خليل وقال:

ـ تستطيعان الاحتفاظ بهما بعيداً عن أعين الحاقدين.

هدأت الريح وكفّت عن الهبوب وقد بدأت السماء تنث مطراً ناعماً.

عندما غادرا منزل الشيخ كان حسام قد التزم الصمت وهو يرافق صديقه إلى داره وقبل أن يودّعه اتفقا على تبادل الورقتين غداً بعد الاستنساخ يدوياً .

دجلة ـ 7

كان المطر غزيراً في تلك الظهيرة والجوّ بارداً فالشتاء ما يزال جاثماً وسماء بغداد مثقلة بالغيوم..

جلس أبو ميسون في الحجرة المطلّة على الحديقة التي بدت اشجارها شاحبة تستقبل المطر.. كان وحيداً في ذلك اليوم، ميسون في بيت خالتها منذ أيام تستعد للامتحانات وزوجته مع ابنته الأخرى في زيارة لأهلها.

كان أبو ميسون يشعر بالحزن فما يزال ما حدث في صفر والأحكام التي صدرت بحق (المجرمين) تلقي بظلالها المأساوية والذي ضاعف حزنه أن أخاه قد فاجأه بأنه سوف يغادر العراق بعد أيام إلى اليمن لهذا قرر الذهاب إلى محل عمله علّه ينشغل قليلاً .

غادر منزله واستقل سيارته التي راحت تشق طريقها تحت المطر وكانت قطرات المطر تنقر السقف والماسحات تعمل على هون وشوارع الكاظمية تكاد تكون مقفرة في تلك الظهيرة ومن فوق الجسر المؤدي إلى الجانب الآخر بدا نهر دجلة بشطآنه المكتظة بالنخيل والمطر رموش حسناء تبكي بصمت..

قبل أن يصل قريباً من شارع النهر الغى فكرة الذهاب إلى المحل وأخذ طريقه باتجاه الكرادة إلى أخيه .

فوجئ شقيقه بهذه الزيارة من دون تلفون كانت زوجة أخيه منشغلة بتوظيب بعض حقائب السفر.

جلسا صامتين واشعل أبو شيماء سيجارة فأخذها أخوه وراح يسحب نفساً عميقاً اضطره إلى السعال ابتسم أخوه وقال:

ـ ها أبو ميسون صاير تدخن؟!

امتزجت كلماته بالسعال:

ـ انتظر سنة سنتين وراح تشوف العراقيين كلهم يدخنون حتى الأطفال بالمستقبل راح يدخنون... متى السفر؟

ولم يصبر لسماع الجواب فاستطرد:

ـ سفرك صعب عليّ بس صدق آني فرحان.. ماكو دولة غير اليمن؟ ليش ما سافرت لمصر؟

ـ مصر هي اللي تصدّر المعلّمين يعني عندهم فائض شعبي في العدد راح يوصل أربع ملايين.. والحبل على الجرّار.. بطلعان الروح حصلت الموافقة طبعاً قدمت الطلب قبل حوادث الأربعين لو كان الطلب بعد ذلك كان مستحيل ... احتمال السفر في العطلة الربيعية يعني بعد الامتحانات... على ذكر الامتحانات ميسون شلونها..

ـ عند خالتها

ـ كلما اتصل واسأل عن ميسون اسمع هذا الجواب.

ـ متعلقة بميسون وميسون هماتين متعلّقة بيها.. تريد تغير الموضوع؟

ـ يا موضوع؟

ـ السفر، بعدين شنو علاقته بالحوادث؟

ـ ليش اللي صار شويه البلد كلّه اهتزّ..

طائرات ودبابات... بالكاظمية ماكو خبر..

ـ طبعاً الكاظمية حالها حال النجف وكربلا.. الجيش دخل انذار والتفتيش أكثر وشكولات جديدة ما أدري من أين جاءت ولهجة قبل ما كنا سامعينها.

ـ عندي طالب مجدّ ومؤدّب ودرجاته عالية في الامتحان الأخير سلّمني الورقة تقريباً بيضاء وكاتب بيت شعر بالزاوية بخط ناعم:

ما كنت أحسب أن يمتدّ بي زمني
حتى أرى دولة الأوغاد والسفلِ

طبعاً اشو ما له علاقة بموضوع الامتحان وأصلاً محذوف من المنهج الدراسي كان موجود في كتاب "نصوص أدبية" والقصيدة للطغرائي المعروفة بلامية العجم، قبل سنوات انحذف هذا البيت من القصيدة .

قال أبو ميسون:

ـ صحيح اللّي بعبّه صخل يمعمع يدرون بنفسهم زين أوغـاد وسـفلة.. صديقي معلم رجل كبير بالـسن ربـع قـرن يـدرس ابتدائيـة يحلـف لي أن القراءة الخلدونية غيروها لوجود جملة: إلى متى يبقى البعير على التلّ!

ضحك أبو شيماء:

ـ مو بهذا الثخن!!

ـ على كلٍّ شنو كانت قصّة هذا الطالب؟!

ـ أخذته على صفحة استفسر منه السبب طبعاً هو تغيـب يـوم يـومين.. فأجاني بأن والده كان معتقل بحوادث الزيارة وصار لـه أيـام مـن طلـع.. كانت الدمعة بعينه قال من شفته ما صدقت هذا والدي مدمّريه بالتعـذيب شهر كامل بالتوقيف والاتهام تنظيم مع الـسيد الـصدر!! وحكـى لي عـن التعذيب أشياء لا يصدّقها العقل..

حتى جربوا معه أساليب وأدوات تعذيب جديدة مـستوردة مـن المانيـا الشرقية.

في البداية وجبة خفيفة تـدعى "قـاط خفيـف" ومعنـى ذلـك اسـتقبال المعتقل معصوب العينين وينهال عليه أكثر من خمسة رجـال بالـضرب فـلا يدري من أين تأتيه الصفعة والركلة وذلك من دون توجيه سؤال.

وبعد الاستجواب ولأن المعتقل في رأيهم مجرم حتى لـو لم يعـترف تبـدأ معه أساليب التعذيب الفلقة حتـى يبـدأ الخـدر في بـاطن قدميـه ويـستمر

الضرب بالصوندات إلى ما يقارب أربعمئة ضربة.

وبعدها التعليق بربط اليدين إلى الوراء ثم يعلّق بكلّاب مثبت في وسط غرفة التعذيب وأحياناً يربطون قنينة غاز في قدمي المعتقل.

ومرّة يكون التعليق بالبنكة ويتسبب في أحداث آلام رهيبة.

أما أطفاء السجائر في جسد المعتقل فأمر عادي.. سألته عن صحة والده قال: الله كريم انشاء الله يصير زين ... حالياً نراجع طبيب لأنه فقد السيطرة على الادرار والدي حسّاس في هذه المسألة لكن يتظاهر بأن الأمور طبيعية.. المشكلة احتمال يفصلوه من عمله.

قال أبو ميسون:

ـ عندي مبلغ يعني حقوق شرعية انتظر آخذ اجازة حتى توصّله لهم.

واستطرد ليغير من مسار الحديث فقال:

ـ لماذا اليمن؟!

ـ الظاهر العلاقات معها جيدة والاجراءات في السفر والايفاد مختصرة.. المجتمع هناك قبَلي وعندهم مسألة الثار قوية أكثر من العراق... اثناء المراجعة لترتيب معاملة السفر سمعت من زملاء انّه اثنين من المدرسين المصريين يشتغلون في التدريس الابتدائي وبينهما علاقة صداقة أحدهما يدرس في إحدى القبائل والآخر في قبيلة تسكن منطقة مجاورة للاولى وحدثت بين القبيلتين نزاعات شديدة فأقدمت إحدى القبيلتين على قتل مدرّس القبيلة الأخرى

فثارت ثائرة القبيلة وأقسمت على قتل مدرس القبيلة الأولى طلباً للثأر!!

ضحك أبو ميسون:

- صحيح شرّ البلية ما يضحك! بس شلون تريد تروح تعيش هناك؟!

تغيرت ملامح ابو شيماء وقال:

- مع ذلك اهون من الحياة هنا... الوضع يوم بعد يوم يسوء الأمن بدأوا بتبعيث المدارس الثانوية... قبل أيام بدأوا بحملة لدفع الطلاب على الانتماء إلى الحزب... يأتي مسؤول في الاتحاد الوطني لطلبة العراق ويجتمع بطلاب الصفوف ومحاضرة طويلة عريضة على مكتسبات الثورة... وإذا ما فادت يمارسون أسلوب آخر.. بكل صلافة يلوّح بوجود وسائل أخرى للاقناع.

الأسبوع الماضي قرأت في لوحة الاعلانات اعلاناً مكتوب باليد يعني اعلان فوري هام: على الطلبة المدرجة أسمائهم أدناه الحضور في الإدارة ولمحت اسم الطالب الذي اخبرتك عنه... القاعة كانت تضم عدداً كبيراً ربما يؤلف صفين أو أكثر.. كنت قد لمحت وجود شخص غريب كان المدير يتصرّف معه كما لو انه مسؤول وزاري مع انّه كان شاباً... بعدها بطريقة تبدو عادية استفسرت من أحد الطلاب عما حصل... فاطلعني على التفاصيل..

غصت غرفة الإدارة بالطلاب لهذا أوقفونا وبدأ المدير فألقى كلمته واقفاً من وراء مكتبه فعرّفهم للشخص الواقف إلى جانبه أنّه الرفيق قحطان مسؤول في الاتحاد الوطني لطلبة العراق وباتت القضية واضحة

لقد جاء لينظّم هؤلاء الطلاب ويدفعهم للانتماء إلى الحزب..

استرسل المدير إلى الاسطوانة المتكررة فتحدث عن ثورة ١٧ـ٣٠ تموز المجيدة وما حققه مجلس قيادة الثورة من مكتسبات وانجازات جبارة وعن التقدم الكبير للعراق في ظل حكومة الأب القائد احمد حسن البكر والرفيق المناضل صدام حسين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة...

وكان مع الرفيق المسؤول دفتر صغير لتسجيل أسماء الاعضاء الجدد الذين يرغبون في الانتساب إلى الاتحاد الوطني...

وجه نظرة متسلّطة إلى طالب واقف في أقصى اليمين وقال له:

ـ الاسم؟

أجاب الطالب بأدب:

ـ اعتقد أن الانتماء مسألة طوعية وأنا شخصياً بحاجة إلى فرصة للتفكير.

قال المسؤول الطلابي بغطرسة:

ـ القضية ما تحتاج إلى تفكير لأنه كل مواطن شريف يحب وطنه يتوجب عليه الانتماء إلى الاتحاد والالتحاق بصفوف الحزب القائد حزب البعث العربي الاشتراكي...

قال طالب آخر:

ـ العفو أنا من القومية الكردية.

ـ أنت تتكلم معي باللغة العربية وتعيش في أرض عربية الآن في صفوف

الحزب عشرات من الرفاق الأكراد والتركمان لأن القومية العربية في فلسفة الحزب القائد تشمل جميع القوميات الأخرى...

وأنا مستعد لأن أناقش أي طالب في هذه المسألة.. التفت إلى المدير وقال:

ـ اتفقت مع السيد المدير أنّه أي طالب ما يرغب في الانتماء إلى الاتحاد الوطني لطلبة العراق فهو سيأتي معي إلى مقرّ الاتحاد وهناك نتناقش في هذا الموضوع حتى نعرف أسباب عدم اقتناعه وامتناعه شنو رأيكم رفاق؟!

أدرك الجميع ماذا تعني هذه الكلمات لهذا لا مفرّ من التسليم وهكذا تمكن الرفيق المسؤول أن يكسب أعضاء جدد إلى الانتماء لقد كان حديثه مقنعاً للجميع!!

وضحك أبو ميسون مرّة أخرى وقال:

ـ شرّ البلية ما يضحك.

ـ تريد مني اختار بلد غير اليمن يمعوّد أنا مستعد للسفر حتى للصومال... حتى لجيبوتي يسمّونها دهليز جهنم اروح يم حسن جوليد أحسن من الرفاق.

ـ يعني نارك ولا جنة هلي.

ـ بالضبط.

الفرات ـ 9

كان حسام وخليل قد اتفقا على أن يصطحب كل منهما كتاباً مدرسياً ويلتقيا عند اطراف حقل بعيد..

قبل الموعد بساعة ذهب حسام وقد حمل معه كتاب التاريخ واتّجه نحو شجرة توت نبتت عند منعطف ساقية تستمد مياهها من الشط.

جلس حسام عند جذع الشجرة وفتح كتاب التاريخ فظهرت الورقة التي تحوي قصيدة لا يعرف شاعرها تصوره حسام شاباً يكبره بسنتين أو ثلاث راح يقرأ القصيدة ربما للمرّة العاشرة لكنه في هذه المرّة تذوقها اكثر لانه يستطيع أن يقرأها بصوت مسموع في مثل هذا الفضاء المليء بالصمت ما عدا صوت الماء وهو يترقرق في الساقية الصغيرة.

لا تقل لي انّه ما زال في العشرين عودي
لا ترغّبني الصدور البيض أو قبُّ النهود
لا تؤملني جميل العيش في القصر المشيد
فلقد واعدني ربّي بجنات الخلود
لا تقل عن ضنك السجن وعن ثقل القيود

لا تخفني بالهراوات ومحميّ الحديد
لا تقل عن غرف التعذيب عن نزع الجلود
أنه الدرب الذي يعرفني قبل وجودي
أنّه الدرب الذي ضمّ رفاقي وجدودي
درب عمار وفي متنيه آثار الحديد
وبلال في اتون الرمل في القيظ الشديد
بالذي ردّ به التّمار للطاغي العنيد
بوصايا الثائر المصلوب على الأعواد زيد
بعناد ابن جبير وهو محزوز الوريد
ما الذي تعرفه الاجيال عن حجر الشهيد
دربهم دربي ومما وردوا القى ورودى
فاشهدي يا هذه الدنيا ويا كل الوجود
قد رفضت العيش في ذلٍّ فذا عيش العبيد
ورضيت الموت لم اخسر به غير قيودي
ولعنت الدهر أن يورق الاّ في لحودي
مرحبا بالموت فالموت على دينى عيدي

كانت الكلمات الثائرة التي تتدفق كنشيد حماسي تتخلل خرير المياه فى الساقية. وشعر حسام في أعماقه ببركان يتفجّر حمماً، إن شباب العراق يواجهون بأيدٍ عزلاء نظاماً همجياً متوحشاً معركة غير متكافئة لا يعرف

العالم عنها شيئاً لانّها تدور فى الاقبية والزنزانات .

من بعيد لاح خليل قادماً إلى الموعد شعر حسام بقلبه يبتهج أنّه يحب صديقه كثيراً وقد توطدت العلاقة بينهما منذ ذلك اليوم الذي عصّب فيه أخاه الذي لعب دور الشمر.

مرّت سنوات عديدة حتى أنّ البعض تصور أنّهما أخوان وليس مجرّد صديقين..

أحياناً يتذكران تلك الحوادث ويضحكان وربّما ذكرا بعض الأطفال الذين فضلوا التمثيل في معسكر يزيد لقد كبروا وبعضهم انتسب إلى الاتحاد الوطني للطلبة وهو واجهة من واجهات حزب البعث لقد اختارا معسكر يزيد مرّة أخرى...

يبدو أن الحياة مسرح كبير يمثل فيه الإنسان دوره ويمضي وهكذا تتعاقب فصول التاريخ الإنساني.

نهض حسام لدى اقتراب خليل وتصافحا بحرارة وكأنّهما لم يتلاقيا منذ مدّة...

كان خليل متحمساً لقراءة قصيدة شاعر عراقي يقال أنّه من أهالي البصرة ويقيم في الكويت والقصيدة منشورة فى جريدة القبس وكان حسام فى لهفة لسماعها فالمرء احياناً يود أن ينفّس عما يعتمل فى أعماقه من خلال صرخة رفض يسمعها من آخر.

تحت عنوان لافتة: أين المفر؟

المرء في أوطاننا

معتقل في جلده

منذ الصغر

وتحت كل قطرة من دمه

مختبئٌ كلب اشر

بصماته لها صور

انفاسه لها صور

احلامه لها صور

المرء فى أوطاننا

ليس سوى اضبارة

غلافها جلد بشر

اين المفر؟

أوطاننا قيامة

لا تحتوي غير سقر

والمرء فيها مذنب

وذنبه لا يغتفر

إذا احسّ أو شعر

يشنقه الوالي: قضاءً وقدر

إذا نظر تدهسه سيارة القصر

قضاءً وقدر

إذا شكا

يوضع فى شرابه سم

قضاءً وقدر

لا درب.. كلا لا وزر

ليس من الموت مفر

يا ربنا

لا تلم الميّت فى أوطاننا إذا انتحر

فكل شيء عندنا مؤمم

حتى القضاء والقدر

أين المفر؟!

ضحك حسام بمرارة وتذكر حادثة وقعت منذ سنوات طويلة عندما زار فى صباه مع أسرته أقارب لهم فى مدينة الثورة كانوا نائمين وكان الوقت بعد منتصف الليل اذ بصوت يشق سكينة الليل ويوقظ النيام فى الازقة المجاورة كان رجل يصيح:

ـ الله أكبر أين المفر؟! الله أكبر أين المفر؟!

وقد استيقظ كثيرون وخرجوا إلى الزقاق حيث شوهد رجل على أعتاب الأربعين يرتدي دشداشة وبيده ابريق وهو يركض هائماً على وجهه ويصيح: الله اكبر أين المفر؟

وعاد الذين هبوا من رقادهم يخبر بعضهم بعضاً:

ـ هذا ناشور رجل وحيدة العورة!

وظهر أن الرجل تضطهده زوجته وقد طفح به الكيل في تلك الليلة الصيفية فخرج من داره وبيده ابريق الماء وهو يطلق صرخة الاستغاثة وسمعت ضحكات المتندرين في تلك الليلة ثمّ سرعان ما اطبقت سكينة الليل مرّة أخرى دون أن يهتم أحد بمصير ناشور في ذلك الليل البهيم: بعضهم قال حانقاً: الأغم شارد من مرته. ردّ آخر قائلاً: انت ما تعرف وحيدة العورة؛ عمّي زين عايش كل هاي السنين؟

قال ثالث: يمگير طلگها وخلّص روحك، هم عورة وهم عاگر.. من الله يطيح حظك

ضحك خليل من كل قلبه وتعجّب لذاكرة حسام قال:

ـ والله نقلتها صورة وصوت من هذي الساعة ابشرك انت مقبول بكلية الطب.

ضحكا معاً في فرح وراحا ينظران بشيء من الأمل إلى الأفق البعيد ثمة نافذة مفتوحة مشرعة وآمال خضراء وأحلام وردية تلوح من بعيد بالرغم

من تراكم الغيوم اشبه بقوس قـزح ملـوّن يرتـسم فى الـسماء بعـد عاصـفة ممطرة!

راحا يتمشيان على ضفتي الساقية بعكس التيار فوصلا إلى النهـر الـذي يطلق عليه فى لغة الناس "الشط".

قال حسام:

ـ قادتنا الساقية إلى الشط والـشط يقودنـا إلى النهـر والنهـر يأخـذنا إلى المنابع.

أما خليل فقد سرح خياله بعيداً إلى البحر حيـث يتجـه الفـرات جنوبـاً فيعانق دجلة فى القرنة ومن هناك يسافران معاً عبر شط العرب إلى الخلـيج لهذا قال:

ـ عندما يخطر في بالي ذكر الخليج اتصور السياب جالـساً عـلى شـواطئه الرملية وينشد قصيدته «غريب على الخليج»

وعلى الرمال على الخليج
جلس الغريب يسرّح البصر المحيّر في الخليج
ويهدّ أعمدة الضياء بما يصعّد من نشيج
أعلى من العبّاب يهدر رغوه ومن الضجيج
صوت تفجر في قرارة نفسي الثكلى: عراق
كالمدّ يصعد كالسحابة كالدموع إلى العيون

الريح تصرخ بي عراق

والموج يعول بي عراق عراق ليس سوى عراق

قال حسام:

ـ من زمان وأنت تحب الشعر والأدب لكن اخترت الفرع العلمي؟!

قال خليل وهو ينظر إلى الأفق الغربي وكانت الشمس قد لامست خط المغيب:

ـ أنا أحب الفرع الأدبي ولكن والدي وحتى والدتي اصرّوا عليّ اختار الفرع العلمي.

ـ كل الآباء يحبون أن يصبح أولادهم أطباء ومهندسين.

قال خليل وهو يبتسم:

ـ قال لي والدي: بويه اريدك تصير دكتور مهندس محامي . لما اخبرته أنّه بالفرع الأدبي يمكن أن أصبح محامي قال: لا بويه لو دكتور لو مهندس بطّلت محامي لا تصير!

ضحكا معاً.

وعندما اصبحا قريبين من الدور قال حسام لصديقه وهو يودعه:

ـ اشوفك بالجامع.

* * *

دجلة ـ 8

في ذلك الاصيل الحالم على ضفاف دجلة جلس أبو ميسون وحيداً يسرّح بصره فوق المياه الغرينية وهي تمضي في طريقها هادئة إلى الخليج وإلى والمحيط إلى اللانهاية كان مهموماً في ذلك اليوم الخريفي من سنة ٧٨ وكان ما يضاعف همّه أنّه لا يعرف سبباً لمشاعر حزن تنبعث في أعماقه..

لأول مرّه ربما منذ سنوات يتصل بزوجته ويخبرها بأنّه لن يعود ظهراً كان فيما مضى يذهب إلى منزل أخيه عندما يجد نفسه مهموماً ولكن أخاه ذهب إلى اليمن حتى أنّه نسي أن يستسفر إلى أي اليمنين سيسافر لقد حدس بعدها أنّه ذهب إلى الشمالي ثم أكدت رسالة أخيه اليتيمة ذلك. لكنه فضل أن يذكر الاسم التاريخي "اليمن السعيد" وكانت الصورة إلى ارسلها أخوه وهو واقف بالقرب من آثار مملكة سبأ البائدة توحي بأن أخاه قد نجا من السجن الكبير لقد حوّل البعثيون العراق إلى جحيم لا يطاق..

كان يتساءل فى أعماقه إلى أين يسار بهذا البلد الكريم.. عشر سنوات مرّت وكأنّها عشرة قرون اختفت أشياء كثيرة حلوة ... غابت بعض مظاهر

ليالي رمضان الحالمة لم يعد منبر مسجد الهاشـمي في الكاظميـة يـشهد تلـك الليالي المفعمة بالجمال وكلمات الشيخ الوائلي لقد ذهب الرجل واختفـى في مكان ما من العالم العربي وأقفر جامع الخلاني من تلـك الليـالي الرمـضانية الموحية. في كل يوم تزداد شراسة النظام وفي كل يوم تزداد شخـصية الفـرد العراقي تعقيداً خاصّة ملايين المسحوقين، فكانت انتفاضة صفر وحوادث الأربعين في العام الماضي هي أول اختبار للتصادم بين إرادتـين إرادة نظـام مدجج بكل وسائل التعذيب والبطش وإرادة شعب أعزل إلّا مـن جـذوة إيمان تتقد بصمت وبصيص آمال تومض كنجوم في أغوارها الـسحيقة ... منذ سنوات ظهرت قصص بنت الهدى فشهدت إقبالاً واسعاً من الناس.

كان أبو ميسون يحرص على شراء كل ما يصدر عن شقيقة السيد الصدر اشترى «الفضيلة تنتصر» و«الخالة الضائعة» و«امرأتـان ورجـل» و«صراع من واقع الحياة» «ليتني كنت علم» و«الباحثة عـن الحقيقـة» وحتـى كتابهـا «ذكريات على تلال مكة».

كانت ابنته ميسون تلتهم كتبها إلتهاماً وهذا ما دفع بوالدها إلى أن يتابع اصدارات هذه الكاتبة واقتنائها وكان هو أيضاً يقرأها.

وكانت ميسون تحفظ بعض المقاطع التي تتأثر بها وربما خطتهـا فى دفـتر من دفاترها المدرسية وكانت تتغنى بهذا المقطع الذي جاء عـلى لـسان أحـد أبطال قصص بنت الهدى:

ـ ما الدنيا إلّا ساعة شوق إلى لقائك وما الحياة إلّا ممر إلى فنائك وما العمر إلّا لحظات كفاح من أجلك وفي سبيلك. فاجعل حياتي يا ربّ كلمة رضا واجعل روحي يا سيدي خفقة أمل ورجاء.

وكان أبو ميسون يشعر بالرضا وهو يرى ابنته تستغرق في قراءة هذه الكتب التى تغذيها بالقيم الإنسانية والاخلاقية وتحصّنها من مخاطر ما يبث من خلال التلفزيون من مسلسلات تخدش الذوق الاخلاقي وتفسد قيم المجتمع.

وكان أبو ميسون يشعر بالمتعة فى قراءتها عندما يشهد عبر قصصها هزيمة القيم الاجتماعية الفاسدة وانتصار الفضيلة.

صحيح أن قصصها لا تمت بصلة إلى الواقع إلّا أنّها تعبّر عن الحقيقة التي يراد لها التغييب والموت.

لقد كان الاقبال الواسع على اقتناء هذه القصص يعبر عن ظمأ المجتمع فى بحثه عن هوّيته لقد كان القراء فيما يبدو يبحثون عن مجتمع ضائع وهوية مفقودة.

وقد كتبت بنت الهدى فى مقدمة أحد كتبها أنّها تهدف من وراء هذه القصص إلى إحياء جهاز إعلامي صامت فى هذا المنعطف الخطير من حياة الشعب العراقي.

كانت ميسون وعشرات الفتيات من جيلها يتشرّبن القيم الأخلاقية

وكن يستلهمن أبطال تلك القصص فكانت شخصية (نقاء) في الفضيلة تنتصر، قوية حيّة تنبض بالحياة.

أصبحت ميسون فتاة ناضجة تشع عيناها بالفضيلة وكان جمالها الانثوي منصهراً بجمال روحها النقية حتى أن من يراها يحسبها حورية قدمت من عالم مفعم بالنقاء والطهر والفضيلة.

كان أبو ميسون عندما ينظر إليها يشعر بالفرحة والأمل وكان يحس بأن همومه تتبدد، يكفي أن تبتسم له فإذا بقلبه تغمره أشعة شمس تضيء نفسه وتشعره بالدفء.

كانت عيناها نافذتين تطلان على عالم تغمره الأنوار... أحياناً كان والدها يرنو إلى عينيها ويهمس في داخله: حقا ما تقوله خالتها: ميسون حورية!

كان خريف سنة ٧٨ حزيناً جداً وكانت أمطاره تشبه دموع أم جنوبية فقدت ابنها فى حرب الشمال.

وظهرت فى تلك الفترة قصيدة حسينية ربما على خلفية ما حصل في العام الماضي من صِدام مع زوار الإمام الحسين ووسائل القمع التي انتهجها البعثيون ضد المواكب التي كانت تتجه نحو كربلاء.

ولو قدّر لإنسان أن يراقب مئات الالوف وهي تقطع المسافات الطويلة مشياً على الأقدام لامتلأت نفسه بالرهبة لهؤلاء الحفاة من العاشقين الذين

توهجت في أعماقهم شعلة اسمها الحسين وكربلاء ملحمة تحمل اسم عاشوراء.

الله وحده يعلم ما يلاقي هؤلاء من قهر واضطهاد واعتقال وتعذيب .

في تلك الظروف العصيبة ظهرت تلك القصيدة التي أضحت بسرعة نشيد الملايين، كان صوت القارىء الحسيني ياسين الرميثي الذي ألقاها في مكان ما ولحظة ما، مشحوناً بكل ما يواجهه ملايين الناس المقهورين منذ قرون:

ـ يا حسين بضمايرنا

صحنا بيك امنا

لا صيحة عواطف هاي

لا دعوى ومجرّد راي

هذي من مبادئنا

صحنا بيك آمنا

بتكوين البشر يا حسين

متساوين نوعية ...

گال اللي يزور حسين

من ايده ينگطع چفه

انطينا چفوفنا بالحال

وإجينا نزورك بلهفة

وقد طار صيت هذه القصيدة فكان الجميع يبحث عنها حتى أصحاب التسجيلات الذين كانوا يهتمون بتسجيل الأغاني اشتركوا فى توزيعها سرّاً طمعاً بالربح وكان أبو ميسون قد عرف كيف يحصل على شريط كاسيت فقد كلّف أحد معارفه فى شارع المتنى بأن يحصل على نسخة من القصيدة الخالدة. وسرعان ما حصل على شريط كاسيت فدسه في جيبه.

كان في طريق عودته إلى المنزل؛ السماء تنث مطراً ناعماً دس أبو ميسون شريط الكاسيت فى مسجل السيارة فانطلق صوت حزين لكنه مشحون بالتضحيات والإباء، منقوعاً بالدماء مليئاً بالقهر.

أي قدر يعصف بهذا البلد؟ وإلى اين يسار بهذا الشعب؟! من أين جاء هؤلاء؟ من اين جاء هؤلاء الأغراب، من أين جاءوا بكل هذه القسوة والوحشية والهمجية حقاً نفيت واستوطن الأغراب في وطني ودمروا كل أشيائي الحبيبات . أصحيح أن من يذق لحم إنسان يتحول إلى ذئب؟

لماذ يحاربون الحسين، هل يشعرون بالخطر وهم يرون مواكب الزوار تتدفق لزيارته؟!

انحدرت دمعتان وتزحلقتا فوق خديه وكانت قطرات المطر تتزحلق فوق زجاج السيارة وهي تشق طريقها على هون.

أغلق مسجل السيارة واستخرج الكاسيت وأعاده إلى جيبه. انطلق صوت الراديو..

ـ مونت كارلو موناكو... مالبورو...

يمتطي صهوة جواده وينطلق فى البراري..

بانو راما...

آية الله الخميني يصل العاصمة باريس ويختار ضاحية نوفل لوشاتو...

وفي تصريح له قال الخميني أنّه سوف ينتقل من مطار إلى مطار ويقود الثورة لاسقاط الشاه...

كان أبو ميسون قد بدأ ينشدّ إلى سماع ما يجري فى إيران.

كل العراقين فى تلك الفتره كانوا مشدودين إلى أخبار المسيرات المليونية المناهضة لنظام الشاه...

انتقل بالموجة إلى اذاعة لندن فجاء خبر عن استمرار اختفاء الإمام موسى الصدر وتأكيد الحكومة الايطالية على نفي وصوله إلى روما قادماً من ليبيا.

الشيخ محمد مهدي شمس الدين ما يزال يجري اتصالات مع جهات عربية رسمية حول الموضوع.

عبرت السيارة الجسر المؤدي إلى الكاظمية ولاحت له المنائر والقباب البهية .. أن موسى بن جعفر كان سجيناً فى اقبية حاكم بغداد ثم اغتيل ووضع جثمانه فوق هذا الجسر واندثر جلاده إلى الأبد في حين شقت منائر السجين الشهيد تراب القبر لتعلو في الفضاء وتصبح كعبة يقصدها الناس الطيبيون..

عرج بسيارته إلى محلّة قرب الجسر حيث بيت خالة ميسون كانت قطرات المطر ما تزال تساقط بهدوء عندما دلف إلى المنزل..

ابتسمت ميسون جذلة برؤية والدها، كم تحبّه؟ الله وحده هو الذي يراقب الاعماق... يراقب العواطف وهي تمور..

شعر أبو ميسون بالنور يشرق على قلبه وهو يرى ابنته سعيدة راضية.

يشع من عينيها النجلاوين نور هو انعكاسات لمرايا صافية.. إنها الآن قد دخلت فى ربيعها الخامس عشر تنطلق إلى المستقبل بكل أمل وشوق تشرق البسمة فى عينيها وتطوف فيهما أحلام وردية وأمان خضراء.

الفرات ـ 10

بدأ العالم كلّه يتابع ما يجري في إيران خاصّة بعد انطلاق المسيرات والمظاهرات المليونية التي عمت المدن الكبرى فى إيران وكانت الحكومات التي حاول الشاه من خلالها معالجة البركان الذي تنبأ بانفجاره هيكل تتهاوى وبدأ نظام الشاه يترنح.. واستمرت الدماء بالتدفق فى شوارع العاصمة لكن شعار الشعب الإيراني ظل يدوي الله اكبر خميني رهبر.. مرگ بر شاه مرگ بر شاه!

وكانت بيانات الامام روح الله الموسوي الخميني تنطلق من باريس وتصبّ حممها على النظام الشاهنشاهي الغاشم حتى وصفها هيكل بمقولته الشهيرة مدافع آية الله!

كان الجيش الإيراني قد احتل الشوارع وأطلقت الحكومة العسكرية تهديداتها بأنّها سوف تضرب بيد من حديد كلّ من يتجاوز قانون حظر التجوّل.

شهر محرم الحرام شهر الدم الكربلائي والاباء الحسيني وتصاعد غليان العروق..

وظهرت المرأة الإيرانية كأقوى ما تكـون.. وصـدر بيـان للامـام بـأنّ الشعب الإيراني سوف يواصل نهج الحسين وأنّه سـوف يـدفن بتـضحياته السلالة البهلوية.

كل الشعب العراقي كان يتابع بحماس الفـصول المثـيرة لأكـبر ملحمـة شعبية فى العصر الحديث.

كل شبان العراق من الذين قدّر لهم أن يـشهدوا هـذه الحادثـة الكـبرى كانوا مأخذوين بالمشهد الإيراني حيث ظهر شيخ وقور نافذ العينـين يـضع على رأسه عمامة سوداء ينتسب إلى سلالة طاهرة فهو ابن الحسين حفيد علي وابن رسول الله ظهر هذا الرجل ليقود ثورة كبرى هي اكبر ثورة في تـاريخ البشرية الحديث.

وظهرت خلفه الملايين التي كانت تعشقه حتى الموت فكأنّه يحمل فأس إبراهيم ويعتلى صهوة ذي الجناح.. وبيده سيف ذي الفقار.. كل المقهورين الذين قدر لهم أن يداسوا بأحذية البعثيين راحوا يتطلعون بأمل إلى ما يجري من ملحمة...

وتألقت إذاعة مونت كارلو حتى الدعايات التى تسبق بانوراما حفظهـا الشباب الفتي وكتبت الصحافة العالمية أنّ الشاه إذا عبر شهر محـرم بـسلام فقد ينجو نظامه من خطر السقوط.

وحبس الجميع أنفاسهم وكان العالم بـأسره يراقـب مـا يجـري ووقـف

التاريخ حائراً أمام منعطف مثير من مسار الحياة الإنسانية.

الذين تسنّى لهم رؤية ذلك الشيخ الوقور بعينه النافذتين وسكينته رأوا هالة من النور تغمر محياه وطاقة روحية تشع منه لم تمنعها أو تحدّها شاشات التلفاز ... سرّ ما يكمن في شخصية هذا الرجل الذي ظهر على قدر !

إن الجيل الذي عاصر ما يجري في أرض الجوار وبخاصّة الشباب العراقي في الوسط والجنوب ومدينة الثورة شعر أن آية الله الخميني ما هو إلّا أحد الذين كانوا مع النبي محمد وعلي والحسين إنه قادم من أرض كربلاء من يوم عاشوراء..

جاء ليثأر من أجل كرامة الإنسان وتحريره من عبودية الطغاة وانظمة القمع.. إنّه وبكلمة واحدة الأمل الذي انبثقت حروفه من الألم.

وبدأت بشائر النصر تلوح في الأفق.. لقد فرّ الشاه وتخلّى عن عرش الطاووس بحجة السفر لتلقي العلاج! إنّ شمس الانتصار قد بزغت بالرغم من كثافة الغيوم.

كانت الثلوج تنهمر في طهران والجماهير ما تزال تجوب الشوارع تنادي بالثورة وقد اخذت شكل الاحتفالات بعد رحيل الشاه كان ذلك في ١٦ كانون الثاني ٧٩.

واتجهت أنظار العالم إلى الإمام الخميني الذي أعلن أنّه يستعد للعودة إلى الوطن مطالباً نوّاب البرلمان الذين لم ينتخبهم الشعب بالانسحاب إلى

أن تجري انتخابات حرّة حقيقية.

وفي يوم ٢٧ كانون الثاني خرجت المسيرة الكبرى في طهران لتكون ايذاناً بسقوط حكومة بختيار.

وتسارعت الأحداث بشكل مثير. ثمّ اعلن أنّ طائرة فرنسية سوف تقل الإمام الخميني من باريس إلى طهران . وراح العراقيون يتفننون فى التقاط تلفزيون طهران لأول مرّة وأخيراً رأى الملايين صوراً تلفزيونية تتضح وتتشوش، وظهر الرجل العظيم جالساً في أحد مقاعد طائرة جامبو فرنسية تغمره السكينة بينما تناقلت وكالات الأنباء أن شاهبور بختيار قد يأمر باغلاق مطار طهران واحتمالات أن يتم إسقاطها من قبل سلاح الجو الإيراني.

وعندما وضع قدميه في أرض الوطن وجد أكثر من ثمانية ملايين إيراني في استقباله، واتجه موكبه إلى مقبرة جنّة الزهراء ليلقي خطابه التاريخي الذي جاء فيه: أنا الذي يعين الحكومات في هذا البلد.

وفي هذه اللحظة التاريخية ولدت ظاهرة التكبير: الله اكبر الله اكبر التي راحت تدوّي في سماء إيران.

لقد كانت الكلمات أعظم من أن تواجه بالتصفيق كما هو المعتاد، فانطلقت حنجرة مؤمنة بهذا الهتاف الثوري الجديد!

وراح التلفزيون الإيراني ينقل بشكل حيّ وقائع اليوم الخالد انقطع البث فجأة وظهرت صورة الشاه وبث السلام الملكي.

وهكذا بدأت الأيام العشرة التي هزت العالم، واعلن عن تشكيل حكومة موقته انتقالية.

وتفاقمت الأوضاع ولا أحد يعرف ما الذي سيحصل.

دفعت حكومة بختيار بالدبابات واقلعت الطائرات العمودية لإرهاب الشعب وأعلن عن منع التجول ابتداء من الساعة الرابعة والنصف.

لكن الإمام أحبط ذلك وأصدر تعليماته إلى الجماهير ألّا تغادر الشوارع أبداً وفشلت أنواع الأسلحة فى قمع الشعب الثائر وتحولت طهران إلى ساحات للقتال واقيمت المتاريس في كل مكان وفي الرابعة فجراً شنّت دبابات الحرس الملكي هجوماً على معسكر القوة الجوية واندفع الشعب لحماية المعسكر الذي قرر الانضمام إلى الشعب.

وفتحت بعض المعسكرات مشاجب السلاح للشعب وراحت معسكرات الشرطة والجيش تسقط بأيدي الثائرين، وفي يوم ١١ شباط تهاوى عرش الطاغية إلى الأبد وفجأة بدأ القسم العربي في راديو طهران يبث أناشيد حماسية بالفارسية ثم يعلن بلسان عربي مبين .

ـ هنا طهران صوت الثورة الإسلامية في إيران .

وتدفق العراقيون إلى الشارع وكان بعضهم يبكى فرحاً وأحياناً ترى السماء تمطر الچكليت حتى بعض البعثيين خرجوا إلى الشوارع في مدينة الثورة، لقد كان عرساً عظيماً للشعب العراقي المقهور.

من أين جاء هذا الفرح؟ ما الذي جعل الناس تخرج إلى الشوارع والأزقة لتبادل التهاني؟!

ما الذي يعنيه إليهم هذا الشيخ الوقور؟ ما الذي رأوا فيه ؟!

وبدأت أمواج الأثير تحمل تصريحات ذات دلالة: موشي دايان وزير دفاع إسرائيل: ما حدث فى إيران زلزال سوف تصلنا هزاته بعد قليل!

ميتران الرئيس الفرنسي: الثورة الإيرانية رصاصة انطلقت من عمق التاريخ لتستقر في القرن العشرين.

وظهرت إيران الجديدة وقد تطهرت من أدران الماضي من العمالة لأمريكا واسرائيل فإذا هي تعلن بملء الفم انها تعتبر نفسها اليوم دولة من دول المواجهة مع إسرائيل!

الفلسطينيون يبتهجون بالانتصار وياسر عرفات يطير إلى طهران وتدمع عيناه عندما يشاهد طائرتي فانتوم في استقباله جوّاً ويقول:

ـ هذه أول مرّة أشاهد فيها طائرة فانتوم صديقة!

وفي العراق سيطرت حالة من الوجوم وبدأ الناس يشعرون بأن أشياء ما تجري في الخفاء، فالحلقات الحزبية التي اهتزت يوم انتصار الثورة في إيران بدأت تستعيد قبضتها وشيئاً فشيئاً بدأ حزب البعث يفصح عن نواياه تجاه ما يجري في أرض الجوار. ترى ما الذي تخبئه الأقدار؟!

الفرات ـ 11

كانت الخضرة تغمر الرفاعي وبخاصّة الشط بأبهى حلّة، وقد بدأ حسام وهو يتمشى ذلك الضحى أسعد شاب في الرفاعي وهكذا تمّ قبوله في كليّة الطب في جامعة بغداد وتحققت أمنيته.. فقد أثمرت ليالي السهر فكان الاوّل في امتحانات البكالوريا في مدارس الناصرية، إن المستقبل يفتح له نافذة ملوّنة.

غمرت الفرحة ذلك البيت القريب من الشط وكان الأب أكثر سعادة وتفاؤلاً سوف يبتعد ابنه عن الرفاعي سوف ينصهر في مجتمع جديد ويتفرغ للدراسة ليصبح طبيباً، بعكس والدته التي كانت تمتزج دغدغات الفرحة في قلبها مع هواجس فراق ابنها البكر فكانت ثمة دموع تتألق في عينيها لا يعرف هل هي دموع الفرح أم دموع فراق وشيك؟ فيما كانت اخته أنعام قد بدأت تدعوه دكتور حسام وكان يبتسم لها وغمرت الفرحة اخته الصغيرة وأخاه وكانا يحبانه ربما أكثر من أبيهما ولم يكن يغيظ ذلك أباه فقد كان يدرك في قرارة نفسه أن ابنه يشعر بالمسؤولية وقد كبر بسرعة وكان

يحترمه ويخشى عليه عاديات الزمن.

وفي الغروب كان حسام يفكر بلقاء الشيخ ابو محمد في المسجد لكنه لم يأت وقد مرّت أسابيع وانتابته هواجس.

عندما فرغ من صلاة العشاء حانت منه التفاته فرأى وجهاً غريباً لم يكن مألوفاً فشعر تجاهه بالريبة لم تكن نظرات ذلك الغريب مريحة فقد كانت عيناه أشبه بالعيون الزجاجية وكان يختلس النظر إلى الشبان فقط.

شعر بالانقباض وغادر المسجد بمجرد أن فرغ من الصلاة اتجه إلى منزل الشيخ وضغط على زر الجرس ولكن دون جدوى ظل الباب مغلقاً فاتجه إلى منزل صديقه خليل وطرق الباب وراح ينتظر، سمع أصداء خطى قادمة وفتح الباب ليرى شقيق الصديق ليقول له بكلمات مقتضبة وجادة؛ خليل ما موجود...

واستغرب حسام أنّه لم يدعه إلى الدخول فعاد أدراجه إلى البيت...

كانت الأم تعد مائدة العشاء وقد لاحظت ابنتها أنها كانت تكثر من طبخ الأكلات التي يحبها حسام وكانت في داخلها تبتسم لهذا راحت تضيف إلى لقب الدكتور لقباً آخر المدلل. لم يسأل عن والده فقد أصبح من رواد المقهى في الأيام الاخيرة في البداية استهواه التلفزيون الملوّن الذي دخل المقهى لأوّل مرّة ثمّ وجد فيها بعد متعة في الجلوس وتبادل الأحاديث أو الاصغاء لما يدور من نقاش أحياناً وكان بعض الشيوعيين قد بدأوا ينشطون.

عاد أبو حسام إلى البيت متأخراً على غير عادته ولم تكن ليلة جمعة حيث كان يسمر في بيت أحد المعارف أو الأصدقاء.. كان وجهه خال من أي تعبير وكان ينفث دخان سيجارة من النوع الرخيص.

رمى بعقب السيجارة وراح يتمتم بشيء من الحنق: أيام المزبن گظن دگظن يا أيام اللف!

وتناول أبو حسام عشاءه وحيداً كان مستغرقاً في صمت عميق التفت إلى ابنه الذي جلس بالقرب من أخته يشرح لها بهدوء أحد الدروس قال الأب:

ـ وين صلّيت بويه؟

ـ بالجامع.

ـ متى تروح لبغداد؟

نظر حسام إلى أبيه محاولاً اكتشاف سرّ هذه الأسئلة وقال:

ـ هذا الأسبوع.

أرادت أنعام أن تكسر هذا الجوّ فقالت لأخيها:

ـ أنتم السابقون ونحن اللاحقون.

نظرت الأم نظرة طويلة إلى ابنتها وهزّت رأسها بأسف قال حسام:

ـ يمّه قصدها راح تكمل دراستها ببغداد.

قالت الأم:

ـ أعرف يمّه بس هي بالخامس أدبي وهالتشوف دراستها!

عرف حسام أن أخته سوف تتألم فقال:

ـ الجامعات تخرج أطباء وأدباء.

تدخل الأب فقال:

ـ يا أم حسام هي كفرت؟ ليش هي قرت الفاتحة؟

قالت أم حسام:

ـ اجه يكحله عماها!

قال حسام:

ـ احسن شي نرجع لدرسنا.

وساد صمت حتى أن أزيز ابريق الشاي قد سمع صوته وفي الأثناء تناهى صوت طرقات على الباب!

تبادل الجميع نظرات متسائلة نهض حسام وعندما فتح الباب أصبح وجهاً لوجه أمام صديقه خليل فدعاه إلى الدخول وتبادل الصديقان بضعة كلمات وجاء حسام ليستأذن والده في الخروج قال الأب:

ـ خير انشاء الله؟!

ـ ماكو شي ساعة وارجع..

سألت الأم:

ـ وين يمّه؟!

أجاب وهو ينظر إلى أمّه بحب:

ـ هذا خليل نتمشى شوية.

ـ لا تبطي.

لم تفوّت أنعام الفرصة فقالت:

ـ يمكن حالة طارئة استئصال غدة سرطانية.

ضحك حسام وهو يغلق الباب وراءه.

وفي نهاية الزقاق المؤدي إلى الشط فوجئ حسام بخليل يقول له:

ـ كنت في البيت عندما طرقت الباب.

ـ لماذا لم تخرج اذن؟!

ـ لأن أخي منعني من اللقاء بك!

ـ لماذا؟

ـ ومنعني من الصلاة في المسجد.

ـ الوالد أيضاً سألني بدون سابق انذار بعدك تصلي بالمسجد!

ـ لنذهب إلى بيت الشيخ ابو محمد.

ـ لا أحد في البيت!

ـ الشيخ موجود وينتظرك.

شعر حسام بأن أموراً تحصل وهو منشغل في قضية أخرى.

طرق خليل الباب طرقات خفيفة وانتظر.. ومرّت لحظات ثم فتح الباب وظهر وجه الشيخ باسماً بالرغم من أنّه يخفي شيئاً من القلق.

وبعد أن استقر بهم المجلس قدّم الشيخ تبريكه على قبوله في كلية الطب واخبره بأنّه سيتصل به في بغداد فيما بعد.

وانتقل الشيخ إلى الموضوع من غير مقدمة وقال أنّ السيد الصدر اعتقل فجر أمس واقتيد إلى بغداد وقد حدثت ردود فعل قوية في النجف أثر خطاب ألقته أخته العلوية بنت الهدى وقد أفرج عنه وعاد إلى منزله في النجف والمطلوب هو التوجه إلى زيارته على شكل وفود لتعكس لحكومة البعث مدى شعبية السيد وحب الناس له.

وقد بدأت المواجهة ضد النظام؛ فالسيد الصدر أصدر فتوى بحرمة الصلاة خلف أئمة الجوامع الذين لا يملكون وكالة شرعية من المرجعية في النجف. والأخطر من هذا أنّ السيد الصدر أفتى أيضاً بحرمة الانتماء إلى حزب البعث.

نظر حسام إلى صديقه خليل نظرة أودعها من العزم والشجاعة ما ظهر في نبرة كلامه:

ـ انا مستعد في أي وقت.

ابتسم الشيخ ابو محمد لشهامته:

ـ بارك الله فيك، أستطيع أن أخبركم بأنّ السيد الصدر يعتز بكم وينظر اليكم بأمل أن مستقبل البلد يتوقف على إرادة الشباب من أبناء العراق.

الفرات ـ 12

اشترى حسام راديو ترانسزتر صغير الحجم ولم يفاجئه السعر فقد ارتفعت أسعار هذه الأجهزة منذ غليان الثورة في إيران وظلت في صعود بعد تفعيل القسم العربي بإذاعة طهران وأصبحت هذه العبارة: (هنا طهران صوت الثورة الإسلامية في إيران) بمثابة بلسم للجراح وبوابة أمل وحتى مع بدء التشويش فقد كان الكثيرون من أبناء العراق يتفننون بالتقاط هذه الإذاعة.

قبل منتصف الليل كان حسام يطوف العالم عبر هذا الجهاز الصغير من على سطح الدار استمع إلى عدّة إذاعات ثمّ نظر إلى ساعته وانتقل إلى موجة كان قد حددها من قبل وظهر صوت رنين تزاحمه امواج تشويش تعلو وتدنو. كانت ليلة صيفية السماء مرصعة بالنجوم وقد ظهر القمر المثلوم بهياً وجاء الصوت: هنا طهران صورت الثورة الإسلامية في ... بعث الإمام... قائد الثورة... سماحة... باقر الصدر هذا نصه... الحاج السيد محمد باقر... بركاته.

علمنا... سماحتكم مغادرة العراق ... بعض الحوادث... مغادرة النجف الأشرف... وانني قلق من هذا الامر آمل... وبركاته روح الله الموسوي الخميني...

السيد محمد باقر... برقية جوابية هذا نصها: سماحة آية الله... الامام ... السيد... الخميني دام ظله

تلقيت برقيتكم الكريمة...

كما اشعر بعمق المسؤولية... وأود أن أعبر لكم بهذه المناسبة عن تحيات الملايين من المسلمين والمؤمنين ... في عراقنا العزيز الذي وجد في نور الإسلام... من جديد ... طاقة روحية لضرب المستعمر والاستعمار الإمريكي ولتحرير العالم من كل أشكاله الإجرامية وفي مقدّمتها جريمة اغتصاب ارضنا المقدسة فلسطين... الخامس من الهجرة... محمد باقر الصدر... هذا وكانت قد تسربت أنباء حول نيّة السيد... باقر الصدر في العراق ..

وفي مساء اليوم التالي ذهب حسام إلى الجامع كان يود لقاء الشيخ أبو محمد فلم يجده لكنه وجد خليل فاقترح عليه الذهاب إلى منزله فقال خليل:

ـ سافر الشيخ إلى النجف لكنه سيعود قريباً.

انطلقا صوب الشط وجلسا في مكان معشب كانت النسائم تحمل عبق الفرات.

وكان واضحاً من خلال حديثهما انهما يشعران بالفخار والحماس فقد ظهر السيّد الصدر ليقود المواجهة مع النظام وهذه هي البداية..

واتفقا على السفر إلى النجف فجراً.

وفي صباح اليوم التالي لم يصدّقا انهما في السيارة وهي تنهب الطريق نحو مدينة النجف الأشرف...

وفي الضحى وصلا إلى المدينة كانت الشوارع مزدحمة إلى حدما وكلما اقتربا من منزل السيد الصدر كان الازدحام يزداد واكتظ سوق العمارة بالوافدين.

وفي الزقاق الذي يوجد فيه منزل السيد الصدر كانت الهاتافات تدوي والحناجر تصدح بلا خوف: «باسم الخميني والصدر الإسلام دوماً منتصر»، «عاش عاش الصدر والدين دوماً منتصر».

ولمحا الشيخ أبو محمد الذي ابتهج لقدومهما ها هما الآن في حضرة السيد الصدر وقد صادف دخولهما مع وفود قادمة من مدينة الثورة...

ورحب السيد بحضور الشباب الذين جاءوا ليعبروا عن ولائهم للاسلام...

ثم خاطبهم بنظرات ملؤها الحب قائلاً: أنّ الثورة ستنطلق من مدينة الثورة!

كان حسام قد بدا ذاهلاً عن نفسه مأخوذاً بمشهد هذا الإنسان العظيم

وكان كتابه فلسفتنا ثم اقتصادنا قد أصبح مثار فخر لكل من كانوا يوصمون بالرجعية، ها هو السيد الصدر يقارع الفكر الماركسي ويحطم صرح الشيوعية وينتقل بالفكر الإسلامي إلى قلب الصراع الفكري المحتدم.

كان حسام يودّ البقاء إلى ما لا نهاية ولكن ماذا يفعل والجموع الحاشدة تنتظر اللقاء بلهفة.

وعندما ودعا السيد لم ينس الشيخ أبو محمد أن يوصيهما لا تذهبا لوحدكما رجال الامن في كل مكان اذهبا مع أهالي الثورة وعندما تصبحان قريباً من السوق يمكنكما الذهاب إلى أي مكان.

لأوّل مرّة يرى حسام أصحاب العيون الزجاجية أن وجوههم الكالحة ونظراتهم تكشف عن همجيتهم ونذالتهم.. لكنهم الان يبدون عاجزين وقد اكتفوا بالتقاط عشرات الصور.

وعندما مرّا بالقرب من أحد المساجد سمعا أحد شباب مدينة الثورة يشير إليه ويقول: هنا كان الإمام الخميني يصلّي ويلقي محاضراته وعلّق آخر: ويقود الثورة...

وفي طريق العودة وفيما كانت السيّارة التي تقلّهم إلى الديار، راحا يتهامسان حول المستقبل في وطن حرّ وشعب آمن وحكم شريف.

وفي مساء اليوم التالي كان حسام أمام حدث كبير لم يكن ليخطر في بال

أحد، أن الشهيد الصدر يعلن الثورة، كان حسام في تلك الساعة من ليل العراق جالساً في سطح الدار كعادته ومعه هذه المرّة خليل وكان الراديو يبث بيان بصوت السيد الصدر ولم يتمكن التشويش من الحؤول دون سماع الكلمات الثائرة لرجل قرر المواجهة والثورة على نظام مدجج بكل أسلحة التعذيب والقتل.

ـ بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وصحبه الميامين.

أيّها الشعب العراقي المسلم!

إنّي أخاطبك، أيّها الشعب الأبي وأنا أشدّ الناس إيماناً بك وبروحك الكبيرة وبتاريخك المجيد، وأكثرهم اعتزازاً بما طفحت به قلوب أبنائك البررة من مشاعر الحب والولاء والبنوّة للمرجعيّة اذ تدفقوا إلى أبيهم يؤكدون ولاءهم للإسلام بنفوس ملؤها الغيرة والحمية والتقوى، يطلبون مني أن أظل إلى جانبهم أواسيهم وأعيش آلامهم عن قرب لأنّها آلامي.

وأنّي أودّ أن أؤكّد لك يا شعب آبائي واجدادي أني معك وفي أعماقك ولن اتخلّى عنك في محنتك، وسأبذل آخر قطرة من دمي في سبيل الله من أجلك...

وأودّ أن أؤكّد للمسؤولين ان هذا الكبت الذي فرض بقوّة الحديد والنار على الشعب العراقي فحرمه من أبسط حقوقه وحرّياته في ممارسة

شعائره الدينية لا يمكن أن يستمرّ ولا يمكن أن يعالج دائماً بالقوّة والقمع..

إنّ القوّة لو كانت علاجاً حاسماً دائماً لبقي الفراعنة والجبابرة .

أسقطوا الأذان من الاذاعة فصبرنا.

وأسقطوا صلاة الجمعة من الإذاعة فصبرنا.

وطوقوا شعائر الإمام الحسين عليه السلام ومنعوا القسم الاعظم منها فصبرنا .

وحاصروا المساجد وملاؤها أمناً وعيوناً وقاموا بحملات الإكراه على الانتماء إلى حزبهم فصبرنا...

وقالوا انّها فترة انتقال يجب تجنيد الشعب فيها فصبرنا.

ولكن إلى متى؟

إلى متى تستمر فترة الانتقال؟

إذا كانت فترة عشر سنين من الحكم لا تكفي لايجاد الجوّ المناسب لكي يختار الشعب العراقي طريقه فأي فتره تنتظرون لذلك؟

وإذا كانت فترة عشر سنين من الحكم المطلق لم تتح لكم أيها المسؤولون اقناع الناس بالانتماء إلى حزبكم إلا عن طريق الإكراه فماذا تأملون؟ وإذا كانت السلطة تريد أنّ تعرف الوجه الحقيقي للشعب العراقي فلتجمّد أجهزتها القمعية أسبوعاً واحداً فقط ولتسمح للناس بأنّ يعبّروا خلال

أسبوع عمّا يريدون.

إني أطالب باسمكم جميعاً أطالب بإطلاق حرّية الشعائر الدينية وشعائر الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

وأطالب باسمكم جميعاً بإعادة الأذان وصلاة الجمعة والشعائر الإسلامية إلى الاذاعة.

وأطالب باسمكم جميعاً بإيقاف حملات الإكراه على الانتساب إلى حزب البعث على كل المستويات.

وأطالب باسم كرامة الإنسان بالافراج عن المعتقلين بصورة تعسفية وايقاف الاعتقال الكيفي الذي يجري بصورة منفصلة عن القضاء.

وأخيراً أطالب باسمكم جميعاً باسم القيم التي تمثلونها بفسح المجال للشعب ليمارس بصورة حقيقية في تسيير شؤون البلاد وذلك عن طريق اجراء انتخاب حرّ ينبثق عنه مجلس يمثل الأمة تمثيلا صادقاً..

وإني أعلم أنّ هذه الطلبات سوف تكلّفي غالياً وقد تكلّفني حياتي ولكن هذه الطلبات ليست طلب فرد لتموت بموته وإنّما هذه الطلبات هي مشاعر أمّة وإرادة أمّة ولا يمكن أن تموت أمّة تعيش في أعماقها روح محمد وعلي والصفوة من آل محمد وأصحابه...

وإذا لم تستجب السلطة لهذه الطلبات فإني أدعو أبناء الشعب العراقي الأبي إلى المواصلة في حمل هذه الطلبات مهما كلّفه ذلك من ثمن...

لأنّ هذا دفاع عن النفس وعن الكرامة وعن الإسلام رسالة الله الخالدة والله ولي التوفيق.

عشرين رجب ألف وثلاثمائة وتسع وتسعين، محمد باقر الصدر .

تبادل حسام وخليل نظرات صامته وبقيا ساكتين ترى ما الذي سيحدث غداً؟ وما الذي تخبئه الأيام؟!

دجلة- 9

أصبحت ميسون فتاة مكتملة النضوج من يراها يحسبها في الثامنة عشره فيما هي الآن في الرابعة عشرة من عمرها قوام ممشوق ووجه يضيء كالبـدر وعينان نجلاوان كنافذتين تنفتحان على عالم مفعم بالصفاء..

كانت تسابق شجرة البرتقال في حديقة منـزلهم في نموهـا وألقهـا وقـد ظهرت في شخصيتها نزعـة نحـو الـصمت فهـي قليلـة الكـلام غارقـة في تأملات تشبه الصلاة...

وبالرغم من نبوغها في دراستها إلّا إنّها اختارت الفرع الأدبي فقد كانت تعشق الأدب وبدأت تحاول نظم الشعر، إنها باختصار نقاء بطلـة الفـضيلة تنتصر تلك الفتاة التي قدمتها بنت الهدى شقيقة السيد الصدر إلى المجتمع، هل كانت ميسون تستلهم نقاء؟ لا أحد يـدري مـا يختلج في خيـال تلـك العذراء وهي تمضي في طريق الحياة.

انتبهت ميسون إلى أنّ والدها قد بدا في الأيـام الأخـيرة يتـابع الأخبـار بشكل غير عادي ويشتري بعض الـصحف لكنـه كـان يفـضل قراءتهـا في

المحلّ أو في مقهى ويحاول أنّ يتفرغ لاسرته لدى عودته من العمل.

وفي تلك الفترة بدأ التلفزيون يبث بعض المسلسلات الأجنبية بشكل غير طبيعي وبعضها فيه مشاهد تخدش الذوق الأخلاقي لهذا حرص أبو ميسون على ينظم فتحه في نشرة الأخبار أو بعض البرامج العلمية. وفي أمسية يوم ١٧ تموز سنة ٧٩ ظهر المذيع التلفزيوني ناطق حسن يسترعي انتباه المواطنين والمشاهدين وكان التلفزيون والراديو يبث أناشيد تمجد ثورة السابع عشر من تموز والشوارع مليئة باليافطات وهي تحيي وتهنئ القيادتين القومية والقطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي وفي غمرة هذا الصخب الاعلامي ظهر رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر يقدّم استقالته بسبب التعب ويسلم الراية إلى السيد النائب الرفيق صدام حسين.

كان أبو ميسون قدْ شعر بالخطر منذ أيام عندما قرأ خبر وصول وكيل وزارة الخارجية البريطانية حتى أنّه هتف دون ارادة من نفسه:

ـ يا ستار يا الله؟!

ولم يستطيع الرئيس العجوز أن يخفي مشاعره الحقيقية فثمة ما تنم به العيون وارتجاف الكلمات! إن وراء الاكمة ما وراءها! ولم تكد تمضي أيام حتى وقعت الواقعة فقد افتتح الرئيس المناضل الرفيق صدام حسين رئيس الجمهورية رئيس مجلس قيادة الثورة الامين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي حكمه الجديد بكشفه مؤامرة جديدة ضد الحزب والثورة

وتساقطت رؤوس كبيرة وبدأت حمامات الدم وظهر الوحش الذي لا يرتوي من الدماء.

ولم يزر النوم عيني أبو ميسون تلك الليلة... وعندما اغمض عينيه إذا بهما تنفتحان على عالم آخر غارق في الظلمات واذا به يرى الوحش وبيده ساطور واقفاً، وأمّا الناس فقد كانوا جميعاً نياماً حتى إذا استيقظ أحد النائمين هوى عليه بساطوره... ولمحه الوحش فتقدم إليه وقد شهر ساطوره وهوى الساطور... فهب من نومه وهو يتصبب عرقاً .

وتناهى إليه صوت أذان الفجر فنهض للوضوء في حديقة المنزل وحانت منه التفاتة فرأى ابنته مستغرقة في نوم حالم فلم يشأ ايقاظها لولا انّها كانت تلحّ على ذلك لتصلّي. لهذا همس بصوت خافت: ميسون! ميسون ابتسمت قبل أن تفتح عينيها..

ونهضت للصلاة وهي تفيض حيوية لكم يحبها وكانت مشاعره مزيج من الحب والحنان والاحترام.. احياناً يتساءل لماذا يحبها أكثر من بناته الاخريات!

هل لهذا صله بتدينها بنزعتها الروحية عندما أخذ اسرته إلى سلمان باك رأى في حقيبتها مصحفاً صغيراً وكتب صغيرة للدعاء وكانت تقضي أمسياتها في مرقد الإمام الكاظم حتى صديقاتها وزميلاتها في المدرسة يعرفن أين يجدنها إذا لم تكن موجودة في البيت.

واستغرقت ميسون في صلاتها وكان يحلو له وهو يراقبها عن كثب أنها حمامة السلام في هذا المنزل. الله سبحانه أودع في قلبها نبعاً من الحنان يمكنه أن يفيض على مدينة بأسرها أنّه لا ينسى أبداً ذلك الضحى الغائم عندما عادت من المرقد كانت السماء تنث مطراً خفيفاً وبدا واضحاً انّها مشت مسافةً طويلة ولأوّل مرّة يراها حزينة بل دامعة العين وقد امتزجت قطرات دموعها بقطرات المطر... وعزفت عن تناول الغداء وعندما استفسر عن السبب راحت تروي حكايتها مضمخة ببكائها:

كنت واقفة اقرأ زيارتي للإمام بالقرب من باب المراد واذا بأنين امرأة جنوبية يقطع القلب.. كانت المرأة تبكي ولديها اللذين اختفيا في حوادث الأربعين قبل سنتين لقد بحثت عنهما طويلاً وكل ما حصلت عليه انّهما معتقلين لكنها لا تدري اين؟! فهي تأتي يومياً من الثورة إلى الإمام السجين وتدعو الله أن يعيدهما إليها ويكحل عينيها برؤيتهما، أحدها في كليّة الطبّ والآخر في الهندسة.

تناول افطاره على مهل فلم تكن لديه رغبة في الذهاب مبكراً وأخبر زوجته أن لديه موعد ولن يعود إلى المنزل ظهراً كان قد قرر أن يمضي بعض الوقت في مقهى الشابندر في شارع المتنبي.

ترك سيارته وذهب مشياً بالرغم من حرارة الجوّ لكن عبق النهر كان يخفف من شعوره بالضيق ظلل رأسه بجريدة الجمهورية وهو ينظر إلى

المياه الغرينية تجري بهدوء ولم يلتفت إلى بعض الصبية يسبحون في الشاطئ.

اخترق السوق الذي ينتهي بمدرسة المستنصرية ودخل المقهى، كان هادئاً فاختار ركناً وجلس قرب رجل قد ناهز الأربعين يضع نظارة طبية ويقرأ في جريدة وقد تكدّست إلى جانبه عدّة صحف وكتب وتصوّره كاتباً أو أستاذاً جامعياً ، لهذا حيّاه باحترام رفع الرجل رأسه وردّ التحيّة بوقار وابتسامة مقتضبة... وبعد لحظات قال دون أن يحول عينيه عن الجريدة:

ـ الله بالخير.

ـ الله بالخير استاد.

كان الرجل قد ترك سيجارته تحترق دون أن يأخذ نفساً منها، بدا وأنّه يشتعل من الداخل كلما أمعن في قراءة الجريدة، انتبه إلى سيجارته التي أوشكت على الانتهاء فأخذ منها نفساً عميقاً ثمّ أطفأها بشيء من العصبية والانفعال نظر إلى أبو ميسون وقال بلهجة لا تخلو من تهكم:

ـ سمعنا الشرطي بلندن حافظ القانون البريطاني كلّه احنا سبقناهم لأنّ الشرطة بالعراق تكتب شعر! إذا ما تصدق اقرأ.

قال ذلك وناوله جريدة الثورة وطالعته قصائد مديح للرئيس القائد تنضح تملقاً:

ـ يا فارساً في يديه السيف والقلم.

وبين كفيه يزهو العزم والكرم.

ابا عدي ومن للشعر يلهمه.

ان القوافي على كفيك تحتكم.

صدام يا أمة في البعث ماثلة.

جلى سنان الدجى فانداحت القمم.

وقرأ نصاً آخر:

وكيف وصدام مقدامها وصدام صدام اذ يندب

تنازل مرابض كل الاسود وآكام صدام لا تقرب

أعاد أبو ميسون الجريد بهدوء فأخذها الرجل ونهض واقفاً وتمتم بحنق:

ـ والله حيف هذا الساقط يحكم العراق!

ثم التفت إلى أبو ميسون وقال:

ـ واصل چايك حجي.

ظل أبو ميسون ينظر إلى الرجل الطويل القامة الثاقب النظر الحنطي الوجه ولم تستطع ابتسامته وهو يحييه أن تغطي ملامح وجهه الصارمة وعرف أنّ هذا الرجل من السادة عندما هتف أحدهم مودعاً.

ـ في أمان الله سيدنا.

راح أبو ميسون يطالع في جريدته ليرى ماالذي كتبته الشرطة من شعر

فإذا به يرى ما هو أفظع من الشعر عندما يقول عبد الرزاق عبد الواحد، أنّ افصح رجل في الماضي هو المتنبي وفي العصر الحاضر صدام حسين!!

وحمد الله أنّ ذلك الرجل لم يقرأ ما كتبه هذا الصعلوك...

وبلباقه استفسر عن هوية ذلك الأستاذ فإذا هو كاتب يدعى عزيز السيد جاسم قال في نفسه وهو يودع المقهى: هذا الرجل لن يعمر طويلاً.

الفرات ـ 13

كان الصمت الحزين يجثم فوق المكان كغراب في مساء خريفي، ظهر القمر مثلوماً فوق الشجرة الوحيدة التي تتوسط باحة المنزل كان الشيخ ابو محمد يستعد لفتح الموضوع لكن الكلمات استعصت عليه والافكار تتراكض في رأسه كخيول مجنونة. واكتفى حسام بالنظر إلى البساط القروي المخطط، رفع خليل رأسه ونظر إلى الشيخ الذي بدأ الكلام:

ـ الاوضاع ما تبشر بخير، والسيد الصدر ليس متفائلاً لقد امضيت الصباح في الاستماع إلى محاضرة السيد الصدر في حب الدنيا واظنها ستكون آخر محاضرة له... فقد اعتقل بعدها بعشرة أيام ثم اطلقوا سراحه وها هو الآن قيد الاحتجاز والإقامة الجبرية وقطعوا الماء والكهرباء والتلفون أياماً...

السيد الصدر يريد مواجهة النظام وحيداً كما فعل جده الحسين، سمعناه اخيراً يقول أنّ العراق بحاجة إلى دم كدم الحسين ليكسر طوق الخوف...

كان جهاز الراديو الصغير يبث بعض الأناشيد الدينية ثم جاء صوت

المذيع! هنا طهران صوت الثورة الإسلامية في إيران.

قال خليل:

ـ وإيران ألا تستطيع أن تفعل شيئاً؟

قال الشيخ:

ـ ما الذي يمكنها فعله؟ قبل أيام حاول السفير محمود دعائي وهو إنسان يحب السيد الصدر لانّه يعرفه عن قرب وعاش في الكاظمية وكان سجيناً في بغداد لكن الأمن كان يطوق المنزل ومنعوه.

وجاءت نشرة الأخبار التي بدأت تفصل في موضوع أخبار العراق فأشارت إلى استمرار الاقامة الجبرية على آية الله السيد محمد باقر الصدر.

استأنف الشيخ حديثه:

ـ إنّ محاضرته الأخيرة في يوم الأربعاء الخامس من رجب تتضمن اشارات عديدة أنّه يضع اصبعه على نقطة الضعف في العراق وهي حبّ الدنيا لأنّ الإنسان إذا أصيب بحب الدنيا فإنّه سيدفع الثمن باهضاً من أجل ذلك لانّه يريد البقاء حيّاً بأي ثمن حتى لو كان كرامته..

أنتم تعرفون ان مسلم بن عقيل سفير الحسين إلى الكوفة بايعه عشرات الآلاف من أهل العراق على الثورة ضد الظلم، وجاء عبيد الله بن زياد فبث الشائعات بأن جيش الشام سوف ينتقم من الذين يعارضون النظام فتخلى الناس عن مسلم وبقي وحيداً إلى أن استشهد والذين قتلوا مسلم ثم

ارتكبوا بعد ذلك مذبحة كربلاء كانوا عراقيين ولم يكونوا من الشام.. وظهر أن جيش الشام كان موجوداً في بيوت الكوفة لأن الخوف شلّ ارادتهم.

كانت قلوبهم مع الحسين وسيوفهم عليه.

الآن الشعب العراقي في قمة الخوف خاصّة بعد حادثة المؤامرة المزعومة.

وصلتنا أخبار أن صدام أعدم أكثر من عشرين قيادي في حزب البعث وقتل بنفسه صديقه عدنان الحمداني..

الخوف عندما يسيطر على الإنسان يشلّ تفكيره يتحوّل المواطن إلى آلة بيد الدكتاتور.

نظام البعث هذا يشبه حكم الامويين ينهض على ارعاب الناس والبطش بهم.

ومن الان بدأوا حملة من الاعتقالات في كلّ مدن العراق والله العالم ماالذي سوف يحدث غداً.

وجاء صوت الراديو يعلن بدء حلقة جديدة من برنامج: عراق اليوم يبحث عن حسين!!

وتبادل الجميع نظرات متسائلة أدار الشيخ ابو محمد مفتاح الراديو وحوله إلى المسجل وضغط على أحد الازرار فانبعث صوت حزين تتمتزج فيه

الدموع والآهات أنّه صوت السيد الصدر يتحدث عن حب الدنيا.. إلّا أنّه ليس اسلوب المحاضرة أنّها نداءات تنبعث من ضمير مشتعل بالأسى والهموم... وصوت يتهدج بلغة الانبياء مستعيذاً بالله من الشيطان ومفتتحاً باسم الله الرحمن وبالصلاة على محمد وآله الطاهرين.

- خرجنا مما سبق بنظرية تحليلية قرآنية كاملة لعناصر المجتمع.. وللعلاقة القائمة بين الخطين المزدوجين في العلاقة الاجتماعية خط علاقات الإنسان بأخيه الإنسان وخط علاقات الإنسان مع الطبيعة وانتهينا على ضوء هذه النظرية القرآنية الشاملة إلى أنّ هذين الخطين احدهما مستقل عن الآخر استقلالاً نسبياً ... وهذا الاستقلال النسبي يشكل القاعدة لعنصر الثبات في الشريعة الإسلامية والأساس لتلك المنطقة الثابتة من التشريع التي تحتوي على الاحكام المنصوصة ذات الطابع الدائم المستمر في التشريع الإسلامي... بينما منطقة التفاعل بين الخطين بين خط علاقات الإنسان بالطبيعة وخط علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان.. تشكل في الحقيقة الأساس لما اسميناه في كتاب اقتصادنا بمنطقة الفراغ تشكل الأساس للعناصر المرنة والمتحركة في التشريع الإسلامي...

وننصرف الآن من منطقة الفكر إلى منطقة القلب من منطقة العقل إلى منطقة الوجدان... خاصة أنّ هذا اليوم هو اليوم الأخير وسوف أودعكم

فيه اذ يبدأ التعطيل المدرسي...

تبادل حسام وخليل نظرات فيها حيرة وتهدج صوت السيد الصدر فبدا منقوعاً بالأسى والفراق والوداع...

ـ «أريد أن نعيش معاً لحظات بقلوبنا لابعقولنا فقط... بوجداننا وهذه اللحظات الأخيرة... لحظات الوداع معكم نعرض قلوبنا على القرآن الكريم.. لمن ولاء هذه القلوب؟! هذه القلوب التي في صدورنا لمن ولاؤها؟ ما هو ذاك الحب الذي يسودها ويمحورها ويستقطبها!

إنّ الله سبحانه وتعالى لا يجمع في قلب واحد ولاءين.. إمّا حبّ الله أو حبّ الدنيا... فلنمتحن قلوبنا.. هل تعيش حبّ الله سبحانه وتعالى أو تعيش حب الدنيا.

حبّ الدنيا مرض وبيل... لهذا قال رسول الله: حبّ الدنيا رأس كل خطيئة، قال الإمام الصادق: الدنيا كماء البحر من ازداد شرباً من ماء البحر... كلما شرب أكثر فأكثر من ماء البحر أصبح أكثر عطشاً .. ازداد عطشاً..

حب الدنيا هو الذي يفرغ الصلاة من معناها... يفرغ الصيام من معناه يفرغ كل عبادة من معناها...

وحب الله أساس كل كمال... حب الله هو الذي يعطي للإنسان الكمال .. العزة... الشرف... الاستقامة.. القدرة.

علي بـن أبي طالـب كـان يعمـل لله سـبحانه وتعـالى... لم يكـن يعمـل لدنياه... لوكان يعمل لدنياه لكان أشقى الناس وأتعس النـاس، لأنّ عليـاً حمل دمه على يده منذ طفولته... منذ صباه ذبّ عن وجـه رسـول الله وعـن دين الله.. لم يتردد لحظة في أن يقدم.. لم يكن يحسب للحياة حساباً.. لم يكن يحسب للحياة حساباً... كان أطوع الناس لرسـول الله في حيـاة رسـول الله وكان اطوع الناس لرسول الله بعد رسول الله.. كان أكثـر النـاس عمـلاً في سبيل الدين ومعاناةً من أجل الإسلام ماذا حصل عليه علي بن أبي طالب؟ لو جئنا إلى مقاييس الدنيا.. ماذا حصل عليه هذا الرجل العظـيم ألم يقـصَ هذا الرجل العظيم؟ ألم يكن جليس بيته فترة طويلة من الزمن؟! ألم يـسب هذا الرجل العظيم ألف شهر على منـابر المـسلمين التـي أقيمـت أعوادهـا بجهاده.. بدمه.. بتضحياته؟!

إذن لم يحصل على شيء من الدينا.. لا على حطام.. ولا على مال ولا على منصب.. لكنه على الرغم من ذلك حينما ضربـه عبـد الـرحمن ابـن ملجـم بالسيف على رأسه ماذا قال هذا الإمام العظيم؟ قال: فزت ورب الكعبة».

وتجمعت الدموع في عيني حسام كغيـوم ممطـرة وهـو يـصغي إلى هـذه الكلمات وإلى هذا الصوت الذي بدا كأنـه نهـر حـزين مـليء بـدموع آلاف الملايين من البشر.

ـ «لوكان علي يعمل لدنياه قال: والله أني اتعس إنسان لأني لم أحـصل عـلى

شيء في مقابل عمْرٍ كلّه جهاد كلّه تضحية كلّه حبّ لله.. لكنه لم يقـل ذلـك قال: فزت وربّ الكعبة..

انّها والله الشهادة... لانّه لم يكن يعمل لدنياه، كان يعمل لربـه... والآن لحظة اللقاء مع الله.. هذه اللحظة هي اللحظة التي سوف يلتقي بها علي مع الله سبحانه وتعالى فيوفيه حسابه ويعطيـه أجـره يعوضـه عـما تحمـل مـن شدائد، عمّا قاسى من مصائب.

أليس هذا الإمام هو مثلنا الأعلى؟».

وامتزجت الكلمات مع دموع الحاضرين ونشيج البـاكين فعـرج الـسيد الصدر على الجرح ليضع أصبعه على العلة التي ستدمّر مستقبل العراق:

ـ «علينا أن نحذر من حبّ الدنيا لانّه لا دنيـا عنـدنا لكـي نحبهـا مـاذا نحبّ؟ نحبّ الدنيا؟! نحن الطلبة!!

ما هي هذه الدنيا التي نحبها ونريد أن نغرق أنفسنا فيها ونترك رضـواناً من الله أكبر... نترك مـا لا عـين رأت ولا أذن سـمعت ولا اعـترض عـلى خيال بشر.

ما هي هذه الدنيا؟ دنيانا هي مجموعة من الأوهام!

كل دنيا وَهْم، لكن دنيانا اكثر وهماً من دنيا الآخرين».

وأجهش الشيخ ابو محمد بالبكاء امتزج بكاؤه مع الكلمات وامتدت يده فأطفأ جهاز التسجيل فجاء صوت المذيع يعلـن عـن نهايـة برنـامج عـراق

اليوم يبحث عن حسين.

قال الشيخ وهو يمسح دموعه:

ـ لقد بدأت أدرك لماذا ثار الحسين وحيداً لأن الأمويين دمروا مجد الحياة وانزوت كل الأشياء الجميلة. انني اسمع منذ الان عواء الذئاب... أنّه ليل البعث، إنّ صعود صدام يعني بداية النهاية...

سكت لحظات ثم قال:

ـ يجب ألّا يبقى الصدر وحيداً غداً سأذهب إلى النجف إن ساعة المواجهة آتية لا ريب فيها... قال ذلك وكأنّه يحدث نفسه أو يهمس في أذن التاريخ.

دجلة ـ 10

أجواء بغداد مليئة برائحة الدم والبارود، وبدت هذه المدينة الحسناء حزينة كراهبة تبكي أمام الصليب، وقد أضفى الخريف مزيداً من الأسى على أشجار النخيل فبدا شاطئ دجلة كرموش حورية شهيدة..

لم تمض سوى أيام على قدوم حسام إلى بغداد للدراسة في كليّة الطب جامعة بغداد، وبالرغم من توتر الأجواء والخوف والحذر الذي يهيمن في كلّ مكان إلّا أنّه تمكّن من التعرف على بعض الأصدقاء ممن يوثق بهم. بعضهم من أهالي بغداد وبعضهم من مدينة الحلّة ومحافظات أخرى.

كان حسام في غاية الحذر وقد وضع لنفسه برنامج في علاقاته ولم يكن يسمح لأحد بالاطلاع على أسراره حتى عندما يصلي كان يحرص ألّا يراه أحد.

مظهره لا يوحي بأي شيء فهو ينتمي إلى ثقافة عصره وجيله ولقاءاته كانت في الأماكن العامة والمنتزهات. أما إذا أراد زيارة مرقد الإمام الكاظم فانّه ينتخب أيام العطل.

وربما واعد أحد اصدقائه في منتزه المحيط أو في مقهى الشطرنج وربما في منتزه الزوراء امعاناً في الحذر وكان حريصاً في نفس الوقت أن يتفوق في دراسته يصبح طبيباً ويحقق حلم والدته.

وهو في استغراقه في الدراسة كانت تصله بعض الأخبار الهامّة... وكلها مقلقة ومؤسفة وكان آخر ما سمعه في تلك الفترة من صديقه الطالب في كليته عباس الذي أخبره بفرض الحصار على منزل السيد الصدر وعزله عن العالم الخارجي تماماً، واشتداد حملات الاعتقال .

لقد سمع من زميل له من أهالي مدينة الثورة أنّ حملات الاعتقال طالت أكثر من سبعمئة شاب من الثورة في ثلاثة أيام فقط!! وشملت الهجمة طالبات في الثانوية لا يعلم أحد مصيرهن؟!

كانت الحوادث في تسارع رهيب كخيول مجنونة، أوى حسام إلى غرفته وحيداً في القسم الداخلي فزميله قرر السفر لأسباب لا يعرفها قال له انّه سيعود غداً... لقد مضى على تعرفه به أسابيع ولم يكن يعرف عنه سوى انّه من أهالي الكوت لهذا شعر حسام بنوع من الحرّية في تلك الأمسية فقد أدى صلاة العشاء ثمّ قرأ بصوت شجي مناجاة المعتصمين وانسابت الكلمات مؤثرة حزينة:

ـ اللهم يا ملاذ اللائذين!

ويا معاذ العائذين

ويا منجي الهالكين

ويا راحم المساكين

ويا مجيب المضطرين

ويا كنز المفتقرين

ويا جابر المنكسرين

ويا ناصر المستضعفين

ويا مجير الخائفين

ويا مغيث المكروبين

ويا حصن اللاجئين..

إن لم أعذ بعزتك فبمن أعوذ

إن لم ألذ بقدرتك فبمن الوذ

إن أحداً لن يصدّق ان هذا الجالس بخشوع ويناجي الله بهذه الكلمات هو شاب لما يبلغ العشرين بعد طالب في كليّة الطب في بداية مشواره الدراسي.. وأنّه في غمرة كل هذا الضجيج سمع كلمة الله فأصغى إليها بكل روحه وجوارحه، فسلك درباً صعباً لا لشيء إلّا لأنّه رآه مضيئاً يتجه صعوداً نحو السماء...

كانت سماء خريفية تنوء بالغيوم وقد تراكمت السحب فوق بعضها البعض وبدا الجوّ مشحوناً بالصواعق..

كان حسام حزيناً والألم يعتصر قلبه... راح ينظر إلى السماء الملبّدة وسافر خياله إلى أفق صاف تشرق فيه الشمس وتغمر أرض العراق بالنور والدفء ..

أخرج جهاز الراديو الذي يحتفظ به وراء صف من الكتب وراح ينتقل عبر اذاعات الدنيا...

نظر إلى ساعته وادار الميل ليستقر على موجة يمكنه من خلالها التقاط القسم العربي باذاعة طهران...

وجاءت نشرة الأخبار المفصلة عن العراق من خلال برنامج: عراق اليوم يبحث عن حسين...

تظاهرة في مدينة الثورة... وهجوم جريء على مديرية أمن الكاظمية.. واعلان عن تظاهرة كبرى سوف تنطلق من مدينة الكاظمية وعلا صوت موسيقي حماسي ليتضاءل شيئاً فشيئاً واذا به يسمع كلمات من ضمير العراق والرجل الذي حمل كرامة هذا البلد المقهور والذي انبرى وحيداً يقاتل نظاماً همجياً متوحشاً وبدا واضحاً أن التاريخ قد اعاد نفسه وان الصراع الذي حدث على شاطئ الفرات قبل قرون بين الحسين ويزيد يتجدّد الآن بين محمد باقر الصدر وصدام...

وراح حسام يصغي بكل وجوده إلى كلمات تنفذ في القلوب قبل أن تطرق الآذان!

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وصحبه الميامين...

يا شعبي العراقي العزيز... يا جماهير العراق المسلمة التي غضبت لدينها وكرامتها ولحرّيتها وعزّتها وكل ما آمنت به من قيم ومثل...

أيّها الشعب العظيم... إنك تتعرض اليوم لمحنة هائلة على يد السفاكين والجزارين الذين هالهم غضب الشعب وتململ الجماهير بعد أن قيدوها بسلاسل من الحديد ومن الرعب والارهاب وخيّل للسفاكين انّهم بذلك انتزعوا من الجماهير شعورها بالعزة والكرامة.. وجردوها من صلتها بعقيدتها وبدينها وبمحمدها العظيم... لكي يحولوا هذه الملايين الشجاعة المؤمنة من أبناء العراق الأبي إلى دمىً وآلات يحرّكونها كيف يشاؤون ويزقونها ولاء عفلق وامثاله من عملاء التبشير والاستعمار بدلاً من ولاء محمد وعلي صلوات الله عليهما..

ولكن الجماهير دائماً هي أقوى من الطغاة مهما تفرعن الطغاة وقد تصبر ولكنها لا تستسلم... وهكذا فوجئ الطغاة بأن الشعب لايزال ينبض بالحياة ولا تزال له القدرة على أن يقول كلمته وهذا هو الذي جعلهم يبادرون إلى القيام بهذه الحملات الهائلة على عشرات الالاف من المؤمنين والشرفاء من أبناء هذا البلد الكريم... حملات السجن والاعتقال والتعذيب والاعدام وفي طليعتهم العلماء المجاهدون الذين يبلغني أنهم

يستشهدون الواحد بعد الآخر تحت سياط التعذيب وإني في الوقت الذي أدرك فيه عمق هذه المحنة التي تمرّ بك يا شعبي يا شعب آبائي واجدادي أؤمن بان استشهاد هؤلاء العلماء واستشهاد خيرة شبابك الطاهرين وابنائك الغيارى تحت سياط العفالقة لن يزيدك إلّا صموداً وتصميماً على المضي في هذه الطريق حتى الشهادة أو النصر...

وأنا أعلن لكم يا أبنائي أني صممت على الشهادة ولعل هذا آخر ما تسمعونه منّي وأنّ ابواب الجنة قد فتحت لتستقبل قوافل الشهداء حتى يكتب الله لكم النصر.

وما ألذّ الشهادة التي قال عنها رسول الله أنّها حسنة لا تضرّ معها سيئة والشهيد بشهادته يغسل كلّ ذنوبه مهما بلغت.

فعلى كل مسلم في العراق وعلى كل عراقي في خارج العراق ان يعمل كل ما بوسعه ولو كلّفه ذلك حياته من أجل إدامة الجهاد والنضال لازالة هذا الكابوس عن صدر العراق الحبيب وتحريره من العصابة اللا إنسانية وتوفير حكم صالح فذ شريف يقوم على أساس الإسلام .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته... عشرة شعبان الف وثلاثمئة وتسع وتسعون... محمد باقر الصدر..

وتراكمت الغيوم بعضها فوق بعض تنذر بانفجار آلاف الصواعق..

وفي اليوم التالي كان جالساً على مصطبة في ظلال شجرة ويطالع في

كتاب طبي... عندما جلس إلى جانبه شاب وهو.. يحييه:

ـ مرحبا.

ـ مرحبا.

ابتسم الشاب!

ـ حضرتك حسام!

ـ تفضل.

ـ الحقيقة أخذت عنوانك من خليل.

تساءل حسام وهو يسيطر على دهشته.

ـ تعرفه؟

ـ أعرف أبو محمد.

ـ قصدك..

قاطعه بلباقة.

ـ نعم أقصد ابو محمد.

ادرك حسام على الفور أنّ هذا الشاب لم يأت دون سبب سأل:

ـ أي كلية.

ـ هندسة سنة ثانية... اسمى أحمد.

سادت لحظات صمت أطرق أحمد برأسه كمن يبحث عن شيء وقال:

ـ هل يمكن اللقاء في الزوراء؟

ادرك حسام أنّ شيئاً هاماً وراء هذا الاقتراح فقال على الفور وهو ينظر إلى الشجرة.

ـ إذا يوم الجمعة ماكو أي مانع.

قال أحمد دون ان يرفع رأسه:

ـ الجمعة الساعة عشرة الجنائن المعلقة وسأرتدي قميصاً رصاصياً وبنطلوناً اسود إذا تأخرت عن الموعد ربع ساعة فلا تنتظر وأنت كذلك.

قال ذلك من دون توقف ثم نهض تاركاً حساماً تتناهبه الأفكار كخيول تجري في كل اتجاه.

دجلة ـ 11

كان أبو ميسون يقود سيارته بالقرب من معسكر التاجي وقد توقفت حركة السير تماماً وبلغ الازدحام ذروته في ذلك الغروب الحزين.

منذ فترة وهو يلاحظ كثرة التنقلات العسكرية وسمع ان كتائب الدبابات تتحرك صوب الحدود مع إيران.

ومع ذلك فقد كان فرحاً لانّه في طريقه إلى مطار بغداد فشقيقه قد حضر من اليمن. وسوف يستقبله في المطار وبعد عبور رتل من السيارات العسكرية استأنف السير وتمكن من الوصول إلى المطار بعد تأخير قليل.

تعانق الشقيقان بحرارة ورحب أبو ميسون بزوجة أخيه وقبل الأطفال.. وركب الجميع السيارة.

أراد أبو ميسون ان يبدأ الكلام.

ـ اشو من رحت اخذت أربع حقايب رجعتوا باثنين .

ضحك أبو شيماء وقال:

ـ بالحقيقة وحدة والثانية تقريباً فارغة سفرتنا صارت على غفل.

ـ يعني ماكو صوغات؟!

ـ اليمن صدقني فارغة مليانه قات وبس ... شعب خدران.

علقت أم شيماء.

ـ بدت رحمة الله!!

ـ القات شنو؟!

ـ نبتة يمضغها اليمنيون في مجالسهم فيها مادّة مخدرة.

ثمّ قام بحركة تمثيلية حيث نفخ خده الايسر... وقال:

ـ تخزّن بهذه الطريقة لساعات طويلة... وتبدأ الجلسات .. جلسات الخدر ولذلك لما استعمر الانكليز القسم الجنوبي من اليمن ومنعوا زراعة القات حدثت هجرة إلى الشمال إلى المناطق التي لا يشملها الحظر لذلك فيه صعوبة عند تخديرهم لاجراء الجراحة..

ـ ذكّرتني... مرّة كنت في مستشفى النعمان واجروا عملية لشخص يمني وأثناء العملية فتح عيونه وكان شاب قوي طلع من غرفة العمليات والطاقم الطبي يركض وراه!

وضحك الجميع .

كانت ليلة سعيدة امتدت فيها أحاديث السمر إلى وقت متأخر وأوى الجميع إلى النوم باستثناء الأخوين فقد خرجا إلى الحديقة وتحول جزء من حديثهما إلى ما يشبه الهمس.

قال أبو ميسون:

ـ الوقت غير مناسب لسفرك.. الأوضاع كلّش حساسة.

ـ تريد الصدق اشعرت بالأمل وأنا أتابع الأخبار اسم الإمام الخميني في كلّ مكان...

ـ الوضع بالعراق حساس للغاية.. انت ما تدري من انتصرت الثورة الإيرانية الناس شلون طلعت للشوارع حتى سمعت هلاهل وزعت الناس ملبّس حتى بعض الحزبيين.. العراق كلّه اهتز... بعد ما مرّت أسابيع طلعت لعبة استقالة البكر وبعدها طلعوا قضية المؤامرة مع سوريا... انت ما سمعت بقضية محمد عايش وعدنان الحمداني وغيره وغيره واحد وعشرين قيادي بالحزب تساقطت رؤوسهم..

ـ هذا مؤشر على السقوط ... النظام يتآكل من الداخل.

ـ طبعاً فيه غليان شعبي لكن الخوف يشلّ ارادة الناس كلّ عواطف العراقيين مع الثورة في إيران ولكن ما فائدة ذلك إذا كانت الإرادة مشلولة... من جاء صدام للرئاسة وقطعات الجيش تتحرك إلى حدود إيران، خبرني صديق ابنه ضابط في قاعدة جوية يقول ان ألواح تمييز الطائرات الاسرائيلية نزلت وحلّ مكانها ألواح جديدة في تمييز الطائرات الإيرانية.

يعني العدو الجديد رقم واحد أصبح إيران! بدت قوانة حراس البوابة

الشرقية يعني رجعت نفس الاسطوانة تعزف من جديد.

سكت لحظات ليقول:

ـ السيد الصدر محاصر في بيته قبل أسبوع علنوا عن مظاهرة بالكاظمية يوم الثلاثاء الجيش الشعبي احتل الشوارع من يوم السبت بكامل اسلحتهم حتى زمزميات الماء.

انتبها إلى ضوء مصباح يأتي من جهة المطبخ نشر نوراً شفافاً في صالة الاستقبال قال ابو شيماء ليغير مسار الحديث:

ـ هذا منو العطشان؟

ـ هذي ميسون قامت للصلاة.

ـ صلاة الصبح؟!

ـ صلاة الليل.

ـ عجيب آني زين أصلي الفريضة...

ـ حتى بالشتاء تدري النوم يصير أحلى والله آني ما شايف بنية بهذا العمر تصلّي... الآن ازدادت الحملات على الكتاب الديني كل الكتب الدينية ممنوعة حتى كتب الدعاء.

ـ من متى تصلّي؟ أقصد ميسون!

ـ من زمان لكن صلاة الليل هذي جديدة يمكن من طالعت قصص بنت الهدى.

ـ اخت السيد الصدر؟

ـ تعرفها؟

ـ شفت لها كتاب «الفضيلة تنتصر» في بيت عائلة عراقية في صنعاء..

ـ لا تغير الموضوع! ما أفهم سبب لمجيئك!

ـ والله سبب واضح ماكو لكن تدري العراق عزيـز... سـمعت شـاعر يقول: الغربة أقسى من وجه الجلادين... انت شفت عراقي يترك وطنه.

ـ الاوضاع تعبانه حيل... السجون مملية شـباب المـشانق تحـصد.. والله البعثيين بيضوا وجه المغول..

ـ يجي يومهم.. انشاء الله يكون قريب.

أول البارحة شفت رؤيا.

ـ خير ان شاء الله.

ـ السماء تمطر جمر وماكو بيت بالعراق الا ونزلت عليـه جمـرة! مـا أريـد اكون متشائم لكن ما أشوف أمل..

ـ الله كريم يالله ننام شوية.

ـ الله هو الكريم.

دجلة ـ 12

أبو ميسون يقود سيارته وإلى جانبه شقيقه في طريقهما على جسر الاعظمية وكان راديو طهران يبث دعاء كميل بصوت شجي ثمّ جاء صوت السيد الصدر في بيان جديد موجه إلى الشعب العراقي.

ـ بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله وحجة الميامين.

يا شعبي العراقي العزيز.

ايها الشعب العظيم... إني أخاطبك في هذه اللحظة العصيبة من محنتك وحياتك الجهادية، بكل فئاتك وطوائفك... بعربك واكرادك... بسنتك وشيعتك لأن المحنة لا تخصّ مذهباً دون آخر.. ولا قومية دون أخرى... وكما أن المحنة هي محنة كل الشعب العراقي... فيجب ان يكون الموقف الجهادي والردّ البطولي والتلاحم النضالي هو واقع كل الشعب العراقي.

واني منذ عرفت وجودي ومسؤوليتي في هذه الأمّة بذلت هذا الوجود من أجل الشيعي والسني على السواء ومن أجل العربي والكردي على

السواء حين دافعت عن الرسالة التي توحدهم جميعاً... وعن العقيدة التي تضمهم جميعاً ولم أعش بفكري وكياني الاّ للاسلام طريق الخلاص وهدف الجميع...

ركن أبو ميسون السيارة إلى الرصيف في نهاية الجسر وبدت مياه دجلة تجري بصمت ليصغي إلى كلمات رجل نهض وحيداً ليقاتل نظاماً دموياً همجياً وجاءت كلمات الصدر مفعمة بروح الاباء والابوّة:

ـ فأنا معك يا أخي وولدي السني بقدر ما أنا معك يا أخي وولدي الشيعي أنا معكما بقدر ما أنتما مع الإسلام وبقدر ما تحملون من هذا المشعل العظيم لانقاذ العراق من كابوس التسلط والذلّ والاضطهاد...

إن الطاغوت وأولياءه يحاولون أن يوحوا إلى ابنائنا البررة من السنة ان المسألة مسألة شيعة وسنة ليفصلوا السنة عن معركتهم الحقيقية ضد العدو المشترك...

وأريد أن أقولها لكم يا أبناء علي والحسين وأبناء أبي بكر وعمر إن المعركة لست بين الشيعة والحكم السني... إن الحكم السني الذي مثله الخلفاء الراشدون والذي كان يقوم على أساس الاسلام والعدل حمل علي السيف للدفاع عنه اذ حارب جندياً في حروب الردّة تحت لواء الخليفة الأول أبي بكر وكلّنا نحارب عن راية الإسلام مهما كان لونها المذهبي...

إن الحكم السني الذي كان يحمل راية الاسلام قد أفتى علماء الشيعة

قبل نصف قرن بوجوب الجهاد من أجله وخرج مئات الآلاف من الشيعة وبذلوا دمهم رخيصاً من أجل الحفاظ على راية الإسلام ومن أجل حماية الحكم السني الذي كان يقوم على أساس الإسلام ...

إنّ الحكم الواقع اليوم ليس حكماً سنيّاً وإن كانت الفئة المتسلطة تنتسب تاريخياً إلى التسنّن، إن الحكم السني لا يعني حكم شخص ولد من ابوين سنيين بل يعني حكم ابي بكر وعمر الذي تحدّاه طواغيت الحكم في العراق في كل تصرّفاتهم فهم ينتهكون حرمة الإسلام وحرمة علي وعمر معاً في كلّ يوم وفي كلّ خطوة من خطواتهم الاجرامية...

ألا ترون يا أولادي وإخواني انهم أسقطوا الشعائر الدينية التي دافع عنها علي وعمر معاً...

ألا ترون أنهم ملأوا البلاد بالخمور وحقول الخنازير وكل وسائل المجون والفساد التي حاربها علي وعمر معاً...

ألا ترون انّهم يمارسون اشدّ الوان الظلم والطغيان تجاه كلّ فئات الشعب ويزدادون يوماً بعد يوم حقداً على الشعب... وتفنناً في امتهان كرامته والانفصال عنه والاعتصام ضدّه في مقاصيرهم المحاطة بقوى الأمن والمخابرات، بينما كان علي وعمر يعيشان مع الناس وللناس وفي وسط الناس ومع آلامهم .

ألا ترون إلى احتكار هؤلاء للسلطة احتكاراً عشائرياً يسبغون عليه

طابع الحزب زوراً وبهتاناً...

وسدّ هؤلاء أبواب التقدم أمام كل جماهير الشعب سوى أولئك الـذين رضوا لانفسهم بالذل والخنوع وباعوا كرامتهم وتحولوا إلى عبيد أذلاء .

إن هؤلاء المتسلّطين قـد امتهنـوا حتـى كرامـة حـزب البعـث العـربي الاشتراكي حيث عملوا من أجل تحويله مـن حـزب عقائـدي إلى عـصابة تطلب الانضمام إليهـا والانتـساب لهـا بـالقوّة والاكـراه وإلّا فـأي حـزب حقيقي يحترم نفسه في العالم يفرض الانتساب اليه بالقوّة..

انهم احسّوا بالخوف حتى من الحزب العـربي الاشـتراكي نفـسه الـذي يدعون تمثيله احسوا بالخوف منه إذا بقي حزباً حقيقياً له قواعده التي تبنيـه ولهذا ارادوا ان يهدموا قواعده لتحويله إلى تجمع يقوم على أسـاس الاكـراه والتعذيب ليفقد أي مضمون حقيقي له.

يا أخوتي وأبنائي من أبناء الموصل والبـصرة مـن أبنـاء بغـداد وكـربلاء والنجف من أبناء سامراء والكاظمية من أبناء العمارة والكوت والـسليمانية من أبناء العراق في كل مكان..

إني أعاهدكم بأني لكم جميعاً ومن أجلكم جميعاً وإنكـم جميعـاً هـدفي في الحـاضر والمـستقبل فلتتوحـد كلمـتكم ولتـتلاحم صـفوفكم تحـت رايـة الإسلام ومن أجل انقاذ العراق من كابوس هذه الفئة المتسلطة وبناء عراق حرّ كـريم تغمـره عدالـة الإسـلام وتـسوده كرامـة الإنـسان ويـشعر فيـه

المواطنون جميعاً على اختلاف قومياتهم ومذاهبهم بأنّهم اخوة يساهمون جميعاً في قيادة بلدهم وبناء وطنهم وتحقيق مثلهم الإسلامية العليا المستمدة من رسالتنا الإسلامية وفجر تاريخنا العظيم..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته... محمد باقر الصدر... النجف الأشرف.

مياه دجلة تجري وقد التمعت فوقها انعكاسات أضواء المصابيح. قال أبو ميسون متأثراً.

ـ وهل يسمع الشعب هذه الكلمات.

أجاب شقيقه وقد تجمعت الدموع في عينيه كغيوم مشحونة بالمطر.

ـ ربما ولكن بعد فوات الاوان.

وكانت مياه دجلة تمضي بعيداً.

دجلة ـ 13

كانت سماء يوم الجمعة مثقلة بالغيوم وكان حسام قد دخل متنزه الزوراء قبل الموعد بنصف ساعة وراح يتجوّل في الحدائق التي ما تزال خضرتها تقاوم فصل الخريف وقف في قبال نصب لمسلّه حمروابي وكان رذاذ من مياه النافورات يلامس وجهه برفق.

وصل أحمد في الموعد المحدد ينقل خطاه بهدوء ليقف إلى جانب حسام بعد أن حياه وانضما إلى بعض الشبان القادمين للتنزّه وكان الممرّ المؤدّي إلى الجنان المعلّقة أكثر الممرات في اجتذاب الناس...

كانا يسيران صامتين إلى أن وصلا منعطفاً إلى اليمين يكاد يكون خالياً فاتجه اليه قال احمد: مفتتحاً حديثه.

ـ بسم الله الرحمن الرحيم... واعدوا لهم ما استطعتم من قوّة...

وقال الإمام علي عليه السلام: أوصيكم بتقوى الله ونظم أمركم.. حديث آخر يقول: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان. أريد ادخل بالموضوع مباشرة... لكن حتى أمهد للموضوع اذكر مثالين الصقر إذا يريد اصطياد

افعى فهو يعرف أنّ عليه استهداف الرأس وإلا فهي نهايته وفي الاخطبـوط لا يجدي قطع الأذرع ... استهداف القلب هو الوسـيلة الوحيـدة للقـضاء عليه...

لأسباب كثيرة فإن معرفة القليل عن التنظيم هـو الأفـضل لهـذا فإنـك ستتعرف على ثلاثة أو أربعة وبأسـماء مـستعارة أيـضاً سـيكون لـك اسـم مستعار يعرفونك به...

سكت لحظات ريثما يمرّ شاب ترافقه فتاة... استأنف احمد حديثه:

ـ انـت تـسمع بالعمليـات الأخـيرة.. الحقيقـة التنظـيم دخـل المرحلـة الجهادية.. والمطلوب الاستعداد في أي لحظة... النظـام بـدأ هجومـه قبـل التنظيم والاعتقالات شـملت الآلاف... الاعترافـات قليلـة... الظـروف شوية صعبة والأمل بالله... الاخوة بلغوني بتكوين خلايـا مـستقلة تقريبـاً وبالضبط في الجامعات..

نشاطنا راح يكون حذر جداً في الاسبوع القادم يجيك اتـصال والرمـز: تروح للسينما...

تساءل حسام:

ـ واذا كانت الظروف غير مناسبة؟!

ـ تعتذر أو تحدد موعد يعني تتفاهم على الزمان والمكان...

وأراد أحمد أن يعلمه بعض الأساليب في الحذر... فقال:

ـ اعرف شخصاً غاية في الحذر عندما يذهب إلى موعد فأنّه لا يذهب مباشرة ويركب اكثر من مرّة يعني إذا كان موعده بالكاظمية ينزل في الأعظمية.. إذا الموعد داخل مرقد الإمام في البداية يدخل السوق يشتري شيئاً خفيفاً ثم يذهب إلى موعده..

انتبه حسام إلى أن احمد كان يحمل كيساً ورقياً فيه كتاب فتبسم...

وكان احمد يستطرد في حديثه:

ـ طبعاً هذه الأساليب العمل بها مبكر في هذه الفترة لكن عندما تصبح عادة تكون مفيدة جداً في المستقبل... امامنا وقت حتى يبدأ العمل الحقيقي..

ـ تقريباً!!

ـ حسب الظروف... إذا استمرت الأمور على هذا الوضع يمكن بعد أربعة أشهر...

ـ مدّة طويلة.

ـ لأنّ المطلوب عمل نوعي.... وراح تتحدد اهداف وتكون لقاءات دورية للمناقشة... لكن الظرف الآن استثنائي وتغيرت كثير من الخطط... بالحقيقة فيه توصيات من شخص يعرفك ويزكيك لكن هذا يتطلب وقت.. واذا تريد الصراحة علاقتنا الحالية استثنائية لانّه حتى الآن غير مفاتح.. اعترف بأنّ الوضع مرتبك وأنت حرّ في التعاون معنا على أساس

اشتراك في الأهداف أنت .... ضد هذا الوضع...

قال حسام:

- ارجو ان تتحدث بوضوح أنت تدري بخطورة المجازفة... جئت على الموعد لأني أتصور من واجبي هذا أنت سمعت طبعاً النداء... يمكن نمت ساعة واحدة...

بكل هدوء تأكد احمد من عدم وجود أحد يسمع صوتهما وعندئذ قال:

- والمرحلة التي يمرّ بها حزب الدعوة مرحلة ثقافية لكن شراسة النظام وحملات الاعتقال اضطر الحزب إلى بدء المواجهة المسلحة فيه تفكير لانشاء خلايا الضربات نوعية عندما تحين الظروف الكادر الجامعي مهم جداً لبناء البلاد، وتأثيره في التغيير والبناء الاجتماعي فاعل...

سكت لحظات ثم قال:

- بعض القيادات تسللت للخارج لحشد الدعم وفضح النظام، الإعلام سلاح مهم بالأمس كنّا وحيدين واليوم لدينا سند قوي يعرف ما نعانيه من آلام..

هناك تخطيط للمدى البعيد... وهناك ضربات نوعية لزعزعة نظام البعث... اننا نؤدي ما علينا من واجبات... هذا كل ما في الأمر.. ما نزال في البداية يمكن أن ينتهي كل شيء الآن بقرار منك؟!

- تفكيري ليس بعيداً عن ذلك، أنا أفكر في نفس هذه الدائرة... ومن

الافضل الا تعرف الكثير في هذه المرحلة لكـن اريـد أن اؤكـد شـيئاً أنـا لا استلم أوامر من أحد.. لا اريد نفذ ثم ناقش على نحو آخر...

فوجىء أحمد حتى انه ابتسم على الرغم منه وظهـرت في عينيـه ملامـح اعجاب لهذا الشاب فقال وهو يربت على كتفه.

ـ زين.. لن يتصل بك أحد غيري... سوف نعمل معاً لكن لا تستعجل الأمور.. نحن ما نزال في بداية المنعطف...

ـ نحن طلبة جامعيين ولاداعي لهذا التعقيد في ترتيب اللقـاءات يمكـن ان يكون اللقاء في المناطق الشعبية... يمكن ان نلتقـي في مقهـى... مطعـم يمكن ان نرتب لقاءات في مرقد الإمام الكاظم.. في باصـات المـصلحة... واحياناً في القسم الداخلي... داخل أروقة الجامعة...

قال أحمد:

ـ بكل صراحة كما ذكرت لك الاوضـاع غـير عاديـة.. هنـاك تفكـير في الاستمرار في عملية التغيير الثقافي والاجتماعـي... لكـن حـصلت بعـض الحوادث... والتنظيم دخل مرحلة جديدة لم تكن في الحسبان طبعاً الزلزال وصلت هزّاته والـسيد دخـل مواجهـة مكـشوفة، والمـساندة مـن الخلايـا مطلوبة.. في هذه الفترة ستكون علاقتنا مجرد تواصل إلى أن تتـضح الرؤيـة ومن الافضل معرفة القليل من الاشخاص فهذا أضمن للاستمرار.. طبعاً هذه آخر التعليمات بعد أيام يمكن ان يحصل شيء يمكـن يـصير تغيـير...

إيران عينت الشيخ محمود دعائي سفيراً وهذا الرجل ذاق مرارة سجون البعث...

قال حسام:

ـ الاعتماد على النفس هو الطريق الصائب ما ممكن يصير تغيير الا بارادة الناس...

ـ واراده الله سبحانه.

ـ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم..

ساد الصمت لحظات وقال حسام وهو ينظر إلى بعض المتنزهين؟

ـ لاحظ الناس في واد ونحن في واد آخر.

ـ هؤلاء لا يمثلون الشعب.

ـ اين تذهب تشاهد هذه الوجوه.

ـ لا تخدعك هذه المظاهر الناس يضمرون غير ما يظهرون.

ـ العواطف والنوايا لا تغير المهم الارادة... كانت قلوب العراقيين مع الحسين ولكن سيوفهم عليه...

ـ علينا ان نعمل... الطريق طويل ... الله سبحانه يقول: ﴿إنْ تنصروا الله ينصركم﴾، ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾.

ـ والآن اخبرني انك تحمل كتاباً...

قبل أن ينهي حسام جملته كان عنوان الكتاب قد بدا واضحاً قرأه على

الفور: الساعة الخامسة والعشرون.

قال أحمد:

- لم أقرأها بعد يمكنك قراءتها... وربما تناقشنا حولها فيما بعد بل يمكنك الاحتفاظ بها كذكرى لصداقتنا الابدية...

أعاد أحمد الكتاب إلى الكيس الورقي وسلّمه إلى حسام ثم أخذا طريقهما إلى خارج المنتزه وكان حسام في غاية التأثر.

دجلة ـ 14

كان أبو ميسون في بيت أحد الأقارب وقد هزّه نبـأ لايمكـن أن يحتمـل فقد تناقل الكثيرون خبر اذاعة لندن: مصرع الإمام محمـد بـاقر الـصدر في القصر الجمهوري وانعكس الخبر في إيران فـوراً فنقلـت الأنبـاء إن الإمـام الخميني أوعز إلى وزارة الخارجية بتشكيل لجنة للتحقيـق في ذلـك وكانـت إذاعة بغداد التي أذاعت قبل أيام قانوناً يستند إلى المادة ١٥٦ ألف ويقـضي بإعدام كل من ينتمي إلى حزب الدعوة العميل وبأثر رجعي قال أبو محـسن وهو رجل تجاوز الستين:

ـ الأثر الرجعي شنو بويه؟

قال ابنه وهو شاب يمضي خدمته العسكرية في كركوك بعد تخرجه مـن الجامعة:

ـ يعني الاعدام يشمل حتّى الذي كان منتمياً لحـزب الـدعوة ثـم تـرك الحزب من سنوات.

قال أبو ميسون:

ـ راح يخـتلط الحابـل بالنابـل الأمـن هـذي الأيـام يعتقلـون الـشباب

بالمساجد وبعدها يجرون التحقيق .

قال محسن:

ـ يرمون الشبكة ويصيدون الشباب وبعد ذلك يشوفون المطلوب من غير المطلوب .

ـ بالتعذيب راح الكل يعترفون على أشياء حتى الماسامعين بها .

قال أبو ميسون:

ـ صحيح شر البلية ما يضحك .. شاب من أهل الكاظمية اشتبهوا باعتقاله بالتعذيب كانوا يطلبون منه اعتراف في أي حزب، المسكين حتى ماسامع بحزب الدعوة آخرها كان سامع بحزب المؤتمر الهندي اعترف من الضرب انه من حزب المؤتمر الهندي ويريد يفتح شعبة بالكاظمية!!

ـ والله الواحد ما يعرف يضحك لو يبچي!

طلب أبو ميسون ان يفتح الراديو على بغداد، فانطلقت الأناشيد والاهازيج بميلاد حزب البعث، وراح محسن ينتقل عبر الاذاعات لندن مونت كارلو لا شيء.

عاد بالموجه على راديو بغداد اغاني تتغنى بالقائد الرفيق صدام حسين وبالحزب والثورة....

ـ يعني ماكو شيء بس الحزب والثورة والقائد اليوم اثنين وعشرين نيسان... و ميلاد الحزب تسعة نيسان.

علّق محسن:

ـ الوضع غير طبيعي.. اتصوّر السيد معدوم... من كنت بكركوك قبل اسبوعين شفت شيء عجيب.. الوقت كان العصر الجوّ بدا يغبّر من دون عاصفة وصارت صفرة كثيفة لتتحول إلى حمرة مخيفة وتكاثف الغبار أكثر.. والله ما كنت أقدر أرى أبعد من أربعة أمتار.... كان معي في الوحدة رئيس عرفاء يصلّي وعريف خريج صلّوا صلاة الآيات ورئيس العرفاء تساءل من دون تمهيد ؟

يمكن قتلوا سيّد... طبعاً هو ما يعرف اي شيء عن السيد الصدر رجل بسيط والله ماأدري كيف طلعت منه هذي الكلمات؟! لحد الآن أذكر كان مثل هذا اليوم الثلاثاء ثمانية نيسان ليلة ميلاد.

قاطعه أبوه:

ـ ميلاد عفلق! بالله ما تخليه على ايران...

كان القسم العربي في راديو طهران يبث صوتاً شجياً في دعاء التوسل.

ـ يا وجيهاً عند الله اشفع لنا عند الله...

أيّها الشهيد يابن رسول الله.. إنا توجهنا واستشفعنا بك إلى الله وقدّمناك بين يدي حاجاتنا....

يا وجيهاً عند الله اشفع لنا عند الله..

علق أبو ميسون :

ـ صدق أبو فراس الحمداني:

تنشى التلاوة في أبياتهم سحراً وفي بيوتكم الأوتار والنغم

لاحظوا اذاعة بغداد مثل الملهى واذاعة طهران! محاضرات الشيخ الوائلي.. ثقافة وفكر.

ياحجة الله على أرضه.. إنا توجهنا بك إلى الله.

وضع الجميع اكفّهم فوق رؤوسهم اجلالاً لذكر المنتظر الذي سيظهر فيملأ الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً...

انتهت كلمات الدعاء الشجي وجاء صوت المذيع...

ـ هنا طهران صوت الجمهورية الإسلامية في إيران....

قال أبو ميسون قبل فترة صوت الشعب الإيراني على الجمهورية الإسلامية و.. وعند ماأراد الاسترسال في حديثه جاء صوت المذيع مضمخاً بالحزن والاسى... فيما يلي اقرأ على حضراتكم بياناً صادراً عن الإمام الخميني قائد الثورة الإسلامية مؤسس الجمهورية....

بسم الله الرحمن الرحيم

انا لله وانا إليه راجعون

تبيّن.... ببالغ الأسف من خلال تقرير السيد وزير الشؤون الخارجية والذي تم التوصل إليه عن طريق مصادر متعددة وجهات مختصة في الدول الإسلامية وحسب ماذكرته التقارير الواردة من مصادر اخرى ان المرحوم آية

اللّه الشهيد محمد باقر الصدر وشقيقته المكرمة المظلومة والتي كانت من اساتذة العلم والاخلاق ومفاخر العلم والأدب قد نالا درجة الشهادة الرفيعة على أيدي النظام البعثي المنحطّ وذلك بصورة مفجعة..

وران صمت ثقيل في المكان واصيبوا بما يشبه الصدمة فجمدت الوجوه واحتبست الانفاس الاّ ما يجيش في الأعماق حيث توجد منابع الدمع الإنساني... وكان صوت المذيع مايزال قادماً يحمل الخبر الصاعقة..

ـ فالشهادة تراث ناله امثال هذه الشخصيات العظيمة من أوليائهم والجريمة والظلم ايضاً تراث ناله امثال هؤلاء ـ جناة التاريخ ـ من اسلافهم الظلمة.

فلا عجب لشهادة هؤلاء العظماء الذين أمضوا عمراً من الجهاد في سبيل الأهداف الإسلامية على أيدي اشخاص جناة قضوا حياتهم بامتصاص الدماء والظلم وانما العجب هو أن يموت مجاهدو طريق الحق في الفراش دون ان يلطخ الجناة أيديهم الخبيثة بدمائهم...

ولا عجب ان ينال الشهادة المرحوم الصدر وشقيقته المظلومة وانما العجب ان تمرّ الشعوب الإسلامية وخاصّة الشعب العراقي النبيل وعشائر دجلة والفرات وشباب الجامعات الغيارى وغيرهم من الشبان الأعزاء في العراق على هذه المصائب الكبرى التي تحل بالإسلام وأهل بيت رسول اللّه(صلى الله عليه وآله) دون أن تأبه لذلك وتفسح المجال لحزب البعث

اللعين لكي يقتل مفاخرهم ظلماً الواحد تلو الآخر...

والأعجب من ذلك هو أن يكون الجيش العراقي وسائر القوى النظامية آلة بيد هؤلاء المجرمين يساعدونهم على هدم الإسلام والقرآن الكريم .

انني يائس من كبار القادة العسكريين ولكنني لست يائساً من الضباط والمراتب والجنود وما أتوخاه منهم هو إمّا ان يثوروا أبطالاً وينقضوا على أساس الظلم كما حدث في ايران وأمّا ان يفروا من معسكراتهم وثكناتهم وألاّ يتحملوا عار مظالم حزب البعث...

فأنا غير يائس من العمال وموظفي حكومة البعثين المغتصبة وآمل أن يضعوا ايديهم بأيدي الشعب العراقي وأن يزيلوا هذا العار عن بلاد العراق .

ارجوه تعالى ان يطوي بساط ظلم هؤلاء الجناة...

وها أنا أعلن الحداد العام لمدّة ثلاثة ايام اعتباراً من يوم الأربعاء الثالث من شهر اردبيهشت الثالث والعشرين من نيسان كما اعلن يوم الخميس عطلة عامة وذلك تكريما لهذه الشخصية العلمية ولهذا المجاهد الذي كان من مفاخر الحوزات العلمية ومن مراجع الدين ومفكري المسلمين .

وارجو الخالق تعالى ان يعوضنا عن هذه الخسارة الكبرى والعظيمة على الإسلام والمسلمين..والسلام على عباد اللهّ الصالحين....

روح اللهّ الموسوي الخميني.

اجهش الجميع بالبكاء لقد حلّت المصيبة... وجاء صوت نـواح حـزين اندمج مع كلـمات مخزونـة في ذاكـرة القهـر والاضـطهاد ومعانـاة ملايـين البشر..

ياحسين بضمايرنا صحنا بيك آمنا... لا صيحة عواطف هاي لا دعوى ومجرد راي... هاذي.. من مبادئنا... صحنا بيك آمنا...

نهض أبو ميسون من دون يـستأذن أحـداً ومـن دون أن ينتبـه لـه أحـد وأخذ طريقه عائـداً إلى منزلـه كـسفينة محطمـة تـدفعها الأمـواج إلى مرفـأ مهجور..

وما إن فتح الباب حتى وجد ابنته غارقة في مأساة مدمرّة لقـد سـمعت النبأ الـصاعقة.. هبـت إلى معانقـة والـدها الـذي لم يـتمكن مـن التظـاهر بالتساؤل عمّا حدث؟

هل كانت هي الأُخرى لاتريد ان ينتبه أحد إلى نـشاطها وعلاقاتهـا مـع فتيات جامعيات يرتدين الحجاب الاسلامي.. و زياراتها شبه اليوميه لمرقد الإمام الكاظم هل تخفي وراءها لقـاءات منظمـة خفـق قلبـه انـه لا يريـد لابنته أن تذهب بعيـداً... كيـف يكمـن لزهـرة رقيقـة أن تواجـه عاصـفة هوجاء في ليل شتائي طويل؟!

الفرات ـ 14

لم يصدق حسام النبأ الكارثي انه فوق ما يتصوره ويحتمله...

عادت به الذاكرة إلى الوراء يوم زار السيد مع الوفود التي تدفقت للبيعة كان مشغولاً بالنظر إلى وجهه وتلك الهالة من النور التي تحيطه وتساءل في اعماقه كيف أمكن لأولئك الناس الذين رأوا الحسين(عليه السلام) ان يطعنوه ؟

هل أن التاريخ يعيد نفسه حقاً فيتسلط حاكم يتقمص دور يزيد فلا يظهر من يعارضه إلّا رجل واحد هو الصدر ثم لايقف إلى جانبه أحد سوى شقيقته بنت الهدى....

هل يستحق هذا الشعب الخانع تضحيات إنسان مثل الصدر ودّ لو يلتقى أحمد لكنه اختفى ولا يعرف كيف يتصل به الله وحده الذي يعلم ماذا حل به...

فجأة تذكر رؤيا رآها في صباه ليلة رأى في منامه آلاف الذئاب تعيث وتعوي في وسط الظلمات مايزال حتى اليوم يشعر بأصداء العواء تتردد في اذنه .

استغرقه احساس مريع بالغربة فالحياة تمضي كما كانت عهدها قبل

الجريمة هل يعلم هؤلاء الذين يمضون في كل اتجاه ماذا يجري؟!

عندما أوى إلى غرفته بدت له تلك الرواية التي أهداها احمد اليه ملاذاً وحيداً للهروب من قسوة الواقع ومرارته... للهروب من كل مشاعر الغربة التي تجتاحه.. بل ان وقوعها في يديه في هذه الفترة بالذات لم يكن مجرد مصادفة!!

أنه يعتقد أنها ستعينه على فهم مايجري حوله لقد بات يعتقد بأن البعثي كائن غريب كائن لا يمتُّ بصلة إلى الآدمية إلاّ الشكل فقط.. ولهذا راح يسقط كل مايقوله الروائي عن ظهور كائنات خانعة للآله لاتمتلك أي احساس بالإنسانية .

انه لا يجانب الحقيقة عندما يقول: لم تعد الأرض ملكاً لبني الإنسان.. لقد ظهر البعثيون فجأة فإذا بهم يكتسحون ارض العراق... انهم في غاية الهجمية والوحشية مع انهم لايعيشون في الغابات والادغال بل في مكاتب ويرتدون بدلات انيقة جداً لكنهم اشدّ قسوة من الوحوش الكاسرة...

اندمج في أحد الفصول حتى انه ظن انه قد دخل في عمق المشهد العراقي.....

بعد أن تنالوا طعام العشاء سأل الكاهن ابنه عن مشاريعه الأدبية الجديدة فبان التردد على وجه تريان ثم قال:

ان روايتي المقبلة ستكون كتاباً حقيقياً لايمت إلى الأدب إلاّ من حيث

الأسلوب فقط، اما الاشخاص فانني سانتقيهم من الحياة الحقيقية...

سيكونون من الرجال الذين يعيشون على سطح الكرة الأرضية... لن آخذ إلاّ عدداً قليلاً لا يتجاوز العشرة... مع ذلك فإن هؤلاء العشرة سيحيون الحوادث نفسها التي يحياها الآخرون.. سأترك أمر ابرازهم للصدف.. عشرة أعرفهم أكثر من سواهم.. أسرتي مثلاً... وبعض الأصدقاء والجيران...

إنني أعتقد أنّ أموراً خارقة ستقع... وأنّ المستقبل القريب يخفي أشياء لكل منا... أشياء لم نر مثلها في التاريخ..

- إذا كان المستقبل ينبئ بنتائج مفجعة فأنني آمل إلاّ أكون في روايتك .

- إن الأحداث المحزنة ستقع أولاً على مسرح الحياة ثم أنقلها إلى روايتي .

- أتعتقد بأنني ساحيا فترات مفجعة.. انني لست مغامراً..

- يا صاحبي... إن معظم الناس على هذه الأرض ليسوا مغامرين مع ذلك فإنهم يمرون جميعاً أحياناً مرغمين في مغامرات يعجز الكتاب العاطفيون عن تخيل مثلها .

- وما هي تلك الأمور الحساسة التي ستحدث ؟!

- يا للسخرية... انني أشعر أن حدثاً خطيراً قد وقع حولنا...

وراح حسام يتابع الحوار حول ظهور كائنات بشرية آلية تفكر بطريقة آلية وتفتقد إلى إي إحساس إنساني...

- ومتى ستحدث الثورة التي تتنبأبها ؟

أجاب تريان .

ـ لقد بدأت بالفعل ونحن نساهم في نشرها سوف لا يعيش الكثيرون منا ليبلغوا نهايتها... اني اشعر بخوف جارف من أن لا استطيع إنهاء كتابي لأنني سأختفي...

ـ إنني شاعر أملك شعوراً يسمح لي بالتنبؤ... ان الشاعر نبي.. انني آسف اذ أتنبأ بأشياء مفجعة... ينبغي أن اصرخ...

لن يبقى رجل واحد حرّاً..

ـ سنفنى اذن في السجون دون ان نكون مذنبين...

وراح حسام يغوص في أعماق المشاهد الرهيبة من الساعة الخامسة والعشرون ليبلغ لاهثاً مشهد "تريان" وقد استيقظ فجراً ويغادر سريره مرتدياً معطفه المنزلي...

كان قد مضى شهران على زواجهما سألت نورا:

ـ ألا تريد أن تحدثني عن روايتك ؟

وكان كل مرة يتحاشى الإجابة على سؤالها، أما الآن فإنّه لم يستطع رفض طلبها، قال:

ـ لقد قمت مرّة بجولة بحرية في جوف غواصة.. ان في الغواصات جهازاً خاصاً ينبىء بالوقت المعين اللازم لتجديد الهواء، أما من قبل فإن الغواصات لم تكن تعرف ذلك الجهاز بعد.. لذلك فقد كان البحارة

يصحبون معهم عدداً من الأرانب البيضاء إلى جوف الغواصة. فإذا تسمم الهواء ماتت الأرانب ومن ذلك يعرف البحارة ان لديهم خمس ساعات يحيون خلالها قبل أن يسقطوا بدورهم فريسة للاختناق...

في الغواصة التي كنت مبحراً فيها لم يكن هناك أرانب بيضاء بل أجهزة تقوم مقامها وقد لاحظ القبطان انني اتحسس نقص مولد الحموضة فكان يسخر من حساسيتي، لكنه لم يعد يركن إلى اجهزة الغواصة لأنني كنت دائماً أدلّه على الوقت الذي ينقص فيه الهواء وكان يكفيه أن يلقي علي نظرة واحدة...

أنها موهبة نملكها نحن: الأرانب البيضاء وأنا نشعر بذلك الخطر قبل ان يشعر به البشر بست ساعات ونحس أن الجو بات لايصلح للتنفس... انني اشعر منذ زمن ما بمثل ذلك الشعور.. ان الجو قد بات خانقاً..

سألت نورا:

- وهل ستتشابه كل الفصول في نهايتها؟ اليس في روايتك موقف مفرح واحد؟ نهاية سعيدة؟

كلا ليس فيها نهايات سعيدة.. بعد موت الأرانب البيضاء لايمكن ان تكون النهايات السعيدة قابلة الوقوع.. ان موتها يدل على أنّ ماتبقى للآخرين من بقاء على قيد الحياة لايتجاوز الساعات المعدودة.

ويتابع حسام وقوع سلسلة من الكوارث في مسرح الرواية: يهب بعض

الشباب للقتال والمقاومة وقد جاءوا إلى الأب "كوروغا" يمنحهم البركة سأل القروي الشاب :

ـ وأنت يا أبانا هل ستصلي في الكنيسة من أجل ستالين، إنّك إذا كنت سنبتهل من أجل ستالين فإن معنى ذلك أنك ستصلي من أجل الدجال !

ـ إنني أعرف إن ستالين ملحد كافر غير أن الكفرة ليسوا إلّا آدميين فإذا كانت نفوسهم محملة بالخطايا فذلك لأنهم تاهوا بعيداً عن حظيرة المسيح..

شعر حسام بالحزن يستغرقه وان الظلمات تتراكم من حوله حتى تكاد تطفئ بصيص أمل كشمعة صغيرة في بحر من الظلام.. وخامره احساس بأن الساعة الخامسة والعشرون قد أزفت وقد ضاعت دقاتها مع عواء آلاف الذئاب في ليل عراقي طويل..

ومرّت أيام كاد حسام أن ينسى أحمد وإذا به يفاجأ برؤيته يدور في أروقة الجامعة هائماً كمن يبحث عن ظلّه في يوم مطير...

راقبه لدقائق في جولته وأخيراً تعمّد أن يلقاه وجهاً لوجه.. آه إنه يبدو منكسراً غريباً وقد استغرقته حالة من الشرود...

تبادلا التحية بفتور واستأنفا خطوات ضائعة إلى زاوية قال أحمد دون مقدمة:

ـ أرايت لقد انطفأ الأمل... الحسين يقتل من جديد... وامتلأت عينه بالدموع لم تعد هناك من حرمة كل حرمات الشعب العراقي مستباحة..

سوف يستباح هذا البلد.. كل شيء يهتز الآن، ليس هناك من ثبات بعد اليوم لقد رحل السلام... عندما هوى الحسين فوق الرمال شهيداً وعندما عبرت من على صدره الخيول انهارت كل السدود واجتاحت السيول مدينة الرسول...

هل ترى الدبابات وهي تزحف نحو المشرق!! العالم كله يريد إطفاء الشمس قبل أن تشرق على العراق..

وأطلق حسرة اختزلت كل تراكمات حزن مكبوت آه لماذا يبحث هذا الشعب عن رجل يقاتل.. بالنيابة.. هذا المجتمع العاجز لماذا يقدم أحد أبناءه إلى المذبح ثم يبكي عليه؟ !

انسحب حسام الى نفسه واستيقظت في أعماقه كلمات اذاعية تقدم برنامج: عراق اليوم في طريق الحسين.. لقد تغير الاسم.. كان اسمه: عراق اليوم يبحث عن حسين؟!

فعلها أهل الكوفة مرّة أخرى.. ماذا كانت تعني عشرات الوفود التي تدفقت إلى النجف الأشرف تبايع الشهيد الصدر قائداً وزعيماً؟!

وعندما نهض إذا به يجد نفسه وحيداً لا ناصر ولا معين إلاّ شقيقته فكانت زينب العصر... كان احمد في حالة يرثى لها واكتفى حسام بأن ضغط على كتفه مواسياً ثم ودعه بصمت...

الفرات ـ 15

وتمرّ الأيام حزينة كقطار أسود أصبح حسام أكثر حذراً وداخله شعوره بالغربة وظهرت في عينيه النجلاوين تكسرات لحزن دفين ووجد في الاستغراق في الدراسة ملاذاً آمناً وعزاءً عن الواقع المرير الذي يجلده باستمرار...

الإعلام يطبل للرئيس القائد الأغاني والأهازيج تمجّده وترفعه إلى مستوى الإله...

وخلال زياراته إلى أسرته وما سمعه من أخبار فإن البلد ينساق نحو حرب مع ايران لا يعلم إلاّ اللهّ مدى ويلاتها .

الإعلام الرسمي ينشط في تسميم الأجواء بين الشعبين الجارين.. الصحافة تثير مشكلات قديمة وظهرت أسماء لأراض عراقية لم يسمع بها على أنها ترزح تحت احتلال إيران ذات يوم: زين القوس سيف سعد...

وازدادت الأبواق في الداخل والخارج تهريجاً... في مجتمع بسيط ينظر إلى الحكومة على أنها الرب الثاني يكثر المهرجون ويصبحون سادة البلد

وأدوات رخيصة في يد الحاكم...

استعاد حسام مقطعاً شعرياً لايدري اين قرأه:

صفونا صفّاً صفّاً.

الأجهر صوتاً والأطول وضعوه في الصف الأول

ذو الصوت الخافت والمتواني وضعوه في الصف الثاني

أعطوا كلاً منا ديناراً من ذهب قان

براق لم تلمسه كف من قبل..

قالوا: صيحوا: زنديق كافر !

صحنا: زنديق كافر .

قالوا: صيحوا فليقتل، أنا نحمل دمه في رقبتنا قالوا: امضوا

فمضينا

الأجهر صوتاً والأطول يمضي في الصف الأول

ذو الصوت الخافت والمتواني يمضي في الصف الثاني!

أصحيح ما يقال أن الشرقيين بطبيعتهم عبيد يعشقون الطاغية ولهذا فهم يصنعونه بأيديهم؟! لماذا نهزأ من أجدادنا عندما كانوا يصنعون الأصنام الحجرية بأيديهم ويسجدون لها.. ألا نفعل الآن مثلهم ألا نصنع الآن أصناماً بشرية ونسجد لها ونركع ونخضع؟!

لماذا لا يبث تلفزيون بغداد تلفزيون العراق الوحيد إلّا أفلام تصوّر

الرئيس وهو يزور القرى ويدخل البيوت ويفتح أبواب الثلاجات لا شيء سوى تنقلات الرئيس القائد واخبار الرئيس القائد.. حتى أشيع بأن صدام بدأ يتمرّن على التلاوة لكي يستحوذ على فقرة القرآن الكريم لأنها الفقرة الوحيدة التي لا يظهر فيها صدام!!

وهكذا يختصر العراق كله في هذا الكائن المتوحش...

فكر مرّة أن يكتب قصّة رمزية عندما قرأ حديثاً للإمام زين العابدين صاحب رسالة الحقوق وفي الحديث يصف نجل الحسين الشهيد المجتمع الذي عاش مأساة عاشوراء قائلاً: «الناس في زماننا على ست طبقات أسود وذئاب وثعالب وكلاب وخنازير وشياه، فأمّا الاسود فملوك الدنيا يحب كل واحد أن يَغلب ولا يُغلب. وأما الذئاب فتجاركم يذمّون إذا اشتروا ويمدحون إذا باعوا وأما الثعالب فهؤلاء الذين يأكلون بأديانهم ولا يكون في قلوبهم ما يصفون بألسنتهم وأما الكلاب فيهرّون على الناس بألسنتهم فيكرمها الناس من شرّ السنتها وأما الخنازير فهولاء المخنثون وأشباههم لايدعون إلى فاحشة إلاّ اجابوا... أما الشياه فهم المؤمنون الذين تجزّ شعورهم وتؤكل لحومهم وتكسّر عظامهم...

أراد أن يختصر العراق في قرية تعيش فيها الحيوانات بسلام فجأة وفي ليلة ظلماء يقوم الأسد بالانقضاض عليها وحكمها فتسانده الذئاب بكل ما أوتيت من قوّة على الفتك والمسك بالمحاصيل الزراعية والحيوانات

الضعيفة وتقوم الثعالب بخداع بقية الحيوانات وبالخنازير فقد انصرفت إلى حياتها المنحطّة فيما راحت الكلاب تنبح لارعاب قطعان الأغنام.. وكانت تساق للذبح يومياً فتنهش لحومها وتؤخذ أصوافها لصناعة أجمل الثياب ثم ترمى عظامها إلى الكلاب وظلت قصته مجرّد فكرة...

وكان يتساءل هل كان الإمام زين العابدين يصف طبيعة المجتمع العراقي اليوم؟! ان الحاكم سبع ضاري يتلذذ بقتل الضحايا والسوق تسيطر عليه ذئاب لاترحم ادخلت الحياة الاقتصادية في مسلسل رهيب من الأزمات واضطر الإنسان إلى اللهاث وراء لقمة العيش حتى لا يفكر في شيء آخر.. المساجد والجوامع مليئة بالثعالب التي ما انفكت عن خداع الناس ونشر ثقافة الخنوع للحاكم واستساغة الحياة بلا كرامة ولا حرّية.. البارات والملاهي وحتّى معظم المقاهي بدأت تضج بكائنات لا تعرف من الحياة سوى البطن وإسفله إنها كائنات تمشي على البطون... وأكثر المشاهد مأساوية مشهد آلاف بل ملايين الشياه والأغنام وهي تُساق في كل اتجاه فلا تعرف ماهو مصيرها..... آه آلاف الشياة بل مئات الآلاف تساق اليوم إلى الحدود مع ايران.. إنها لاتستطيع ان تعترض لأنها لاتجرؤ على ذلك أنها تستسلم للموت خوفاً من الذبح! أنها تخشى هرير الكلاب...

السجون تمتلئ بالأحرار والعبيد يساقون في كل اتجاه ويزداد المشهد تعقيداً عندما يتحول الوطن بأسره إلى سجن كبير، وتختلط الأشياء ويضج

الفضاء بمختلف الاصداء ويختلط النباح بالثغاء بالعواء وتضيع وسط الضجيج صيحات الاحرار ونداء الثوار.. ثم تهيمن على المشهد قهقهة الشيطان...

وظهر صدام يمزق اتفاقية الجزائر مع إيران وسط تصفيق ونعيق المهرجين ويعلن من خلال الاذاعة والتلفزيون بدء الحرب الشاملة واندفاع اثني عشر فرقة مدرعة لاجتياح وغزو الجيران...

وسرعان ماظهرت الحقيقة أنها حرب شنتها أمريكا للضغط على ايران وإسقاط النظام الثوري، واستكمل الغزاة السيطرة على ضعف مساحة لبنان. إن طريق تحرير فلسطين يمرّ من طهران!!

وظهرت في بغداد خريطة جديدة لايران حيث ظهرت دولة الإمارات العربية للساحل الشرقي، وعاصمتها بوشهر وجمهورية عربستان الحرّة وعاصمتها الأحواز!! ودويلات أُخرى... إن العراق يريد تحرير الشعوب الإيرانية من سيطرة الملالي!!.

وفي ليلة وضحاها تم عسكرة المجتمع العراقي.. وجنّد شباب ورجال العراق في الجيش والجيش الشعبي وبدأت طاحونة الموت الرهيبة جُنّد أبو حسام في أحد قطعات الجيش الشعبي وسيق إلى خطوط نار مجنونة وظهرت مانشيتات الصحافة المهرجة: نار عبادان تضيء البصرة!!

واتخذت الحرب مساراً آخر عندما ظهر أنها لن تكون حرباً خاطفة أو

نزهة عسكرية كما خطط لها لقد رفض الشعب الايراني وقف إطـلاق النـار والاستسلام فالسلام من دون انسحاب المعتـدين استـسلام. إن شـعارات الثورة ماتزال تتردد في الفضاء هيهات منا الذلة... ما أغبـى صـدام فثقافـة عاشوراء هـي التـي صـنعت ملحمـة الثـورة الايرانيـة واطاحـت بـالقوة الخامـسة في العـالم وهـاهي الآن تقـود حـرب التحريـر المقدسـة وبـدأت عشرات بل مئات ثم آلاف التوابيـت تـأتي مـن الجبهـة وانتـشرت ظـاهرة ارتداء القمصان السوداء وليزداد المشهد الاجتماعي العراقي ظلاماً..

وظهر الطاغية يعترف ربما لأول مرّة بأنه يقاتل شعباً يحوك الـسجادة في عشرين سنة!!

ووجد الشعب الايراني مبرراً قوياً لبدء ملحمة خالـدة في الحـرب، إنـه يدافع عن أرضه وعرضه وبل وسيندفع إلى ما هو أبعـد مـن ذلـك سـوف يزور الحسين بعد أن يحرر كربلاء من يزيد العـصر.. واقـترن اسـم صـدام بيزيد كما اقترن في العراق بـ «راس غليص» تلك الشخـصية التـي كـشفت بشكل مدهش عن جانب من اخلاقية صدام الإجرامية...

وازدادت الحرب ضراوة وشراسة وراح النظـام تدعمـه قـوى اقليميـة ودولية يقاتل بالنيابة عن الأُمة العربية!! ويقـوم بحراسـة البوابـه الـشرقية وظهرت لافتات مقـززه تقـول إحـداها: العراقيـون للحـرب والمـصريون للبناء! وسيكون العراق الدولة الأولى في عدد اليتامى وبدأت ظاهرة خداع

الجماهير تأخذ طابعاً علنياً عندما راح النظام يمنح سيارات التيوتا لأسر ضحايا المحرقة وانتشرت أغنية مرّة:

«يمته يجي بابا الحلو متلفلف بتابوته ... هو نحطه بالگبر وآنه اركب التيوتا »

ومع تصاعد حدّة المعارك في الحدود تراجعت العمليات الثورية التي تنفذها خلايا تابعة لحزب الدعوة ومنظمة العمل وبدأت كوادر هاتين الحركتين تغادر الوطن إلى ايران وساعدت الاعترافات المنتزعة تحت التعذيب الرهيب والهجرة على استئصال كل الخلايا التنظيمية واتجهت القيادات والرموز الى التعويل على ورقة الحرب في اسقاط النظام البعثي وفي غمرة هذا الاحباط اتجه الكثير من الشباب الى تكوين خلايا مستقلة للقيام بعمليات نوعية وشهدت ساحة المعركة في داخل الوطن تعاوناً بين شباب تنظيم الدعوة ومنظمة العمل.. وتألقت الآمال من جديد خاصّة بعد أن تمكنت ايران الثورة من تحرير مدينة خرمشهر المدينة المدماة واستسلم لها عشرون الف جندي عراقي وبات الطريق الى البصرة بل وإلى بغداد مفتوحاً.

كان حسام يشعر بالسعادة لما حصل ان نظام صدام يهتز بقوّة حتى عندما أخبروه بأن والده قد أسر في المعركة فإن ذلك لم ينقص من شعوره بالرضا.. بل ان والدته كانت هي الأخرى قد اطمأنت إلى مصير زوجها

وسلامته بل أنها كانت راضية فهذا الخبر قد أسعدها اكثر مـن خـبر قبـول أنعام في جامعة بغداد.. حتى أنهـا صـنعت صـينتين مـن الكليجـة لحـسام وأنعام وكان حسام قـد اسـتأجر غرفـة في حـي شـعبي وانتقـل إليهـا مـع أخته...

دجلة ـ 15

جهد أبو ميسون أن ينأى بأسرته عن كل ما يمت الى السياسة خاصّة بعد فاجعة استشهاد السيد الصدر ... ولهذا بالغ في الاحتفال العائلي بمناسبة دخول ابنته ميسون جامعة بغداد كلية الآداب قسم اللغة العربية.. انه رب عائلة اغلبها بنات وهذا زمن رديء يعاقب فيه المحسن ويثاب فيه المسيء وانقلبت كل المعايير.. واصبح النظام اشدّ قسوة وهمجية اثر الهزائم المريرة في جبهات القتال .

لن تنسى ميسون اليوم الذي اجتازت فيه أبواب الجامعة وهي ترتدي عباءتها ربما كانت الوحيدة التي ترتدي المانتو والعباءة هل كانت تتحدّى حزب البعث... سيما وأنها رفضت بشكل قاطع جميع محاولات الاتحاد الوطني لطلبة العراق وهو أداة البعث في الجامعات العراقية أنها تتحداهم في جامعة بغداد.

ميسون تلك الفتاة الرقيقة بربيعها الثامن عشر تتحدى زمهرير العاصفة!

هل كانت تريد تجسيد بطلة «الفضيلة تنتصر»؟

انا من يراها وهي تخطر في حجابها بوجهها المشرق وطلعتها البريئة يحسبها حورية هبطت من عليائها لتعيش محنة الإنسان في هذه البقعة من دنيا اللهّ..

هذه الرقّة الانثوية تستر وراءها صلابة المرأة العراقية في واحد من أشدّ منعطفات التاريخ العراقي قسوة..

في زمن الرعب في زمن انحنت فيه هامات الرجال أمام العاصفة كانت ميسون تتحدى همجية حزب البعث...

لقد اختارت الطريق الصعب يملأ قلبها الأمل لهذا فهي تنظر إلى ماوراء الافق الملبد بالغيوم، فترى شمساً مشرقة وتشعر بدفء الربيع القادم، ولعل هذا مايفسر ابتسامتها التي تشع ليس على وجهها بل حتى ان المرء يشعر بدفء نظراتها التي تنعكس على وجوه زميلاتها في الكلية..

كانت لها علاقات واسعه مع زميلاتها اللائي يتحلقن حولها ويصغين الى عذب كلماتها وهذا هو السرّ في تعلق أنعام بها وإيمان احياناً عندما تكون أنعام معها يكتسي حديثهما نوع من الجدّية وربما يخيل لمن يراهما في هذه الحالة يتصور انهما يناقشان أحد الدروس لكن لو قدّر لأحد أن يسترق السمع إليهما لسمع أشياء خطيرة جداً أشياء يهاب ذكرها الرجال... ومع مرور الأيام وبالرغم من صخب الحوادث ازدادت العلاقة بينهما ثم

ظهرت فتاة ثالثة هي إيمان واجتازت العلاقه حدود الجامعة إلى مواعيـد في الكاظمية في ظلال القباب الذهبية حيث يخترق دجلة بغداد .

وبدأ تبادل الكتب التي تخفي نشرات سرّية أمراً عادياً..

دقة في المواعيد.. حـذر في الأحاديـث.. والعلاقـات ان كـلاب الـسلطة بحاسة الشم الفائقة الحساسية لم تستشعر وجود خلية منظمة تعمـل بـصمت عميق تضم فتيات وشبان جامعيين وكانت أنعام تـؤدي دور حلقـة الوصـل بين حسام طالب المرحلة الخامـسة في كليـة الطـب و طالبـات كليـة الآداب وخلال لقاء في ظلال نخيل المحيط بـدأت أنعـام تنظـر إلى ميسون نظـرات اخرى.. أنها لم تحب زميلة في الكلية حبها لميسون ان ميسون حورية حقاً أنهـا تختصر الجمال كلّـه.. لقـد وهبهـا اللهّ وجهـاً ينـافس في بهائـه البـدر وعينـين كنافذتين تنفتحان على عالم مفعم بالنقاء.. فإذا تحدثت امتزجت الكلمات مـع ابتسامة محببة حتى يخيل إليها أنها تجلس عنـد سـاقية رقراقـة لهـذا كانـت إذا نظرت إليها تخيلت شقيقها حـسام يقـف الى جانبهـا واذا رأت أخاهـا تـألق خيال ميسون باشراقتها تقف الى جانب حسام وقد انتبهت إلى أن حسام بـدأ يكرر المرور بها في الكلية منذ تعرفها على ميسون.. هل يعني ان قلبه قد خفق بالحب؟!

ما أسعدهما إذن بالحياة!

كانت أنعام مترددة بشأن الموضوع هل تفاتح اخاها بذلك ان والدتها قد

وافقت.. فعندما اخبرتها في الزيارة الأخيرة ابتسمت ابتسامة عريضة لكنها لم تقل شيئاً فزوجها أسير.. لكن ابتسامتها كانت تعبيراً بليغاً عن الرضا سيما وأنها ستكون مجرد خطوبة فقط..

لم تعد أنعام ترى اخاها في الجامعة فالتطبيق في المستشفى أخذ معظم وقته لكنها صممت على ان تفتح معه الموضوع هذه الليلة، فالأخبار المفرحة من جبهات الصراع المرير حيث تشرق الشمس مناسبة لبحث هذا الموضوع..

وصل حسام متأخراً ذلك اليوم وقد اختفت الابتسامة عن وجهه كما تختفي الشمس وراء ركام الغيوم...

انهمكت أنعام في تسخين طعام العشاء وهي تنظر إلى حسام وتنتظر ان يخبرها بالذي يكربه.. أخيراً بدأ حسام ينفث عما في صدره من آهات!

ـ واللهّ لم أسمع وأقرأ عن وحشية مثل وحشية هؤلاء الاوغاد... الحرب كشفت اخلاقية البعثيين بسرعة لأنه لا وقت عندهم للنفاق مرّات اتساءل مع نفسي ما هو المقدس الذي يحترمه هؤلاء هل لديهم مقدسات؟!

أنعام تنظر إلى اخيها نظرة البنت إلى ابيها فهي تحبّه اكثر من والديها كان يشفق عليها ويغمرها بالحنان منذ كانت طفلة صغيرة وهاهي الآن تجتاز الثامنة عشرة وماتزال تشعر أنها صغيرة في حضرته لم تتركه يسترسل في كلامه سألت :

ـ ماذا حصل!!

ـ اليوم كنا نبحث حالة سريرية في المستشفى عن الدفتريا وان أفضل معالجة طوارئ لها هي الشق الحنجري واستحداث ممر جديد للهواء ويستطيع الطفل المصاب من خلال ذلك ان يتنفس..

فجأة انطلقت ضجة في الممر.. الطبيب المشرف قطع حديثه وخرج يستطلع الأمر...

رجال الأمن بشواربهم الكثة وأحذيتهم الثقيلة يزلزلون الممر ... المرضى كانوا في حالة رعب..

كان شاب ينزف في منطقة البطن فاقد الوعي.. ضابط الأمن يصيح بالطبيب بصوت هستيري:

ـ غصبن على اللهّ لازم يعيش...

يمكن لأول مرّة يحضر مدير المستشفى ليشرف على العملية بنفسه...

بعض رجال الأمن كانوا مجروحين.. القضية كانت واضحة محاولة لإلقاء القبض على هذا الشاب اشتباك بالسلاح.. الآن يجب ان يعيش من أجل الاعتراف على رفاقه..

العملية نجحت نقلوه إلى غرفة خاصّة... كان الضابط ينتظر بفارغ الصبر زوال تأثير البنج..

استعاد الشاب وعيه.. وراح ينظر إلى الطبيب الذي اجرى العملية وإلى

الوحش الواقف إلى جانبه...

قال الضابط بقوة :

ـ احسن لك تذكر اسماء جماعتك.. خائن لازم تعترف..

من أين جاء هذا الشاب بهذه الطاقة لكي يردّ عليه بقوة:

ـ واللهّ أنتم الخونة.. دمرّتوا العراق بهذي الحرب..

ـ راح القنك درس واخليك تعترف..

ـ عشرات الأسماء هنا في صدري واتحداكم يا جبناء !

ـ لك انت ما شايف شي لحد الآن..

ـ اعرف كل شيء عن وسائل التعذيب التي استوردتوها من المانيا.. لكن غابت عن بالكم يا أغبياء حقيقة؟!

ـ الموتى لا يتكلمون.. انني شهيد سنهزمكم بشهادتنا مدّ الشاب يده إلى الجرح ومزّق أحشاءه وانبعثت الدماء.. نافورة حب أزليه..

بكت أنعام وشهقت ببكائها..لقد فتح الشهيد الصدر باب هذه المعركة عندما قال: وان الجنة قد فتحت ابوابها لتستقبل قوافل الشهداء حتى يكتب اللهّ لكم النصر..

آه ان الشهيد الصدر يستلهم معركة عاشوراء ويقود قوافل الشهداء حتّى يأتي نصر اللهّ...

دجلة ـ 16

أنعام وميسون جالستان في ظلال شجرتين: صفصاف وكالبتوس في ذلك الصباح الربيعي وقد تفتحت النفوس للحب والحياة كما تتفتح الازهار والورود لأنسام الربيع...

كانت ميسون تتحدث في موضوع تقسيم الادب العربي تاريخياً الى عصور.. وكانت أنعام تفكر كيف تطرق موضوع خطبة ميسون لم تكن تتصور ان هذا سيكون صعباً لقد تمكنت من فتح الموضوع مع أخيها وكانت ابتسامته تتسع.. ولم تعرف أنعام سرّ ابتسامته هل كانت ابتهاجاً بهذا الموضوع أم لأن اخته التي تصغره بأربعة أعوام قد فاجأته بذلك.. لكنه سعد بذلك كثيراً واخيراً قال لها :

ـ أنعام شوفي رأيها أولاً بالموضوع.. ميسون من عائلة ثرية ولا تنسين قضية بغداد والمحافظات..

ـ لاتعقد الموضوع..

ـ ثم الوالد أسير .. والوالدة..

ـ الوالدة راضية وفرحانه والوالد اللهّ يفرج عنه...

ـ فتحتي الموضوع ويه أمي.. بس لا رايحه إلى أهل ميسون ؟!

ـ قطعت مرحلة بس مو لهذا الثخن..

ـ أنعام.. أنعام هاي وين رحتي!! للرفاعي ؟

ـ العفو ميسون تريدين الصدگ رحت قريب يعني ركبت سيارة المشوار قريب..

ـ يعني وين؟!

ـ كنت مع حسام.. البارحة ذكرناك بخير..

ـ الغيبة حرام أنعام :

ـ اكو واحد يغتاب الشمس..

ـ بدت آثار دراسة الأدب العربي .

ـ ليش آنه شگلت ؟

ـ شعر لا لا.. جزء من خطبة .

ـ لا هذ مو شكل خطبة.. الخطبة بيها ايقاع حماسي..

ـ خطبة زواج .

ضحكتا معاً وامسكت أنعام بكف ميسون وشدّت عليها.. وقالت:

ـ حسام يريد يطلب يدك مارأيك ؟

فوجئت ميسون وتوردت وجنتها واطرقت برأسها واشرقت ابتسامة مكللة بهالة من الحياء...

الفرات ـ 16

أمضى حسام ساعات النهار مستغرقاً في عمله كطبيب..

يمضي المرحلة التطبيقية لكن قلبه كان قد استحال الى عصفور هائم بين اشجار الجامعة.. لقد خفق قلبه بالحب.. إن خيال ميسون لا يكـاد يفارقـه تساءل في نفسه كيف تـسنى لأنعـام أن تكتـشف بـذرة حـب اسـتقرّت في أعمق أعماق قلبه؟ !

هل يقدر له أن يعيش مع ميسون في ظلال الزواج الوارفة هل سـيكمل مشوار الحياة برفقتها؟!

عندما توضأ للصلاة ونظـر إلى وجهـه في المـرآة رأى لأول مـرّة الأمـل يتألق في عينيه..

أنّ قلبه ينعم بالدفء ؛ أحقاً ما يقال ان القلب يجد طريقه كالنهر؟!

ومرّت أيام كان حسام مع أخته جالسين في نفس المكان الـذي جلـست فيه أنعام وميسون..

أقبلت ميسون من طرف الحديقة متجهة إلى زميلتها أنعام ويبدو أنها قد

فوجئت بوجود حسام. .

نهض وقدم لها وردة جوري.. توهج وجهها حياءً والقت التحية بصوت هاديء متهدج وجلست إلى جانب أنعام..

مرّت دقائق ونهض حسام مستأذناً للانصراف..

وبعد تبادل كلمات المجاملة قالت أنعام .

ـ متى نزوركم؟

ـ الحقيقة فاتحت أهلي بالموضوع يعني في اطار زيارة زميلة يرافقها أخوها..

ـ يعني زيارة عادية؟

ـ الوالد انتبه فوراً لذلك رحب بالزيارة وقال: أهل الجنوب ناس طيبين.. وأهلاً وسهلاً..

ـ نحدد الموعد على عصر يوم الخميس حتّى من بيتكم نطلع للزيارة..

ـ انشاء اللّه..

وحطت بالقرب منهما عصفورتان.....

تدفق ينبوع الحب في قلب ميسون رقراقاً احياناً تجد نفسها تحلق بعيداً في عمق السماوات إلى ماوراء الغيوم... هل يأتي يوم ينعم فيه الناس بحياة آمنة مطمئنة..

واستعادت كلمات قالها حسام ذات يوم وهو يتحدث عن الطريق

الصعب الذي انتخبوه..

ـ ان طريقنا مليء بالأشواك.. انه طريق الأنبياء..أنّه طريق الحسين وزينب.. إننا ذاهبون إلى كربلاء جديدة وكل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء....

ألم يقل الحسين في يوم عاشوراء.. تركت الخلق طراً في هواكا وايتمت العيال لكي اراكا.. فلو قطعتني بالحب أربا لما مال الفؤاد إلى سواكا؟!

ألم يقل محمد الباقر الذي شهد كربلاء صبياً: وهل الدين إلاّ الحب؟! إن طريقنا هو طريق الخلود ولا معنى للموت فيه كما أنّه لا معنى لليأس ايضاً.

وانسابت في أعماقها كلمات بنت الهدى وهي تتغنى بمجد الحياة الحقيقية:

قسماً وإن ملء الطريق ... بما يعيق السير قدماً
قسماً وإن جهد الزمان ... لكي يثبط فيَّ عزما
أو حاول الدهر الخؤون ... بأن يريش إليّ سهماً
وتفاعلت شتى الظروف ... تكيل آلاماً وهمّا
فتراكمت سحب الهموم ... بأفق فكري فادلهمّا
لن انثني عما أروم ... وإن غدت قدمامي تدمى

ان بنت الهدى كانت تنظر إلى ماوراء الأفق المبّلد بالغيوم لقد أبصرت المستقبل ... ان شمس الحرية سوف تشرق على أرض العراق ذات يوم..

ولولا هذا الأمل الكبير لما وقفت تواجه مع شقيقها نظاماً همجياً ولما قالت وهي تمضي قدماً نحو الله .

ـ أنا كنت أعلم ان درب الحق بالأشواك حافل
خال من الريحان ينشر عطره بين الجداول
لكنني اقدمت اقفو السير في خطو الاوائل
فلطالما نصر الإله جنوده وهم القلائل
فالحق يخلد في الوجود وكل مايعدوه زائل

مرّة سمعت والدها يدندن بابيات من لامية العجم للطغرائي وخاصة قول الشاعر:

مـا كنـت أحـسب أن يمتـدّ بي زمنـي
حتـى أرى دولـة الأوغـاد والسفلِ

وكان يأسف لحذفها من المنهج الدراسي.. حتى أنها فكرت أن تكتب بحثاً عن ظروف هذه القصيدة سياسياً واجتماعياً... ولكن إيمان نصحتها بتأجيل ذلك فقد يثير ذلك شكوك هؤلاء الأوغاد.

دجلة- 17

كان أصيل ذلك اليوم حالماً أو هكذا بدا في عيني حسام فـالمرء ينظـر إلى العالم من خلال مشاعره انه في طريقه إلى منزل من هفا قلبه نحوها..

كانت أنعام قد زارت ميسون في منزلها مرّتين ولهذا عنـدما جـاءت مـع أخيها هذه المرّة فإن الأمر قد بات واضحاً لأسرة ميسون أنها زيارة تعـارف وهي خطوة تسبق في العادة الخطوبة بالغ أبـو ميـسون في ترحيبـه بحـسام الذي أسعده الاستقبال الحار..

وبعد تناول أكواب العصير التي قدمتها أخت صغيرة لميسون تبدد الجو الرسمي ووجـد أبـو ميـسون نفـسه أمـام شـاب في غايـة الأدب والخلـق الرفيع...

وادرك أبو ميسون ان حسام شاب يختلف كثيراً عن ابناء جيله انه يبـدو انضج بكثير ممن هم في سنه وعمره.. وكان في غاية الطيبة لا يبدأ الحـديث إلاّ عندما يشعر أن مضيفه يود سماع رأيه وكان يبدأ حديثه بابتسامة.. وكان لابد للأحاديث ان تعرّج بسرعة على موضوع من موضوعات الحرب التي

مرّ على بدئها اكثر من ثلاث سنين قال أبو ميسون:

ـ هناك أخبار مقلقة حول استخدام العراق اسلحة كيماوية على نطاق واسع.. وهذا تطور خطير في الحرب !

قال حسام:

ـ ان القلق يكمن في صمت المجتمع الدولي.. يعني ان الدول الكبرى ترضى بذلك...

ـ اللهّ سبحانه هو وحده كيف ستؤول الأمور... إلى متى تستمر الأوضاع.. الناس بعد ماتتحمل أكثر من هذا..

وهنا فوجىء أبو ميسون بآراء حسام وهو يقول:

ـ ان شراسة النظام هي انعكاس لهزيمة نفسية يعيشها مجتمعنا.. إذا جاز أن نشبّه حزب البعث بالمرض فان هناك نقص في المناعة لدى الشعب.. يعني لو كان المجتمع يتمتع بمناعة ضد الدكتاتورية ما تسلّط حزب البعث بهذه القسوة والوحشية..

صحيح التاريخ يعيد نفسه.. قطع حسام حديثه قائلاً :

ـ العفو حجي.. شويه نسيت نفسي..

ـ لا أبداً.. اتصوّر تذكرت حادثة تاريخية صحيح !

ـ الظروف التي مرّ بها العراق في زمن الإمام الحسين عليه السلام تتكرّر اليوم.. مسلم بن عقيل سفير الحسين حشّد مايقارب العشرين الف ثائر كلهم

تبخروا لمجرّد شائعات حول جيش قادم من الشام..

الناس اليوم كلهم يتململون من الحرب يتعاطفون مع الإمام الخميني لكن على صعيد العمل والإرادة صفر على الشمال.. والدي يحب الإمام.. كان يعشق الإمام لكن وجه السلاح ضده الآن هو أسير..

مجتمعنا مشلول الإرادة.. الخوف يشلّ الإرادة.. لو الشعب يقدّم تضحيات في مواجهة النظام واحد بالعشرة مما يقدمه بمحرقة القادسية. كان انزاح عنّا هذا الكابوس..

كانت أُم ميسون تسترق نظرات خاطفة لحسام... أما أنعام فكانت منهمكة في حديث مع ميسون وأخواتها..

أحدثت كلمات حسام دوياً في أعماق أبو ميسون فهو يتحدث بثقة عالية ويقول أشياء في غاية الخطورة..

إن صدّام هو غدة سرطانية يجب استئصالها بأي ثمن.. ان الحياة الهانئة تتمثل في ثلاثة أشياء.. يقول الإمام الصادق: الناس جميعاً يحتاجون ثلاثة؛ أشياء الأمن والعدل والخصب.. نحن الآن نعيش في حالة خوف مستمر.. الظلم في كل مكان والبلد استنزفته حرب مدمرة.. صدام يمثل خطراً على مستقبل البلد.

لأول مرّة يشعر أبو ميسون بالخطر على ابنته.. ان هذا الشاب لن يحيا طويلاً ان عمره كعمر الفراشات.. إنه يتحدث بطريقة تكشف وجود

بركان غضب يتفجر في أعماقه ان هذا الهدوء في حركاته في نظراتـه يعكـس ايماناً راسخاً بالطريق الذي يسلكه.. ان حسام يعلن الحرب على نظـام هـو من أسوأ الأنظمة واكثرها همجية..

امضى أبو ميسون وقته مطرقاً برأسه يصغي إلى كلمات ثـائرة لهـذا الطبيـب الشاب.. انه يشفق عليه منذ الآن. إنه شاب في غاية الشرف والكرامة لكنه لـن يكون صهره أبداً.. أبداً.. ان هـذا البركـان سـوف ينفجـر ثـورة ولـن تكـون ميسون بمأمن من هذه الحمم... نظر حسام إلى ساعته والتقت نظراته بنظرات ميسون وأنعام.. واستأذن في الانصراف..

حاول أبو ميسون ابقاء ضيفه للعشاء !

ـ ابقوا للعشاء.. واللهّ هذا بيتكم.. بدون مجاملة..

ـ شكراً حجي ورانا زيارة.. هذا بيتنا.

قالت أنعام بمودة :

ـ عمي أبو ميسون.. انت بمكان الوالد..

ـ اللهّ يفرج عنه.. انتم مثل ولدي أي شيء تحتاجون انا برسم الخدمة.

ـ اللهّ يحفظك حجي..

ـ زين خلّي أوصلكم..

ـ شكراً حجي نريد شويه نتمشى

ـ على راحتكم.. أهلاً و سهلاً..

وخرج الجميع لتوديعهما إلى الباب.. ومكثوا واقفين إلى ان غابا في المنعطف..

ومرت أربعة أيام لم يتحدث أحد من أسرة ميسون في موضوع الزيارة وتظاهر أبو ميسون بأن ما حصل كان مجرد زيارة عادية إلى أن عادت ميسون من الجامعة وبرفقتها زميلتها أنعام.

كان أبو ميسون خارج المنزل.. وفتحت أنعام الموضوع..

- خاله أُم ميسون.. أخويه حسام يطلب يد ميسون.. والحمد للهّ حسام مو لأنه أخويه.. شاب متدين وخلوق والمستقبل أمامه.

ما احلف لكم حسام شاف في ميسون الأخلاق العالية والأدب والكمال.. وميسون نخلّيها بالعيون شنو تأمرون نگول حاضر!

ابتسمت أُم ميسون واطرقت ميسون برأسها حياءً قالت أُم ميسون:

- أنعام بنتي! ميسون بعدها طالبة وحسام اللهّ يخليه بعده في بداية الطريق.. وامر ميسون بيد والدها..

- زين خالة ننتظر رأي عمي وانشاء اللهّ خير..

- انشاء اللهّ

غادرت أنعام وبرفقتها ميسون التي اخبرت والدتها بانها ذاهبة إلى بيت خالتها..

وفي المساء عندما عاد أبو ميسون اطلعته زوجته على رغبة شقيق أنعام

في التقدم لخطبة ميسون وطلب يدها..

قال أبو ميسون:

ـ واللهّ الولد خوش ولد متدين ومؤدب لكن واضح انه سياسي.. وأنت تدرين النظام مايرحم لا الصغار ولا الكبار.. أنا ماراضي..

ـ أمرك أبو ميسون.. أنت ح تكلمهه؟

ـ من تجي أنا افهمهه..

* * *

كانت ميسون في غرفتها تذاكر دروسها عندما نقر والدها على الباب ودخل وجلس على طرف السرير وكانت ميسون جالسة الى منضدة صغيرة.. اطبقت الكتاب ونظرت إلى والدها بحب قال أبو ميسون:

ـ بنتي ميسون !

ـ نعم بابا

ـ أنت بنية عاقلة وتفكرين بالعواقب.. انا وامك نتمى لك السعادة والخير. ورأيي ورأي أُمك هماتين هذا الشاب لايحقق لك السعادة..

صحيح انه طبيب ومتدين وخلوق..

أطرقت ميسون وقد تجمعت في عينيها الدموع كغيوم ممطرة..

ـ ...

ـ ماكو شك في صواب اختيارك نعم الشاب.. لكن واضح انه متدين

جداً ويبدو عليه انه سياسي... وانت تدرين صدام ما يـرحم مـن يعارضـه فكيف بمـن يحاربـه.. انـت نـسيتي شـلون عـدموا صـف كامـل بإعدايـة الكاظمية لأن شافوا على السبورة شـعار يـسقط صـدام حـسين.. أطفـال أكبرهم سبعطش سنه!!!.. شنوذنبهم؟!! هذوله وحوش.. بنتي.. تعرفين معنى وحوش؟!!

بصراحة أنا قلق عليك.. أُمـك ايـضاً قلقـة.. اخواتـك.. هـذا الـشاب مايعمرّ مصيره واضح.. أنت تمشين إلى الموت بقدميك..

كانت ميسون مستغرقة في صمت مدوّي.. وخطر في ذهنها بيـت شـعر شائع على سبيل اللغز :

إلى حتفــى ســعى قــدمي   أرى قــدمي أراق دمــي

سقطت قطرة من دمع فوق الكتاب الذي بين يديها هي أول قطرة دمـع انبجست من ينبوع الحب الطاهر الذي ربط بين قلبي ميسون وحسام.

وشجع صمت ميسون والدها فاستطرد في حديثه :

- بصراحة نحـن خـائفون عليـك.. طـرأ عليـك تغيـير كبـير ارجـوك ياحبيبتي ان تتفرغي لدراستك وتنـسين هـذا الـشاب.. وأي شيء تطلبيـه يتحقق.. أي دولة تريدين تسافرين لها حاضر ارتـب دراسـتك بالخـارج في أي دولة..

اشتري لك احسن سيارة.. انت الآن في بداية ربيع حياتك اتركـي هـذ

الشاب لأنّه يسير في طريق لايعود عليك الآّ بالموت والدمار.. عليك وعلى اسرتك.

اخضلت عيناها بالدموع ولاحظ الأب ان ابنته لـن تتحمـل أكثـر مـن ذلك فانسحب من المكان بصمت..

أما ميسون فقد وضعت وجهها بين كفيها واستغرقت في بكاء مرير..

دجلة ـ 18

كانت أمسية شتائية ميسون في بيت خالتها وقد جلستا معاً إلى مدفأة نفطية تشع الدفء من حولها؛ المطر ينقر زجاج النوافذ المطلّة على حديقة المنزل الصغيرة..

كان والد ميسون مايزال مصراً على موقفه في رفض الخطوبة وقد تزايدت مخاوفه في أن تكون ابنته الحبيبة قد اندفعت بعيداً وانتمت إلى تنظيم سياسي محكوم عليه بالاعدام منذ ثلاث سنين.

طلبت أُم ميسون من اختها ان تنصحها وأن تترك هذا الشاب قالت الخالة بحنان:

ـ خالة ميسون تدرين اشگد أحبچ اول مافتحتي عيونچ عليَّ قبل الوالدين..

ـ خالة آنا هماتين احبچ إذا مو مثل امي مو اقل.

ـ بنتي ميسون.. ماتحتملين رأي أبو ميسون هو الصحيح ؟

هو يخاف عليچ وعلى حسام بنفس الوقت..

انزلقت خصلة من شعرها الذهبي فوق فستان ازرق وبدا وجهها البرىء يضيء بنور شفاف تساءلت :

ـ ليش كل هذا الخوف؟ !

ـ تتدخلون بالسياسة.. أبو ميسون حاسس أشياء وراء اللقاء مع بنات المحلّة.. ونشاطك بالكلية وعلاقتك بحسام..

تهدج صوتها وهي تقول:

ـ علاقتي بحسام علاقة طاهرة.. أختار الحياة معي وأنا أيضاً وجدت فيه الإنسان الذي يمكن الاعتماد عليه.. اول شيء الدين والاخلاق وآخر شي الدين والاخلاق.. واللهّ حتى من يكلمني مايرفع رأسه ... واللهّ حرام خاله.. ليش هذا الظلم. .

ـ ميسون بنتي انت في بداية شبابك اهتمي بالدراسة افكارك حتتغير ونظرتك إلى حسام هماتين حتنسينه بعدين اليوم تشوفيه مناسب پاچر حتشوفيه بالعكس.. .

ـ الحب الحقيقي يا خالتي ثابت وراسخ، أنه كالشجرة جذورها نابتة في أعماق القلوب المؤمنة.. إن حبّنا هو جوهر الإيمان باللهّ والحياة الطيبة انه طريق إلى اللهّ وهو شعله من الحب الحقيقي..

إن حبنا ياخالة يطوف في سماء مرصعة بالنجوم إنه نعمة من نعم اللهّ حبنا طاهر لا تشوبه من أوحال الإنانية شائبة..

أشعر ياخالة إن إيماني يتفتح أكثر فأكثر.. إنني أشعر بالسعادة تغمرني.. إنني أشكر اللهّ على هذه النعمة.. إنني لم أتحدث إلى أُمي كما أتحدث إليك..

انظري ياخالة إلى الأسر والعوائل التي تنهار لأن العلاقات الزوجية لم تنهض على أسس قوية من الحب والإيمان..

لأن قلوب الشباب خاوية خالية من نعمة الحب الحقيقي.. الحب الذي ينهض على المبادىء السامية.. ان حبنا ياخالة منصهر بكلمة اللهّ. انني ازداد ايماناً بالحياة الإنسانية.. انت تعرفين ياخالة الظروف التي نمرّ بها.. تعرفين اننا نعيش في سجن رهيب تعرفين نذالة هؤلاء.. تعرفين محاربتهم للدين والإنسانية والاخلاق.. اتريدين ان اقف إلى جانبهم ضد هؤلاء الشباب الذين يضحون بأنفسهم وارواحهم من أجل الحرية والكرامة؟ لماذا نبكي على الحسين ثم نتركه وحيداً؟ لماذا..

- بنتي ميسون هذا كلام خطير.. كلنا نخاف عليك... البعثيين مايرحمون حتى الأطفال..

- ياخالتي العزيزة ان قوتهم وقسوتهم نابعة من خوفنا. الإنسان المؤمن لا يخاف أحداً إلاّ اللهّ..

يا خالة إن الحياة تفقد طعمها عندما يعيش الإنسان خائفاً .

- واللهّ يا ميسون انت من كنت صغيرة عاقلة.. أنا ما أشك لحظة في صواب اختيارك..

وعانقت الخالة بنت اختها:

ـ ح اكون أول من يبارك لك.

وابتسمت ميسون ابتسامة رضا واضاءت الفرحة وجهها.

كان المطر مايزال ينهمر وكانت السماء ما تزال مثقلة بالغيوب وقد جرت خيوط المياه فوق الأرض التي تتشرّب منذ أيام ماء المطر..

منذ اللحظات الأولى أدرك أبو ميسون ان اخت زوجته قد أخفقت في اقناع ميسون لكنه فوجئ قليلاً بأن الخالة قد جاءت لاقناعهم بالموافقة على انتخاب ميسون:

ـ اختي أُم ميسون: ميسون مثل بنتي.. وتعرفونها زين عاقلة ومتدينة وتعرف صلاحها.. والولد خوش ولد.. ماأدري ليش هذا التشاؤم.. عيني أبو ميسون الأعمار بيد اللهّ.. اللهّ سبحانه هو اللي يحميهم ويسعدهم.. وصدگوني بعد الزواج حيتغيرون وحينشغلون بالأطفال والمسؤوليات والحياة.

قال أبو ميسون:

ـ واللهّ ماعندي أي اعتراض على الولد.. لكن هذا الشاب دا أشوفه يمشي بطريق نهايته واضحة.. واللهّ حيرة ياناس..

ـ الزواج قسمة ونصيب أبو ميسون..

التفت صوب اختها :

ـ شنو رأيك أُم ميسون؟

ـ والله انا حايره.. ميسون موطفلة حتى نفرض او نرفض.

ابتسم أبو ميسون لبلاغة زوجته..

وانتهزت اختها هذه الفرصة لتقول:

ـ ميسون اعرفها كلش زين.. إذا رفضتوا حسام.. حتبقى بدون زواج .

ـ شنو تقصدين؟

ـ كلامي واضح.. البنية تريده والولد يريدها.. ما اعتقد حتزوج غيره ابداً.

بدا أبو ميسون مستسلماً وهو يقول:

ـ آني ماراح اتدخل.. الأمر يم أُمها..

أدركت خالة ميسون ان هذه موافقة وإن كانت لاتتضمن رضاه..

وقبل ان تغادر الخالة قال أبو ميسون من دون أن ينظر إلى أحد:

ـ خطوبة وعقد.. الزواج بعد التخرج..

ـ صار تأمر أبو ميسون..

الفرات ـ 17

رأى نفسه يسير حافياً في طريق ملي بالأشواك.. فجأة ظهرت ميسون ترتدي ثوباً سماوياً مدّت يدها لترافقه وقبل أن تتعانق الكفان هبّت عاصفة مجنونة دفعتهما إلى نهاية الطريق وكلما حاول أن يمسك بيدها أخفق وظل ينظر إليها فقط.. استيقظ حسام على أصداء أذان الفجر فأزاح البطانية ونهض للصلاة..

قال لأخته وهو يتناول الأفطار..

ـ لا أظن النتيجة تكون إيجابية ؟

ـ تفاءلوا بالخير تجدوه .

ـ حتى لا تتفاجئين .

ـ تعلم الغيب!!

ـ إذا صدقت رؤياي فالنتيجة سلبية .

ـ أكثر الأحلام أوهام.

وقص حسام على أخته رؤياه.. فقالت:

ـ يمحو اللهّ مايشاء ويثبت ... وعلى كل حال فعند جهينة الخبر اليقين...

* * *

جلست ميسون وحيدة أمام المدفأة كانت تفكر في حياتها لقد كسبت الجولة الأولى على مايبدو ان اقتناع خالتها يعني ان والدتها ستوافق.. لكن والدها لايمكن تغيير موقفه...

ما الذي جناه حسام لكي يعامل بهذه الطريقة؟! هل لأنّه اختار الحياة بكرامه؟ هل لأنّه سلك الطريق الشائك.. ألأنه رفض الانحناء للطغاة؟

وقعت عيناها على بيت شعر كان بداية تعرِّفها على أنعام وعلى حسام ابتسمت وقد اشتعل في ذاكرتها مشهد أنعام وهي تقول لميسون ذات صباح:

ـ اين الفاعل في هذا البيت:

مـــا نـــالني في ودّهـــا لا والــــذي عـــزّ وجـــل

أظن أن البيت ناقص ولا وجود للفاعل...

نالني: فعل ومفعول به في ودها جار و مجرور ومضاف ومضاف إليه..

لا: نافيه ثم يأتي القسم ..

ـ دققي جيداً .

ـ الفاعل ضمير مستتر تقديره.. .

ـ الاجابة خطأ

ـ البيت ناقص

ـ البيت كامل والفاعل ظاهر.

ـ واللهّ يدوّخ

ـ انا مثلك في الدوخة

ـ شنو قصدك؟

ـ الحقيقة أخي حسام طالب في كلية الطب المرحلة الخامسة اختبرني بعدما دخت كشف عن اللغز...

ـ وين اللغز؟

ـ دقفي في الشطر الثاني في كلمة عزّ وجل.. الحقيقة ان القسم والذي عزَّ نقطة أما وجل فمعناها خوف وهي الفاعل.. .

ـ مضبوط يكون المعنى: ما نالني وجل في ودّها لا والذي عزَّ

انطفأ المشهد ليشتعل مشهد آخر.. كانت برفقة أنعام ومعهما طالبة اخرى تدعى ايمان.. ذهبن معاً إلى مرقد الإمام الكاظم.. وقرأت دعاء كميل بصوت شجي حتى أنها رأت دمعة في أهداب أنعام..

وعندما خرجن إلى الصحن أشارت ميسون إلى جمع من النسوة المتلفعات بعباءات جنوبية وقد عصبن رؤوسهن:

ـ كلهن أُمهات يبكين على أولادهن في السجون اللهّ يساعدهن..

قالت أنعام:

ـ اللهّ يكون بعونهن .

ـ اللهّ ينتقم من كل ظالم بجاه الإمام الكاظم. .

وفي ذلك اليوم بـدأت أنعـام تلـوّح مـن بعيـد إلى ضرورة العمـل عـلى التغيير وان المؤمن أقوى من الجبل.. وان العمل المنظم هو المطلوب.. وقـد قـال سـبحانه وتعـالى: ﴿وَقُـلِ اعْمَلُـوا فَـسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُـمْ وَرَسُـولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

أوصى الإمام علي بذلك في قوله: اوصيكم بتقوى اللهّ ونظم أمركم..

أخيراً قالت أنعام بعد كلام طويل :

ـ الحقيقة أنا مكلفة بمفاتحتك بموضوع العمل الحركي..

اشـتعل مـشهد آخـر أنعـام ترافقهـا في اروقـة الكليـة ثـم إلى ركـن في الحديقة.. تفتح حقيبتها وتخرج دفتراً صغيراً :

ـ هذه مجموعة من القصائد نقلتها من كتب ومجـلات أعجبـت بهـا أنـه هدية لك..

ـ وهل فيها ألغاز؟

ـ بالتأكيد في بعضها لغز كبير.. ولن أخبرك به أبداً حـاولي أن تكتـشفي بنفسك..

انطفأ المشهد..

ميسون ماتزال وحيدة في بيت خالتها.. التي لم تعد بعد ألقت نظرة على رف صغير حيث اصطفت فيه بعض الكتب ولاح دفتر أنعام انبعثت رغبة في أن تقرأ بعض قصائده.. وفي هذه المرّة كان طيف حسام يلوح في صفحاته.. لاشك في أن حسام هو من وراء هذه الخطوة.. لقد تعرفت على خط أنعام ان هذا الخط لايشبه خطها..

كانت قد وجدت بعض الكلمات وقد شطبت لايمكن قراءتها..

ا ن هذا الدفتر يعبر عن وجود رسالة ضمنية قرأتها بدقة..

راحت تتصفح الدفتر من جديد وتوقفت أمام كلمات حزينة مفعمة بالثورة ودّت لو تعرف صاحبها :

ـ في النجف الأشرف

يا بلادي الحزينة

يا قلعة الأبطال يا بيارق المدينة

ولدت مثل شعلة تعبر وجه الدرب

تنوّر الفيافي الخضراء

كنت لها البرعم ان اقحلها الأعداء .

يا وطني يا قلعة الإباء

يا مرفأ الأئمة الأطهار

يا جنينة السماء

ماذى جرى؟!
سماؤك الزرقاء مكفهرة
وارضك الخضراء
تحرقها بنادق الاعداء
تركت فيك الف الف بيرق
والف الف ثائر
والف الف قائد
يعانق السماء
يلوي وجوه القدر الغاضب كالعنقاء
ماذى جرى؟!
أما ترى ايران
قد ثارت بلا هوادة
تدك حصن الظالم المارد بالدماء
وتعشق الموت بلا وسادة
يا وطني!
ماذا جرى؟!
وراحت تقرأ قصيدة أُخرى لثائر مجهول:
ـ مقدمة

ثلاث مرّات سقطت بغداد تحت الاحتلال الهمجي
فمرّة حين غزا ترابها المغول
ومرّتين حينما جاء للحكم بها النغول.
ومرّة رابعة ذاك يسمى ا لمستحيل
القصيدة :
- حين يفتش في الليل عن الأحباب
ويقادون إلى حيث يقيم البعثيون
الحفلة كل مساء في السرداب
تقطيع الايدي
تكسير الأرجل ثقب الركبة بالمثقاب
آلات يعرفها الشرف البعثي
وتشق مثانة عبد السادة بالسيخ المحمي
ويذوب عبد الصاحب بالتيزاب
حين تكون الخسة قانوناً
يحكم في بغداد بغير كتاب
والشرطي الأول ذا أنياب
لا يتورع حتى عن أكل رؤوس الأطفال
لا تمنعني أن آخذ سيفي

وأقاتل ضد عصابات البعث نظام الإرهاب .

أغلقت الدفتر واعادته إلى مكانه .

كان اللهب الأزرق والسكينة التي تغمر المنزل تلهب الذاكرة فتتألق المشاهد الواحد تلو الآخر..

إنها لن تنسى أول حوار لها مع حسام كانت إيمان وأنعام حاضرتين لكنها لم تشتركا في الحديث.. فالتعليمات الجديدة التي جاء بها حسام من رأس الخلية واضحة ومنطقية..

توقف فوري عن توزيع المنشورات داخل الجامعة قالت ميسون:

ـ لماذا؟

- لأن هذا يثير الأمن ويدفعهم إلى تشديد المراقبة

ـ ولكن توزيع المنشورات جزء أساسي من العمل الحركي؟ !

ـ إذا كان الهدف من ذلك نشر الوعي وفضح حقيقة النظام فإن الأمر قد بات واضحاً للجميع.. ليست المشكلة في جهل الناس بالحقيقة كل العراقيين يعرفون حقيقة هؤلاء لكن المشكلة تكمن في هذا الجدار من الخوف الذي يجب تحطيمه قالت ميسون:

ـ ان توزيع المنشورات يسهم في تحطيم حاجز الخوف فالطالب عندما يقرأ هذه المنشورات التي تهاجم النظام وتفضح أساليبه فإن ذلك سوف يقلل من مخاوفه.. لكن إذا استمر الطالب يسمع عبارات التأييد للنظام

وصدام ويرى الشعارات التي تمجّده فأنه سوف يتشرّب هذا الواقع المزوّر..

انني أذكر جيداً ماقلته سابقاً في ان قوة النظام نابعة من احساسنا بالخوف منه..

ـ ليس هذا فقط وايضاً من حب الحياة بأي ثمن.. على أي حال أنا اشاطرك الرأي لكن هناك رأي يصرّ على التحضير لعمل أقوى يزعزع هيبة ا لنظام ويكسر حالة الخوف في النفوس أكثر..

أنها لن تنسى ذلك الموعد الخطير عندما سلمتها أنعام ورقة صغيرة تتضمن كلمات معدودة.. إنه ينتظرها غداً صباحاً أمام بناية مدينة الطب.. حدست بأن المهمة التي ستقوم بها ستكون خطيرة هذه المرّة. كان حسام ومع شاب آخر يتحدثان، عندما وصلت ميسون التي تظاهرت بأنها تسأل عن شيء قبل أن تدخل البناية..

وبكلمات مختصرة جداً وإشارات تمثيلية قال حسام :

ـ سلّة البرتقال تصل إلى العلاوي بعد ساعتين من الآن الشخص الذي يحملها يرتدي بدلة رصاصية.. كوني حذرة جداً..

ولا تنسي بقية الاشارات..

شكرت ميسون حسام واتجهت إلى داخل البناية لتخرج بعد دقائق متجهة إلى المكان المحدد..

استلمت سلّة البرتقال في المكـان والزمـان المحـدد.. وسـاورها هـذه المـرّة شعور بخطورة ما تقوم به لقد حملت عشرات المنشورات بـل مئـات. وكانـت تشعر بأهمية ما تقوم به.. أنها تسهم في توجيه ضربـة لنظـام البعـث الهمجـي.. سوف نزيح عنك كابوس الاحزان ايتها العزيزة.. بغداد ترتدي حلّة الحـداد.. لقد سلب النظام الفرح حتى من وجوه الأطفال..

أنها لن تنسى كلمات أنعام: اخبرني حسام بـان العمليـة الجراحيـة تمـت بنجاح كامل وتمكن الجرّاح من القضاء على امتـداد سرطـاني وانتـشر خـبر انفجار قناني غاز في مبنى المنظمة الحزبية في الكاظمية..

وكانت الفرحـة واضـحة عـلى وجـه والـدها الـذي عـاد يحمـل علبـة حلويات ولما سألته أُمها عن مناسبة ذلك قال:

- يعني إلاّ بالمناسبات.

آه لو يعلم والدها من قدّم له هذه الفرحة في هذا الزمن المرّ؟ !

الفرات ـ 18

أرأيت كيف تتلقى الأرض العطشى غيث السماء.. أرأيت كيف يبتسم الأفق مع أول خيط للضياء؟ هكذا كان قلب حسام وهو يتلقى النبأ الذي رسم في عينيه اقواس قزح وفجر في قلبه نبعاً من الفرح.. اخيراً وافقت الأسرة على استقباله ... قال لأخته:

ـ معقولة بس هذا الحلم ما تفسيره ؟

ـ أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين..

كان على أنعام أن ترتب لقاءً بين أخيها وميسون وكان أفضل مكان في ظلال ضريح الكاظمين..

كان الوقت ضحى مفعماً بشمس دافئة وقد لملم شباط رياح العجوز ولاحت بشائر آذار.. وقفا معاً في مكان زاخر بحمام الزاجل وكانت ميسون تجد في هذا راحة نفسية كبيرة لأنّه يثير مشاهد من ذكريات الطفولة. أحياناً تثير الرائحة والأصوات قوّة على استعادة الماضي البعيد

كان منظر الحمام كافياً في أن تستعيد ميسون ذكريات طفولة بعيدة كانت تنظر إلى الحياة فتراها مفعمة بالنور والسلام أما الآن فإن مرارة الواقع يسلب المرء الاحساس بالحياة لولا نوافذ مفتوحة في السماء لعم الظلام الأرض أنها الآن تقف على بقعة تنفتح عليها السماء وتقف إلى جانب ا لإنسان الذي تحب.

قال حسام وهو يحدق في منظر الحمام وهو يلتقط الحب..

ـ إذا ماتمانعين يكون موعد زيارة الأهل الخميس القادم.

قالت بدلال:

ـ ولماذا العجلة ياحسام !

قال وهو يقلّد صوتها:

ـ ولماذا ا لتأخير ياميسون؟

قالت وقد أحاطت وجهها المضيء هالة من الحياء:

ـ أليس لكل فتاة مهر؟

ـ انني أضع قلبي وروحي على طبق من الاخلاص لك.

ـ أنا واثقة من شعورك.. لكن المهر الذي أطلبه لا تطلبه غيري..

ـ لا أكاد أفهم شيئاً .

ـ مهري ياحسام هو تنفيذ العملية.. أنت تعرف..

قاطعها بأدب:

ـ ما رأيك في أن نتمشى إلى النهر.. أظن أن حديثنا سيطول ومن الأفضل عدم البقاء هنا أكثر من هذا الوقت..

ـ كما تحب

في غمرة العاطفة المتأججة في قلوب المحبين نسيا أنعام وغادرا الصحن بعد أن انحنيا تحية إجلال لسجين بغداد الشهيد..

عندما عادت أنعام لم تجدهما فابتسمت، انهما معذوران على كل حال!!

كان حسام وميسون قد شارفا الوصول إلى شواطئ دجلة وكانت المياة الغرينية تتجه جنوباً في رحلتها اليومية إلى الخليج.. حيث يجلس الغريب يسرّح البصر الحزين..

قال حسام وقد تتأججت العاطفة في قلبه:

ـ إن ا للهّ الذي قدّر لدجلة والفرات أن يلتقيا وأن يؤلفا نهراً واحداً يصب في البحر.. قدّر لميسون وحسام أن يلتقيا وأن يتوحدا ليؤلفا كياناً واحداً يصب فى بحر الحياة..

قالت ميسون منتشية:

ـ لا أدري هل أنت طبيب أم أديب

ـ كلاهما يهتم بالحياة.. كلاهما يعشق الحياة..

ـ أتريد أن تقول أن لا فرق بين الأدب والطب!

ـ الطب وسيلة للحفاظ على حياة الإنسان.. والأدب يتغنى بالإنسان والحياة..

وعندما وصلا الضفاف قال حسام وهو يبستم

ـ نعود إلى صلب الموضوع كما يقول الشيخ الوائلي:

قالت ميسون بهدوء تام.

ـ أنت تعرف خطورة العملية القادمة أنها مصيرية.. لهذا رأيي تأجيل الخطبة الى مابعد التنفيذ.. وحينئذ أشعر انني حصلت على مهري..

همس وهو يتخيل نجاح العملية :

ـ مهر ميسون.. ايمكن أن يحصل ذلك وتنزاح كوابيس الخوف والرعب عن صدر العراق ا لحبيب؟

ما أسماك ياميسون، حتى مهرك عجيب.. ليس من ذهب ولا فضة إنه مضمخ بصهيل ذي الجناح.. لم يسحرك رنين الذهب.. انك لا تتطلعين إلى هذا الرنين الذي يخطف العقول، إن ما يسحرك ويشدّك رنين تحطم السلاسل والأغلال عن ملايين المعذبين..

تذكر كيف جاءت أنعام تروي له حكاية تعرفها على فتاة..

فتاة كأنها حورية في مظهرها في براءتها ونقاء روحها.. وما أثار دهشتها إنها من عائلة ثرية لكنها لم تر في يديها أساور من ذهب أو فضة.. بل إنها لم تصدّق أن والدها يملك محلاّ للحلي الذهبية في شارع النهر..

ما أنبلك يا ميسون وأنت تطلبين الحرية للعراق مهراً، أي مهر هذا الذي تنشده فتاة لما تبلغ العشرين بعد؟ !

من يصدّق هذا الانعتاق من أسار المادة في زمن الحرب في زمن تتزلزل فيه القيم الأخلاقية.. وتستيقظ فيه الغرائز تعربد وتدمّر.. وتعتقل فيه الإنسانية لتودع في سجن تغمره الظلمات..

قال حسام:

ـ تسلّمت خرائط جديدة وهامة لكننا ما نزال في بداية الطريق.. وعرّفنا المهندس على أخ مثقف وقدير وله تجربة سابقة اطلق سراحه من الاعتقال قبل أشهر.

اننا ندرس الموضوع من كل جوانبه..

ـ أنا متفائلة جداً رأيت قبل ليلتين اني أطير في فضاء سماوي اللون حرّة طليقة وكنت اتعجب لخفّة انتقالي.. اظن وزني اخف من الريشة لقد كنت سعيدة.. سعيدة جداً.. لهذا أنا متفائلة.. ان نصر اللهّ قريب.

اتفق حسام وميسون على تأجيل الخطوبة الرسمية واجراءات العقد إلى ما بعد تنفيذ واحدة من اخطر العمليات الجهادية المصيرية..

سألت ميسون وهي تتطلع إلى يوم الخلاص:

ـ متى سيكون اليوم الموعود؟

ـ إنه قريب.. قريب جداً.. في شهر حزيران إن شاء اللهّ، إنها عملية

حساسة جداً والمعلومات فيها.. يجب أن تكون دقيقة للغاية وأغلب الأخوة لايعرفون تفاصيلها.

وانطلقت ميسون تحلّق في أرض الخيال عصفورة حرّة تطير في فضاء سماوي فترى وطناً يرفل بالحرّية وينعم بالأمان والسلام....

دجلة ـ 19

ميسون في طريقها إلى مرقد الإمام كانت ليلة جمعة.. الربيع يلملم بعض أزهاره قبل ان يحرقها لهيب صيف قادم..

لأول مرّة وهي تزور الضريح الطاهر تتخيل الإمام أنها تزوره سجيناً في إحدى زنزانات سجن المطبق الرهيب..

وقفت في إحدى الزوايا المرصعة بمئات المرايا وانسابت كلمات الزيارة لتندمج مع همسات الزائرين.. هنا تمتزج الدموع والأحزان والأماني والأحلام والدعوات والأمل بغد أفضل.. حقاً ان أعظم مايملكه فرد أو أُمة هو الإيمان وصدق الإمام الشهيد وهو يقول:

ما قيمة ان يربح الإنسان العالم كلّه ويخسر نفسه..

السلام عليك ياولي الله وابن وليه السلام عليك ياحجة الله وابن حجته..

السلام عليك يانور الله في ظلمات الأرض..

السلام عليك ياامام الهدى.. السلام عليك ياعلم التقى..

السلام عليك ايها الإمام الصالح

السلام عليك ايها الإمام الزاهد

السلام عليك ايها الإمام العابد

السلام عليك ايها المقتول الشهيد

السلام عليك يابن رسول الله وابن وصيه

السلام عليك يامولاي ورحمة الله وبركاته .

أشهد أنك قد بلغت عن الله ما حملك وحفظت ما استودعك وحللت حلال الله وحرّمت حرام الله وأقمت أحكام الله وتلوت كتاب الله وجاهدت في الله حق جهاده..

وأشهد أنك مضيت على مضى عليه آباؤك الطاهرون الأوصياء الهادون.. وأنك أديت الأمانة.. وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر وعبدت الله مخلصاً حتى أتاك اليقين. .

اتيتك يابن رسول الله زائراً عارفاً بحقك لائذاً بضريحك مستشفعاً بك إلى الله..

بابي أنت وأُمي ونفسي وأهلي يابن رسول الله اتيتك متقرباً بزيارتك إلى الله تعالى ومستشفعاً بك إليه فاشفع لي عند ربك ليغفر ذنوبي ويدخلني الجنة ويغفر لي ولآبائي ولاخواني واخواتي ولجميع المؤمنين والمؤمنات في مشارق الأرض ومغاربها..

بدا أبو ميسون أكثر قلقاً عندما سمع بأن ميسون قد طلبت تأجيل الخطبة إلى وقت آخر وكان فى قراره نفسه لايصدّق بأن ابنته ربما راجعت نفسها وأعادت التفكير في هذا الموضوع..

أراد ان يفاتحها في الأمر. ولكنه فضل التريث لأيام أخرى فقد تتوصل إلى رأي نهائي وينتهي كل شيء بسلام .

حتى أنعام عندما سألتها عن السبب أكتفت بالقول: أنها اتفقت مع حسام في ذلك.. وكان موسم الامتحانات كافياً في تفسير هذا التأجيل الذي لم يكن متوقعاً..

ولم تكن أنعام على علم بما يجري في الآونة الأخيره.. فحسام لم يفاتحها في شيء ولهذا فقد كانت تخمن أن الأمر لايعدو سوى الحصول على بعض الخرائط التي تحدد مواقع قوات الحرس الجمهوري.. .

تسلّم حسام قبل أسابيع قصاصات ورقية مكتوبة باليد وبخط رديء إلاّ أنها كانت في غاية الأهمية لأنها تتضمن بعض تفاصيل عملية الدجيل التي كادت أن تضع حداً لمأساة الشعب العراقي.

بالرغم من اخفاقها إلاّ أنها أودعت بذرة الأمل.. حقاً ان الجماهير أقوى من الطغاة.. كان الثمن باهضاً جداً شرّد الكثيرون واعتقلت عوائل نساء ورجال وأطفال في سجن صحراوي واختفى آخرون.. عشرة آلاف شجرة مثمرة تم قطعها وسويت عشرات المنازل بالأرض..

وللمرّة الثانية التقى حسام ذلك الشاب الذي زكّاه المهندس أحمد قال أنّه اعتقل بعد تخرجه من معهد التكنولوجيا واطلق سراحه سنة ٨٢ .

التاريخ يشير إلى يوم الجمعة العشرين من مايس سنة ٨٤ كان حسام جالساً مع أحد رفاق الدرب من الذين يعرفون بالتحضير لعملية ما، لكنه يجهل طبيعتها.. قال حسام وهو يحدق في وجه صديقه الذي بدا كسماء ملبّدة بالغيوم:

ـ حاول أن تنظر إلى الوجه الآخر من العملة !

أجاب بألم:

ـ هذه ليست عملة يا حسام.. الحرب تزهق ارواح الاف الضحايا.. والمشانق تحصد مئات الشباب.. ارتفعت وتيرة الإعدام بعد هزيمة النظام في خرمشهر.. كل من يعتقل يعترف من شدّة التعذيب والبعض ينهار بشكل خطير:

ـ تقصد يعترف على اخوته؟

ـ أبعد من ذلك قد يتعاون معهم.. يصبح وكيل أمن يصعب كشفه..

شعر حسام بشيء ينغز قلبه ولأول مرّة يشعر بالقلق راوده شعور بأن ذلك الشاب الذي زكّاه المهندس أحمد ربما يحاول ا لاندساس بينهم وكشف نشاطهم.. طرد حسام هذه الأفكار كما يطرد المرء ذبابة تحط على انفه.. لهذا قال بثقة عالية وإيمان راسخ:

ـ ان شاء اللهّ مابقى على نهاية المأساة إلاّ شعرة.

قال صديقه بلهجة فيها أسى ويأس:

ـ هذه المأساة لا تنتهي إلّا برأس الطاغية صدام

قال وهو يمزج كلماته بابتسامة أمل:

ـ نعم يا صديقي.. إلاّ برأس الطاغية..

لم تحصل أنعام على أجابة مقنعة حول موضوع تأجيل الخطوبة والعقد..

وظل الموضوع أشبه ما يكون باللغز..

كانت ابتسامة حسام وهو يتحاشى الإجابة وضحكة ميسون أيضاً عندما حاولت الاستفسار منها هو كل ماحصلت عليه أنعام التي اكتفت باجابة شقيقها بأن ا لموعد قد بات قريباً

في مساء يوم الجمعة ٢٥ مايس بدا حسام حزيناً قلبه فارغ لايدري لذلك سبباً.. ظل يتقلب في فراشه وقد اجتاحه احساس بالضيق كانت شقيقته قد أوت إلى غرفتها في وقت مبكر لكي لاتتأخر على وقت المحاضرة شعر بالحاجة للحديث.. لكن استحال رأسه إلى ميدان تجول فيه خيول مجنونة تتناهبه شتى الأفكار.. وكانت مشاهد قديمة من الذكريات تظهر وتنفجر كفقاعات في بُركة إثر زخة مطر ربيعي.. وراحت الصور تبدو وتختفي إلى أن ظهر وجه ميسون ملائكياً مفعماً ببراءة لا حدود لها.. وحينئذ غادرت الخيول المجنونة الوادي لينعم بالسكينة والسلام.. وفي

تلك اللحظـات الغارقـة بالطمأنينـة غمـضت عينـاه لتنفتحـان عـلى عـالم الأطياف.. كانا يـسيران معـاً في طريـق ريفـي هـو وهـي وقـد تـشابكت الأصابع في توحّد جعل منهما كيانـاً واحـداً.. قـد انـصهرا في بوتقـة حـبّ سماوي واحساس بأنّ قدميـه لا تلامـسان الطريـق وكانـت الـساقية التـي ترافقهما تدندن بصوت هاديء كطفل يشدو.. كانا يسيران في طريق ليست له بداية وليست له نهاية لكأنهما ينتميان إليه وانه جزء من الـروح المتوحّـدة في عالم يمتد من الازل إلى الأبد.

دجلة ـ 20

ميسون واقفة تصلي في زاوية الغرفة ونسائم مابعد منتصف الليل تتسلل برفق عبر النافذة وقد بـدت شـجرة البرتقـال متألقـة وهـي تلقـي بـبعض أغصانها المورقة على الحائط..

راحت تنظر إلى سماء صافية وقد بـدت النجـوم في أغوارهـا الـسحيقة قلوباً تنبض بالحب.. ويكاد يخيل لمن يراها أنها تريـد أن تحلـق بروحهـا إلى الملأ الأعلى..

وتدفق في قلبها النابض حنان من ذلك الحنان الخالـد الـذي يترقـرق في القلوب الطاهرة.. وراحت تـدعو لوالـديها.. تـستمطر لهـما رحمـة الـسماء وبركتها.. وتألق وجه حسام تحيطه هالة من نـور الحـب فانـسابت كلـمات الدعاء رقيقة مؤثرة وتهدج صوتها الهامس تـدعو لـه ولكـل ابنـاء العـراق الذين يواجهون فرادى وخلايا صغيرة نظاماً همجياً بربرياً .

كان قلبها يتفتح كزهرة ربيعية في ذلك السحر وتلاشت احزان غـروب يوم الجمعة ان منظر الغروب عادة ما يثـير الحـزن ولكـن الأحـزان تجتمـع

كلها في غروب يوم الجمعة حتى عندما كانت طفلة لاتعرف من الحياة سوى الفرح كانت تلح احياناً على والدها ان يقصدا دجلة في تلك الساعة عندما يتلامس قرص الشمس في الأفق الغربي.. آه كم هي عميقة اسرار الحياة.. والإنسان!!

لم تكن أنعام تجهل سبب تأجيل شقيقها موضوع الخطبة فحسب بل أنها لم تشعر بسفره إلى النجف.. ولقائه بشاب موفد من أحد مقرّات المجاهدين في الأهوار..

لقد كشف له عن وجود جذوة ثورة حقيقية في الأهوار لقد تمكنت ثلّة من أولئك الأبطال من فتح جبهة على البعثيين..انهم بحاجة الى دعم...

تم اللقاء من خلال تنسيق مع المهندس أحمد.. لكن موقف حسام لم يتغير، إن رصاصة واحد تطلق في بغداد أكثر دوياً من المدفع.. وان تصفية أحد رموز النظام المجرم أجدى بكثير من قتل من يدفع بهم النظام من شرطته وقوات أمنه . .

لهذا عاد إلى بغداد وهو أكثر قناعة.. لكن ذلك لا يمنع من يريد الإلتحاق بالثوار في الهور فاليد الواحدة لا يمكنها التصفيق وعلى الجميع العمل وبحسب الظروف للإطاحة بنظام العفالقة..

ميسون ترسل نظرات ساهمة عبر النافذة ولم تنتبه إلى بدء المحاضرة ولم تجد نفسها متحمسة إلى مناقشة الاستاذ حول اعتماد التقسيم السياسي

للعصور الأدبية في العهد العباسي .. وإن اعتماد التاريخ الهجري أجدى بكثير في تقسيم الشعراء والأدباء .. لأنّه تقسيم حضاري وثقافي مستقل..

بدأ الجو مغبراً وقد ألقى بكآبته على النفوس، الابتسامة التي عادة ما تشرق على وجه ميسون غابت فقد خامرها احساس غريب.. يقال ان الحمام يستشعر خطر الزلازل قبل وقوعها..

لو كان حسام شاهداً ورأى وجه ميسون في هذه الصبيحة لأدرك اقتراب الخطر..

كان أصحاب العيون الزجاجية قد انتشروا في جامعة بغداد.

فجأة دخل رجال غلاظ وجوهم بدت وكأنها منحوته من الصخر من شدّة قسوتها.. توقف أحدهم عند ميسون ومدّ يداً غليظة إلى ضفيرة ذهبية ليجرّها.. ولمحت ميسون اثنين يقبضان على أنعام وإيمان..

أمر عجيب إن ميسون تبدو في كامل هدوئها تغمرها سكينة هل كانت تتوقع ماحصل..

غادروا الجامعة على عجل كانت ميسون تسير وسط أولئك الذئاب كقمر محاصر بالغيوم أو حمامة وسط قطيع من الذئاب قبل أن تصل السيارة إلى مبنى مديرية الأمن العام عصبوا عينيها فحل ظلام دامس وغمرت الظلمات مرئيات الدنيا لكن قلبها انفتح ببصيرة نافذة على عالم الحقائق.. كل شيء في هذا العالم ثابت راسخ مغمور بالسكينة والجلال، ما أسرع أن

ينتقل الإنسان إذا كان مؤمناً من عالم الأباطيل إلى عالم الحقيقة؟ !

الوحوش يقودون ميسون في مبنى غامض عبر سلالم ودهاليز لتقف في مكان موحش.. كحمل وديع في غابة ظلماء تملأها الذئاب.. راحت تتلقى السياط من دون سؤال ولا استجواب لقد حدثها حسام عن «القاط الخفيف»..

الضابط جالس في غرفته وأمامه ملف يقلب في أوراقه..

ميسون غازي..

طالبه في كلية الأداب جامعة بغداد سنة ثانية مواليد ١٩٦٦ .

السكن الكاظمية منطقة علي الصالح..

يملك الوالد محل بيع الحلي الذهبية في شاعر النهر..

الأُم معلمة..

دخل أحدهم وأدى التحية..

ـ سيدي..

رفع ضابط رأسه وراح ينظر إلى ميسون التي كانت تحاول ان تتماسك من شدّة الضرب.. وبالرغم من كل ذلك فقد بدت أميرة وقعت في الأسر، استخرج بضعة أوراق وسأل من دون أن ينظر إليها:

ـ ما علاقتك بحسام!

ـ خطيبي..

ـ تكلمي..

ـ الجواب على قدر السؤال..

ـ فوجئ الضابط:

ـ زين منو مسؤولك بالتنظيم ؟

ـ ..

ـ ليش سكتي؟ !

ـ السؤال غير مفهوم.

ـ شعر الضابط بالتحدّي..

ـ زين راح تفهمين السؤال بعدين..

صاح الضابط.

ـ رائد عامر. .

ـ وما أسرع ما دخل رجل بدين قاس الملامح شارب كث ووجه منتفخ باللحم وعينان تقدحان شرراً..

ـ نعم سيدي..

ـ الظاهر ما افتهمت اسئلتي.. خذها فهمها..

ـ نعم سيدي..

دفعها إلى خارج الغرفة..

ـ يله لچ تحركي

بادر شرطيان يدفعانها بقسوة إلى غرفة أُخرى

قال بقسوة:

ـ علكوها من شعرها..

ـ تخطفها الشرطيان وقاما بربطها من شعرها بقلاب في السقف..

ـ انهالت «الصوندات» على جسمها. كانت تحاول المستحيل لكي تصمد فلا تصدر عنها صرخة ألم..

تفجرت الآلام في كل خلية من خلاياها.. أشار الجلاد فتوقف الضرب..

ـ نحن نعرف كل شيء لكن اريد اعترافات حتى يكتمل التحقيق كانت ميسون تعرف ان ما يقوله هذا النذل هو مجرّد أُسلوب للحصول على الاعترافات..

راح يذكر بعض الأسماء ثم اخرج من جيبه بعض الصور:

ـ تريدين رؤيتها؟! قضيتك خطرة تنظيم محظور وسلاح.

راح يدور حول ميسون التي استعادت وعيها نظر إلى شعرها الذهبي إلى قوامها وبرقت عيناه بالنذالة:

ـ غبية.. لومو غبية ما اخترتي هذا الطريق.. انت جميلة وغنية.. منو ورّطك بهذا الطريق؟

ـ الطريق الذي أسير فيه هو طريق الأنبياء..

واستحال إلى ثعلب ماكر:

ـ وهل الأنبياء يقبلون بخيانة الوطن؟!

ـ نحن نفدي الوطن بأرواحنا .

ـ بتقديم معلومات عسكرية للفرس المجوس؟ !

ـ الشعب الإيراني مسلم ونحن أخوة بالعقيدة..

ـ بكلامك هذا تضحكين عليّ أمُ على نفسك..

ـ ..

ـ لقد خدعوك.. فأنت تملكين ما يتسابق الرجال من أجله..

ـ ..

وفي اليوم التالي اعترفت ميسون بعد تعذيب وحشي ثم وضعوا أمامها عدّة صور تثبت اتهامها بنقل متفجرات وهكذا سيقت إلى أحد الأبنية المظلمة حيث تحتجز عشرات النساء والفتيات..

كان الجلاّد يكشر عن انيابه ويصعقها بأن الشاهد من بينهم.. لكننا نريد الحصول على خيوط أُخرى...

الفرات ـ 19

اقتيد حسام من مدينة الطب المجاورة لكليتـه دفعـوه إلى داخـل سـيارة تحمل اسم شركة مقاولات انشائية.. عـصبوا عينيـه بـالقرب مـن مديريـة الأمــن... وفي تلــك اللحظــات لم يفكــر في مــستقبله وفي نيــل شــهادة البكالوريس وقد كانت حلمه ووعده الذي قطعه لأُمه.. قفز وجه ميـسون وأنعام وايمان انه يخشى عليهن من الاعتقال.. انتابته الهواجس هـل اعتقـل أحمد؟

فالأسرار الخطيرة يتقاسمها معه فقط.. هل وقع خطأ؟! راحت وجـوه الذين التقاهم وتعرّف عليهم تظهر وتختفي، مع كل وجه.. بضعة صـفات عرفهم بها.. وتجسم له وجه رفيق كتاب ذلك الـشاب الـذي تعـرّف عليـه مؤخراً. انه رغم ثقافته العالية رغم إنه كان معتقلاً في سجون النظام لكنه لم يشعر ازاءه بالارتياح.. حتى إنه لام نفسه على ذلك فهـو لم يثـر في تـصرّفه الشكوك كما أن أحمد قد زكّاه بقوّة وهو يعرف الشباب الدعاة في حذرهم.. إذن أين الخطأ؟

هل هناك اعترافات؟! إن الخلية تكاد تكـون محـدودة الارتبـاط.. منـذ شهور طويلة جداً انقطعت جميع الاتصالات فـالأُخوة الـذين هـاجروا إلى خارج الوطن بدأوا يعلقون آمالهم على الحرب خاصّة بعد الانتصار الحاسم في سنة ٨٢ واستسلام زهاء عشرين ألف جندي وقد كان والده أحد الذين سلّموا أنفسهم..

اقتادوه إلى مكان بعد أن صعدوا به السلالم أوقفوه..

فجأة احتوشته الذئاب كان أصعب شيء إنه لا يدري مـن أيـن سيـضرب وفي أي جزء من جسمه ثم جاءته ضربه عنيفة أسقطته أرضاً..

لا يدري كم مضى من الوقت عندما انتبه إلى نفسه وجـد نفـسه موثـوق الأيدي والأرجل ولا يدري كم مضى مـن الوقـت عليـه عنـدما عـاد إليـه وعيه.

وبدأ الكيبل يفجر الألم عـلى بـاطن قدميـه وكانـت الـضربات سريعـة متوالية وسمع من يقول بصوت أجش:

ـ حضره للتحقيق.

ـ نعم سيدي .

وبعد أن كف عن الضرب قال لحسام..

ـ لك أحسن تعترف قضيتك حولوها للذيب.

لك واللهّ يمزّقك..

وبدأت جولة من جولات التعذيب وراح ا الرائد عامر يعوي كالذئب.. ادرك حسام لماذا يدعى هذا الجلاد بالذيب:

كلمات قصيدة سمعها ذات يوم وحفظها عن ظهر قلب تنبعث فيها الحياة فكأنها تنشد من جديد وتألق وجه أُمه كبدر في الظلام ..

آه أنها تنتظر عودته كما تنتظر عودة زوجها ولكن...

حين يفتش في الليل عن الأحباب..

ويقادون إلى حيث يقيم البعثيون الحفلة كل مساء في السرداب.

في هذه الأقبية تعيش وحوش كاسرة.. هنا يمارس مصاصو دماء الأبرياء الجرائم باعصاب باردة بل انهم يتلذذون في ذلك.. .

هنا يقطعون الأيدي والأرجل هنا تنتزع الاظافر وتثقب الأقدام والاكف بالدريل. هنا مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب إنسان.. هنا يتجلى الكائن البعثي على حقيقته.. هنا يأكل الشرطي البعثي رؤوس الأطفال .

كان حسام يشعر بالخدر يدب في جسمه المهشم لكن روحه ماتزال قويّة.. لقد اعترف لا بسبب همجية التعذيب بل لأن الاختراق كان قوياً..

ـ قضيتك منتهية.. إعدام..

قال حسام:

ـ أنت تبشرني بالشهادة..

ـ أنتم خونة خمينيين.

ـ أنتم الخونة.. كل الأحرار يعشقون السيد الخميني.. لأنّه حرّر بلده من الدكتاتورية..

ـ كلكم عملاء شلون تخونون بلدكم وتقدمون خرائط لإيران حتى تحتل العراق..

ـ حزب البعث هو المحتل وهدفنا تحرير العراق وانقاذه من هذه العصابة المجرمة..

ـ أبوك وين أسير بإسرائيل لو بإيران ها؟

ـ بالعكس والدي الآن يشعر بالحرّية.. بعد ما تنطلي هذي الخدع على الناس لو كان هناك إيمان بهذه الحرب ما سلّم الجنود بالآلاف.. والدي اشترك بحرب تشرين ضد اسرائيل.. اخبرنا عن صمود لواء خالد بن الوليد المحاصر.. ابيد اللواء كلّه ولا جندي عراقي واحد سلّم لاسرائيل.. اسأل نفسك ليش؟ !

ـ هذا الكلام يخدع البنات من أمثال ميسون وأنعام و.. وايمان..

واطلق حسام آهة حبيسة ولاذ بالصمت فهو يعرف كيف يحاولون استدراج المعتقلين للحصول على اعترافات بالمجان..

ـ لك هذا مهر تقدمه لميسون بدل ما تلبسها أساور ذهب تعطيها قنابل ومتفجرات..

ـ عرضت عليها اساور وقلائد.. رفضت..

ـ مجنونه.. ليش رفضت؟

ـ قالت لن اضع في يدي اساور ذهبية الا بعد أن نحطم القيود والسلاسل والأغلال..

ـ صحيح هذه مجنونة.

ـ اوافقك أنها مجنونة.. هي اعترفت بذلك قالت حب الحسين اجنني..

ـ لسانك هذا يرّاد له گص..

ـ شنو تنتظرون..

ـ بعدين .. الآن نحتاجك تغني بعد ؟

انتهت جولات التحقيق والتعذيب وكُشفت نشاطات الخلية.. واقتيدت ميسون وأنعام وإيمان إلى القبو الخاص بالنساء حيث تتراكم الظلمات بعضها فوق بعض وحيث يتجمع الظلم في سراديب مديرية الأمن العام.

أما حسام ورفاق الدرب فقد أخذوهم إلى أقبية أكثر ظلمة واشدّ عذاباً..

ومع ذلك فقد ابقى الجلادون القضية مفتوحة على أمل الامساك بخيط جديد أو الحصول على اسرار أُخرى..

اقتيدت ميسون وأنعام وإيمان إلى قبو في نفس مبنى مديرية الأمن

العامة.. القبو كان عالماً تتكاثف في الظلمات لا نسمة هواء تنفذ ولا شعاع..

وفي هذا العالم الموحش سطعت روح ميسون فأضاءت لمن حولها.. وجدت عشرات الفتيات والنساء اللائي اعتقلن لنشاط أزواجهن أو اخوانهن كن رهائن حرب النظام الهمجي ضد شعب أبيّ..

ومنذ أن لامست قدماها المكان امتدت روحها لتعبر اعمدة القرون إلى طامورة في سجن المطبق الرهيب حيث سجن الإمام موسى الكاظم .

كانت روح ميسون تستمد النور والعزم من ذلك الإنسان الذي قال لا في زمن هارون في زمن يصلب الأنبياء.... في زمن رديء .

تعرّفت ميسون على بعض الساكنين في هذا العالم الرهيب عالم لا تشرق فيه شمس ولا يطلع في سمائه قمر.. ولا تومض نجوم..

أمر عجيب أنها لم تشعر بالسكينة كما تشعر الآن.. ان نبعاً من الحب الالهي يترقرق في اعماقها فتتألق عيناها بالأمل في غد مشرق تغيّرت نظرتها إلى الحياة.. هناك وراء جدار العمر يوجد عالم مفعم بالصفاء يرفل فيه الإنسان بنعيم لايزول. .

أي حبّ صهر في بوتقته قلب ميسون؟! حتى حبها لحسام انما هو انعكاس للحب الإلهي.. أنها لا ترى السعادة إلاّ في بحبوحة الرضا وعندما يصفو القلب فإنّه يستحيل إلى مرآة ينعكس فيها رضا اللهّ أو إلى بذرة غافية

تستشعر دفء الربيع فتصحو وتنمو وتشق طريقها الى السماء ان ميسون عاشقة.. أنها تهيم بحب خالد وعظيم...

أن من شهد تجربتها سوف يجزم أنها قد مسّت في الذات الالهيه.. أنها تستحيل إلى فراشة مبهورة بشموع الحب السماوي ولسوف تطوف وتطوف إلى ان تحترق من أجل هذا كانت سياط العذاب التي تتلوى في وقعها المعتقلات قد جعلت منها أكثر إيماناً واسمى حباً كانت تحلم بلقاء المحبوب.. فكان حبها لحسام قبس من ذلك النور الساطع الذي اشرق على فؤادها..

أنها تحاول أن تبث روح الثبات والتحدي في قلوب من ضعفن تحت وطأة الظروف القاسية.. سمعت ذات يوم وقد مرّت أسابيع وأسابيع إحداهن تقول:

- ياربّ بعد ما نتحمل هذا العذاب..

همست ميسون في أذنها برقّة:

- اختي! اصبري - قولي الحمد لله ان مواجهة هؤلاء الظالمين شرف كبير.. لا تدعي الضعف يتسلل إلى قلبك..

سكتت لحظات ثم قالت:

- أكاد أسمع الشهيدة بنت الهدى تشدو بهذا النشيد الخالد:

وراحت ميسون تشدو بصوت عذب مفعم بالحماس:

قـسماً وإن ملـئ الطريـق ... بـما يعيـق الـسير قـدما
قـسماً وإن جهـد الزمـان ... لكـي يثـبط فيَّ عزمـا
أو حـاول الـدهر الخـؤون ... بـأن يـريش إليّ سـهما
وتفاعلت شتى الظـروف ... تكيـل آلامـا وهمّـا
فتراكمـت سـحب الهمـوم ... بـأفق فكـري فـادلهما
لـن انثنـي عـما أروم ... وإن غـدت قـدماي تـدمى
كـلاّ ولـن أدع الجهـاد ... فغـايتي أعـلى وأسـمى
اسـلامنا أنـت الحبيـب ... وكـل صعـب فيـك سـهل
ولأجـل دعوتـك العزيـزة ... علقـم الأيـام يحلـو

تأثرت أم نجم وانخرطت في بكاء صامت، فدنت منها ميسون وقبلتها بحنان..

كانت ميسون اصغر معتقلة في الموقف حتّى أنعام تكبرها بشهور أربعة وان كانت تبدو أنها أصغر بكثير فوجهها الطفولي ورقتها يوحي بأنها لم تناهز الثامنة عشر..

نامت العيون في ليل القبو الطويل..

إلّا ميسون العاشقة.. كانت تصلّي صلاة الليل.. كان تسبّح وتدعو.. دمعت عيناها وهي تدعو لوالديها..

وتطلب المغفرة لصديقاتها والخلاص للمعتقلين..

حتّى رسى قارب الدعاء على شاطىء حسام فدعت له طـويلاً.. كانـت أم نجم ماتزال مستيقظة تصغي إلى كلمات الصلاة وساقية الـدعاء تنـساب بصوت رقيق فيمتلأ قلبهـا نـوراً رغـم حلكـة الظـلام.. تـذكرت زوجهـا الشهيد سهيل البطاط تذكرت حياتهـا الهانئـة مـع رفيـق الـدرب وشريـك الحياة.. آه لقد رحل بعيـداً.. التحـق بالـذين رحلـوا عـلى خطـى الـشهيد الصدر في الطريق الذي رسمه الحـسين.. تـذكرت كلماتـه وهـو يودعهـا.. سأذهب الى كربلاء.. يجب أن نُلبّي نداء الحسين.. هل من ناصر.. لبيك يـا حسين إننا قادمون.. قالت لـه: ولكـن الحـسين قـد استـشهد قبـل مئـات السنين؟ قال: الحسين لا يموت.. انه مايزال يقاتـل.. وكـل أرض كـربلاء وكل يوم عاشوراء..

هوّمت عيناها وغمض جفناها لينفتحان في عالم أخضر مليء بـالمروج.. عالم بلا حدود. عالم مفعم بنور عجيب لاينتمـي لنـور الـشمس ولا ضـوء القمر.. آه هذا زوجها سهيل يرتدي ابهى حلّة وجهه يضيء.. ومـن هـذه ا لعروس التي تزف إلى شاب نوراني.. آه أنها ميسون ترتـدي حلـة العـرس وثياب الزفاف.. كانت الأجمل.. أين جمال الحوريات من جمالها وسحرها..

وامتدت يد رقيقة لتوقظها لصلاة فجر..

ـ سامية! سامية! انهضي حان وقت الصلاة:

وعندما فتحت عينيها رأت ميسون مستغرقة في صلاة طويلة..

غمرتها حالة من الحزن لهذه الحورية.. التي تصوم نهارها وتمضي الليل في الصلاة والمناجاة وربما راحت تشدو ببعض الأشعار في الحب الإلهي..

كانت سامية تفكر في الاّ تقول لميسون شيئاً لن تذكر لها مارأت ان تعبير الرؤيا واضح وقد يحزنها ذلك كانت ميسون تأنس بالحديث إلى سامية.. تتحدث إليها وإن كانت تحجم في بثها ما يموج في قلبها ولكن أم نجم تكاد تقرأ في عينيها حبها لخطيبها حسام اسرّت لها أنها طلبت تأجيل مراسم العقد والزواج الى مابعد تنفيذ العملية.. لم تذكر لها طبيعة العملية.. اكتفت بالقول: كان الهدف منها هزّ النظام الظالم.. كانت تتحدث لها بحماس شديد.. حتى جعلها تأسف أنها لم تشارك زوجها سهيل في جهاده وجهوده.. سألتها عن تنفيذ العملية قالت.. أنها كانت ناجحة لولا ذلك الخائن المندس في المجموعة..

ـ من هو ؟

ـ ليس مهماً معرفة اسمه.. لقد وشا بنا وكشف أمرنا .

جاءها صوت ميسون رقيقاً حنوناً..

ـ ها أُم نجم.. صافنه؟ وين وصلت؟

ـ شفت أبو نجم بالمنام.

ـ خير انشاء اللهّ..

ـ شفته لابس بدلة العرس.. وشفت شاب نوراني يزفون له عروس..

ـ عرفتيها..

ـ نعم أعرفها..

ـ منو؟ اقارب جيران..

ـ العروس كانت جداً جميلة أجمل من الحوريات..

لم تشأ أن تذكر لها من هي فقالت وهي تبتسم وتقلّد لهجة أهالي الكاظمية:

ـ ما حگول منو هي!

ـ ليش

ـ لأن انت تعرفيها..

ـ أعرفها؟!!

ـ نعم..

ـ يعني هنا ويّانا.. من حقّها تعرف.. هذا رأيي طبعاً .

ـ أخاف تقلق.. تحزن..

ـ ليش شنو تفسير الرؤيا..

ـ فسرتها انه راح تنحكم بالإعدام!

ـ اللّي يعدموها هذوله الامويين يكون لها وسام.. وسام الشهادة.. لازم تفرح .

ـ من كل گلبچ هذا الكلام؟!

ـ اي واللهّ من كل گلبي

ـ زين شنو رأيچ إذا كنت أنت العروس بالرؤيا؟!

فوجئت ميسون وما أسرع أن عانقت سامية بحرارة وقالت:

ـ اللهّ يبشرچ بالجنة يا أُم نجم..

كانت ميسون في ذروة السعادة ذلك اليوم لقد بشرت بالشهادة على أيدي هؤلاء الأوغاد: لقد انبعث الامويون من جديد ليعيدوا ارتكاب المذبحة ... مذبحة كربلاء .. سوف يكونون أكثر اجراماً لأنهم قتلوا زينب العصر .. بل إنهم يقتلون حتى الأطفال .. إنهم أكثر ايغالاً في الجريمة .

•

دجلة ـ 21

لم تعد ميسون من الكلية.. كان قلبه فارغاً وهو يهمس خائفاً مع نفسه.. لماذا يشعر بالقلق ربما هي الآن فى بيت خالتها..

كانت أُم ميسون تعد طعام العشاء ومعها بناتها..

ادار رقم الهاتف لكن لا احد يجيب..

لو لم يكن يوم السبت لظن أنها قد ذهبت إلى زيارة المرقد الكاظمي.. ولكن..

علت طرقات على الباب فقد كف الجرس عن الرنين منذ الصباح بسبب انقطاع الكهرباء.. لقد حجزت المولدة الكبرى لقصر الرئاسة منذ شهور وزادت معاناة الناس.. وبدأت الأزمة الاقتصادية تلوح في الأفق..

أسرع أبو ميسون إلى الباب ليرحب باخت زوجته بادرها..

ـ وميسون..

ـ ليش هي مارجعت من الكليّة

شعر أبو ميسون بالخطر..

ـ اللهّ يستر.. بس لا أخذوها؟!

ـ ها شنو أبو ميسون.

جلس الجميع صامتين حتّى أصبح صوت الساعة الجدارية واضحاً.. تيك تاك تيك تاك ..

ـ هذا الخفت منه طحت بيه!! واللهّ كنت كلش خايف

ـ اللهّ كريم.. ممكن راحت مع صديقتها أنعام..

ـ لحد الآن ما صاير شي.. حتى لو ماخذيها بالعلاقات والفلوس نخلصها..

كانت كلمات خالة ميسون أشبه بطوق النجاة مما يعانيه من هواجس ومخاوف.. قلبه فارغ تماماً لايدري ماذا يفعل؟ !

نهض:

ـ وين؟!

ـ عندي صديق يمكن استفسر منه..

كان أبو ميسون يفكر ربما هناك معها تحقيق من المنظمة الحزبية في المنطقة. .

اكّد أبو سمير له ان ميسون غير موجودة هنا واقترح عليه أن يسأل عنها في الجامعة ..

بطيئة هي الساعات.. ساعات الليل.. لم يغمض له جفن لايدري من

يلوم.. تـصوّرها بـين مخالـب الوحـوش أنّـه يعـرف مـدى قـسوتهم.. آه ياميسون وطفرت من عينيه دمعة يتيمة..

وظهر عمود الفجر من خـلال النافـذة المفتوحـة.. و شـعر باستـسلام كامل للقدر..

مع صباح الأحد بدأت رحلة البحث الطويل لمعرفـة مـصير ميـسون.. وكانت الحلي الذهبية.. الاقراط الاسـاور تختفـي مـن المحـل وتتحـول إلى هدايا إلى هذا وذاك من الأوباش والأوغاد لمعرفة مصير ابنته .

وأخيراً حصل على خبر وجودها في معتقل مديريـة الأمـن العامـة.. ألا يمكن لقائها؟

ـ مستحيل احمد ربك أنها ماتزال على قيد الحياة .

بحث عنها ليل نهار.. لم يترك مكاناً وإلاّ وسـأل عنهـا لم يـترك شخـصاً يمكن ان يعرف منه مصير ابنته إلاّ واتصل به.. إلاّ وقـدم لـه هديـة.. كـاد يفقد عقله من ضغط الاجهاد.. كانت زوجته تدعو ليل نهار لأن ينقذ ابنته وها هو الآن لم يحصل إلاّ على خبر وجودها حيّة في موقف الأمن العامة... كان بعض الأوغاد يخدعونه يتظاهرون بأنهم قد يساعدونه للحـصول عـلى الهدايا حتّى الأشياء الضرورية التي اعدّها لابنتـه اسـتلموها منـه لكنهـا لم تصل إلى ميسون وظلت ميسون دون أي خبر عن أهلها.. .

كانت ميسون تدعو اللهّ للقاء والديها لكي تودعهما قبل الرحيل.. لكـي

تطلب الغفران منهما لما سببت لهما من القلق والأرق والعذاب..

كانت سامية تشعر بالاجلال لهذه الفتاة التي تبـدو عليهـا آثـار النعمـة والحياة المرفهة كيف احتفظت بابتسامتها في جحيم الأمن..

جحيم انهار فيه رجال ورجال كيف تأتـّىٰ لزهرة رقيقة أن تصمد بوجه الزمهرير..

ماذا يفعل الحب بالقلوب.. مرّة شاهدتها واقفة كالتمثال ترسل نظرات ساهمة تخترق ليس الجدران الأسمنتية بل إلى ماهو ابعـد مـن ذلـك.. أنهـا تخترق السحب والغيوم وتعبر السموات.. كانت تتمـتم بكلـمات الـدعاء والمناجاة وما أكثرها.. ثم راحت تترنم بأشعار عاشقة:

فليتـــك تحلـــو والحيـــاة مريـــرة
وليتـــك تـــرضى والأنـــام غـــضاب
وليـــت الـــذي بينـــي وبينـــك عـــامر
وبينـــي وبـــين العـــالمين خـــراب

وهملت عيناها بالدموع وهي تناجي الله بصوت عذب:

ـ الهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً.

ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا

إلهي فاجعلنا ممن اصطفيته لقربك وولايتك

وأخلصته لودك ومحبتك

وشوقته إلى لقائك يارب.

قالت سامية:

ـ أتحبيه بقدر ما يحبك ؟

تساءلت:

ـ منو تقصدين؟

ـ حسام ليش أكو غيره .

توردت وجنتها وابتسمت ولاذت بالصمت.. وكان صمتها ابلغ من كل جواب..

الفرات ـ 20

كانت أم حسام ما انفكت تسأل ابن الجيران الذي طرق الباب في الليل.. فليس من عادة الناس القيام بذلك إلاّ لأمر هام..

ـ خالة أُم حسام ردت اسأل عن اخبار حسام .

ـ يمه صاير شي؟!

ـ لا زايرة

ـ جيتك بهذا الوكت؟!! گلي إذا صاير شي!

ـ زايره هذا الحچي وكلامي لايطلع من البيت... اليوم وصل استفسار من أمن بغداد يسألون عن حسام وأنعام..

ـ استفسار.

ـ طلبوا أسماء أقرب أصدقائه.. ذكرنا بالجواب أن والد حسام أسير من.. خالة أگول ماكو خبر عنه؟

ـ يمه وصلت رسالة صحته زينه وطلب صورة لحسام بالصدرية والساعة، چان بس يتمنى يشوفه دكتور.. الچاى لايبرد يمه.. امك شلونهه؟

- بخير

- ابن حلال يمه .

- هذا واجب. بالافراح خالة انشاء اللهّ تكحلين عيونج بشوفة حسام وأبو حسام..

- سلمنه على الزايرة.

- عليكم السلام..

* * *

حسام جالس القرفصاء ضمن الجالسين فقد وصل إليه الدور في الجلوس، الموقف يضيق بهذا العدد الكبير بحيث اتفق المعتقلون لأن ان ينقسموا إلى ثلاث مجموعات.. مجموعة تنام، تنهض مجموعة للوقوف اما الواقفين فيجلسون ثم يخلد الجالسون للنوم وهكذا...

وبالرغم من الضيق الشديد فقد انساح ذهنه بعيداً عن هذه الجدران الكونكريتية القاسية..

لقد مرّت عليه أسابيع لا أكثر لكنه يشعر أنّ الزمن هنا يختلف تماماً فهو يمرّ ببطء شديد.. إنّه يشعر بأنّه لبث في هذا المكان سنين طويلة..

الزمن في مدينته الصغيرة الغافية على النهر يمرّ كالسواقي والجداول.. له وقع الخرير ونبض القلوب العاشقة..

وعندما التقى ميسون اكتسب الزمن لونا آخر ونكهة أخرى اصبحت

دقائقه كفراشات ترفرف فوق مرج مليء بالزهور..

أحياناً تغمره حالة من العشق تحلّق به بعيداً إلى أجواء وآفاق مليئة بالصفاء.. وعندما تجنح به الآمال فإنّه يفقد شعوره بالزمن ويلج كيانه إلى عالم خارج الزمكان..

إنه امتحان صعب، كل هذه الأهوال مرّت عليه في سبعة أيام وثمانية ليال بل ليل طويل.. وجد نفسه فجأة وجه لوجه أمام قطيع مخيف من الذئاب وتجلى له الوجه الحقيقي البشع لنظام البعث. .

في أيام معدودات رأى ما لا عين رأت ولم يخطر على قلب بشر..

الضلوع المهشمة.. والأجساد البشرية المعلّقة بالمراوح السياط والكيبلات.. الصعقات الكهربائية الآتية من أرضية الغرفة المنقوعة بالماء..

الجياع الظامئين الوجوه المحروقة..

والأكف المنزوعة الأظافر. الأوصال المقطعة.. أحواض الزيت وأحواض التيزاب.. خبراء في التعذيب مستوردين من الخارج هذا هو الشرف البعثي..

أحياناً تساوره شكوك في مصداقية أفلام شاهدها تتحدث عن غزو كائنات فضائية متوحشة ترتدي اهاب البشر أما في حقيقتها فلا تمتّ للإنسان والإنسانية بصلة.. ان البعثيين يعيدون ارتكاب كل الجرائم منذ فجر التاريخ البشري..

إن قابيل وقيدار ونيرون وهولاكـو وجينكزخـان والحجـاج والـسفاح يبدون في براءة الحمام إذا ماقورنوا بهؤلاء النغول القادمين من مغاور إبليس وأوكار الشيطان..

لقد صنعوا حياة جهنمية في بلاد الجنائن المعلقـة انهـم جنـود الـشيطان الذي يريد الانتقام من الآدميين.. انهم يريدون سحق إنسانية الإنسان.. إن أعظم نعمة شعر بها في هذا الجحيم هو إيمانه الراسخ بالله وبعدالة قضيته..

أحياناً يتصوّر نفسه أحد أصحاب الحسين كما كان يفعـل في طفولتـه في التشابيه.. وان راية أبي الفضل العباس تخفـق فـوق هامتـه.. حينئـذ يـشعر بنسيم يهب مـن تلـك البقعـة التـي شـهدت أعظـم ملحمـة إنـسانية عـلى الاطلاق..

آه إن الحياة تكتسب قيمتها ومجدها بالكرامة والحرية..

وإن الإنسان الذي يرضى بالسلاسل والأغلال قانعاً بالحيـاة تحـت نـير العبودية والذل.. لا قيمة له ولا قيمة لحياته..

من يموت في العراق لا يخسر شيئاً سوى قيوده.. كما هو العبد..

عندما انتصرت الثورة في إيران أحس بدفـء شمسها أن تباشـير الفجـر تلوح في أُفق العراق وسـيولي ليـل البعـث إلى الأبـد.. وكـان ماحـدث في الدجيل بداية النهاية ولكن.. كان للقدر كلمته والتاريخ مساره..

إن الساعة آتية لاريب فيها.. وتـصوّر مـشاهد الرجـال الاشـداء وهـم

ينسلون من بين أحراش القصب في الأهوار ومن فوق ربى الشمال ومن وراء الحدود وحينئذ تتهاوى أوثان البعث ويسقط الصنم الأكبر إلى الأبد.. اليوم أو غداً.. ويشهد هذا الجيل أو الجيل الذي يليه ساعة الخلاص ويوم النصر..

وصل التطواف بأُم حسام أخيراً عند أبواب مديرية الأمن العامة في الجانب الشرقي من شارع النضال..

راجعت السكن فوجدت غرفتيهما خاليتين واغراضهما مبعثرة وراجعت الجامعة ولكن مامن أحد يجيب.. بعض زميلات أنعام يبدين دهشتهن..

حتّى مدينة الطب لم تجد أحداً يشفي غليلها.. عادت إلى الكليّة تطرق الأبواب.. ولكن دون جواب.. وفيما هي تعود وقد دمرّها القلق... إذا بفتاة ترتدي حجاباً تصادفها في الطريق ويبدو أنها كانت تطارد خطواتها عن بعد، وبعد أن شعرت بالأمان اقتربت منها.. وقالت لها أنها زميلة لأنعام.. وأنها انقطعت عن الكلية ورأت في يوم السبت البعض يقتادونها إلى الخارج مع طالبة أخرى ثم نصحتها أن تراجع مديرية الأمن..

وها هي الآن وقد لاحت شمس صباح كئيب من فوق المنازل المجاورة لم تكن وحدها فقد وجدت عشرات الأمهات عند باب الاستعلامات..

وأطل وجه قاس الملامح يتوسطه شارب كث ينبئ عما يدور في داخله

من غلظة وقسوة وإجرام.. وخرجت كلماته كما يعوي الذئب..

ـ لا أحد يلغي يلله اكتبوا عرايض.

وراحت إحدى الأُمهات تتلفت يميناً وشمالاً عمّن يكتب لها عريضة.. امرأة جنوبية من اللائي هاجرن إلى مدينة الثورة مع مطلع الستينات رسمت عاديات الزمن خطوطها في غضون الجبين وتجاعيد وجه حزين يستر وراءه إرادة لا تلين وصبراً دفيناً يستمدُّ منه هذا الجيل ملحمة التضحيات. أيه ثقافة صنعت هذا الجيل من الأُمهات المهدد بالانقراض؟!

كانت أُم حسام تراقب عن كثب ما تفعله هذه المرأة.. فجأة فتحت باب مجاورة وخرجت فتاة في الخامسة والعشرين أو أكثر بقليل يبدو عليها أنها موظفة في دائرة ما من دوائر ا لدولة.. وجدت المرأة العجوز في هذه الفتاة المضيئة الوجه طوق النجاة فبادرت إليها وهي تضع قدمها في الشارع:

ـ يمة فدوه اروحلچ.. أريد تكتبين لي عريضة !

نظرت الفتاة في ساعتها.. ارادت أن تعتذر لكن نظرات المرأة كانت تتوسل بقوة جارفة أخرجت قلماً وقالت:

ـ حاضر ماما.. تفضلي.. اسم ابنك؟

قالت بلهفه:

ـ يمّه أربع ويلاد مو واحد..

ـ اللهّ يساعدك.. اسماؤهم..

ـ الأول دكتور.. اخذوه سنة الواحد وثمانين والثاني مهندس اخذوه سنة الثنين وثمانين وثالث مهندس.. وهم اخذوه سنة الثنين وثمانين والرابع دكتورة عمت عيني اخذوها ويه رضيعها سنة الواحد وثمانين..

سجلت الفتاة الأسماء وبعض العبارات والجمل في الاستفسار عن مصيرهم ونظرت إلى المرأة فى حيرة :

ـ ماما هذي عريضة رسمية.. انت متأكدة من الأسماء؟

أجابت الام بأسى:

ـ على بختچ يمّه.. لعد شلون هذوله اوليداتي..

شعرت الفتاة بألم كما لو ان سكيناً تنفذ في قلبها..

ـ العفو حجيّة وين تسكنون..

ـ يمّه ابمدينة الثورة..

ثم استدركت على الفور:

ـ مدينة صدام.

وعندما رأت دهشة الفتاة التي بدا أنها تشاركها في ألمها اشارت إلى امرأة اخرى وقالت:

ـ تشوفين يمّه ذيچ العجوز.. عدها خمسة كلهم اخذوهم صارلها سنتين تروح وتجي.

أرادت ان تواصل حديثها لكنها كفت فجأة عندما رأت الفتاة تجلس

على عتبة الباب وتنتحب.. كانت الفتاة تذرف الدموع وكـأن نبعـاً حزينـاً يتفجر في أعماق الروح..

جلست أُم حسام قربها وراحت تبكي بـصمت.. نهـضت الفتـاة ودخلـت لتخرج بعد دقائق وقد استبدلت بدلتها والغت فكرة ذهابها إلى عملهـا كانـت تحمل معها زجاجة مـن المـاء البـارد.. وراحـت الفتـاة تـصغي إلى قـصص لا تصدق عن شباب مثقف من حملة الشهادات يختفـون فجـأة فـلا يعـرف عـن مصيرهم شيء وبين شروق الشمس وقبيل الغـروب قـرأت الفتـاة وسـمعت عشرات القصص الحزينة لجيل يقتل بصمت...

لم تشعر أُم حسام بجنوح الشمس إلى المغيب كما لم تشعر بالرهبة.. فكرت أنهـا يمكـن ان تبحـث عـن جيرانهـا الـذين نزحـوا إلى الثـورة منـذ مطلـع السبعينات.. لهذا عرفتهـا بأنهـا تبحـث عـن ابنهـا الـدكتور واختـه الطالبـة بالكلّية.. وسألتها عما إذا كانت تعرف منزل جيرانها في الثورة .. قالـت الأُم التي وجدت لها اختاً غريبة قادمة من الجنوب.

ـ وصلتي خيّه على بختچ.. عادتنا انروح نزور الكاظم.. المعذب في قعر السجون وظلم المطامير..

وفي ذلـك الغـروب الحـزين انطلـق سرب مـن الأُمهـات إلى مدينـة الكاظمية..

دجلة ـ 22

كان أبو ميسون يحدّق في أرضية الصحن وقد خلا من الحمام الذي حلّق إلى اعشاشه هنا وهناك فوق الأواوين.. كان قد ترك زوجته داخل الحرم تؤدي مراسم الزيارة وتدعو اللهّ سبحانه أن يحمي ابنتها ويصونها من كل مكروه..

أما أبو ميسون فقد غادر الحرم وراح يجول في الصحن وبدأ الناس بالتوافد لصلاة الجماعة وراء السيد حسين الصدر..

انضم أبو ميسون الى صفوف ا لجالسين انتظاراً للأذان غمره احساس بالسكينة فكل مايجري هو بعين اللهّ..

ومن باب المراد كانت نسوة جنوبيات يتوافدن للزيارة وارتفع صوت الأذان بالشهادة للهّ الواحد الأحد خالق الكون والحياة والصلاة على رسول اللهّ وآله الاطهار..

وفي مقابل الضريح كانت كلمات الزيارة تنساب كنهر هادئ:

اللهم صل على محمد وأهل بيته وصل على موسى بن جعفر وصي

الأبرار وإمام الأخيار ووارث السكينة والوقار والحكم والآثار الـذي كـان يحيى الليل بالسهر إلى السحر بمواصلة الاستغفار. حليف السجدة الطويلـة والدموع الغزيرة والمناجاة الكثيرة..

المعذب في قعر السجون وظلم المطامير ذي الساق المرضـوض.. بحلـق القيود والجنازة المنادى عليها فـوق الجسر الـذي مـضى شـهيداً مـسموماً مظلوماً..

السلام عليك ياولي اللهّ السلام عليك ياحجة اللهّ

السلام عليك يانور اللهّ في ظلمات الأرض

السلام عليك يابن رسول اللهّ

السلام عليك وعلى آبائك .

السلام عليك وعلى ابنائك وعلى أوليائك

اشهد انك قد اقمت الصلاة واتيت الزكاة..

وامرت بـالمعروف ونهيـت عـن المنكـر وتلـوت الكتـاب حـق تلاوتـه وجاهدت في اللهّ حق جهاده حتى أتاك اليقين..

أتيتك زائراً عارفاً بحقك موالياً لاوليائك معادياً لاعدائك.

وراحت عينا أبو ميسون ترنوان إلى تلك النسوة المتلفعات بالـسواد وقـد اجتمعن في الصحن و جلسن قرب باب الرجاء مقابل الضريح يذرفن دموع الحزن ويندبن بصوت شجي فلذات أكبادهن في ظلم مطامير البعث..

وكانت امرأة جنوبية قد اجتازت الستين تندب ابنها الذين اختفى منذ سنة تسعة وسبعين فبدأ مهرجان الأُمومة بصوت غاية في الحزن والأسى:

ـ هزيت مهد الوفه ولو ليت.. لو ليت وتنطريتك لمن ملّيت

ياضوه عيوني وشمعة البيت.. شمعة البيت خلصن سنيني اشعجب ماجيت..

يا الولد يابني..

وراح الانين يخبو.. فانطلق صوت آخر بصوت مترع بالأسى :

ـ خيّه اعله بختچ جابليني..

إونتچ اكثر يو ونيني..

هاي سنين تمطر ماي عيني..

ملت نهران ياخيّه بدمعها..

وانبعث صوت أُم ثكلى :

ـ امگابل يخيتي اگابلنچ

وبونتي لتعدّه ونچ

عيني المزن حدهن جزنچ

إومن البچي اتغير طبعها .

وتدفقت ساقية حزينة لأُم قد بحّ صوتها :

ـ خيّه الحزن وجّر بلفّاد

راحوا من ايدي اثنين ويلاد
وسفه گضوا بيدين جلاّد
وهروش الگلب كلها گطعها.

واستأنفت الأنات انطلاقها بصوت امرأة أُخرى:

ـ اثنين الچ وشصار ما صار
وتلاثه عدّي چنهم اگمار
ازرع وتاني اجني الاثمار
أم الدهر حاصد زرعها

وانبعث صوت أُم مفجوعة ترى محنتها قد عمّت أُمهات العراق، من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال الشرقي:

ـ والله يخيّه نگبع اهموم
كلنه شراكه انطيح و نگوم
يمته الفرج يطلع فرد يوم
و يتامنه ينشف دمعها

وراح أبو ميسون ينظر إلى السماوات وكأنه ينتظر نزول الفرج ويوم الخلاص... إلهي أما لهذا الظلم من نهاية!!

اتجه قلبه إلى الراقد في الضريح إلى باب الحوائج.. وعاد إلى المرقد الذي تظله آلاف المرايا هزّ الشباك وانتحب باكياً لقد عصف الزمن بحوريته

والقت بها العاصفة المجنونه في غمرة الأمواج انه يـسمع أصـداءً تغـرق... شعر بالعجز التام والإستسلام للقدر انه لايـستطيع ان يفعـل شـيئاً سـوى التطواف لقد بعثر مالديه على ذئاب هذه المدينة لكي يحمي ابنته من المـصير الرهيب .

دجلة ـ 23

في نهاية تشرين الأول من سنة ١٩٨٤ كانت ميسون تترقب حدوث أمر ما ان قلبها لايخطىء.. قلبها يحدثها انها قد ترى خطيبها الذي مضت أربعة شهور على انقطاع اخباره... في ليلة الاثنين رأت في عالم الرؤى وجه حسام يبتسم ثم يختفي...

أطل صباح الاثنين بارداً برود الموتى... كانت ميسون حزينة وكانت سحب الهموم قد بدأت تتشكل وتغطّي سماء قلبها الذي هوى النور وهفا نحوه... لقد آلمها كثيراً ان تسمع من تحاول عن غير قصد اثارة روح الفرقة والافتراق في مثل هذه الظروف حيث يوحد الصراع كل القلوب ويصهرها في بوتقه المواجهة ضد نظام همجي.

همست في اذن من تصغي لها أنّ المحنة قد عمّت وأنّ علينا أنْ نتحّد جميعاً ـ فطريقنا واحد وغايتنا واحدة... وجاء صوت اجش ينادي على ميسون لقد اغلق ملف التحقيق نهائياً ورفعت قضية (مهر ميسون) إلى محكمة الثورة.

ساد الوجوم وجوه النساء وهن يشاهدن ميسون تنهض إلى حيث يحاكمها الجلادون.. كانت أميرة بالرغم من عباءتها الممزّقة.. مرفوعة الرأس كانت تخطو... ولو كشف الغطاء لرأوا على هامتها تاجاً يتألق نوراً أنه تاج الكرامة الإنسانية.. إنه هبة اللهّ للإنسان حيث لا يحق له ابداً التنازل عنه .

صعدت ميسون السيارة إلى ستنقلهم إلى هناك .

راحت السيارة تخترق شوارع بغداد في ذلك الضحى الملبد بغبار كئيب.. سيارة خاصّة تحمل صندوقاً مستطيل الشكل فهي عبارة عن سجن سيّار يشتمل على عشرة زنزانات حديدية انفرادية يفصل بينها ممر ضيق جداً.. ولكل زنزانة باب صدئ وقفل كبير ورقم...

صعدت ميسون أولاً ثم تبعتها أنعام وإيمان...

وعندما فتح باب السيارة ليترجلن كانت الشمس قد تقترب من كبد السماء وقد تكاثف ا لغبار .

ورأت حساماً يتقدم الشبان إلى القاعة الكبيرة دخلت المجموعة القفص الحديدي إلى يسار منصة التي سيجلس خلفها أقزام صدام لإصدار الأحكام .

كانت ميسون تشعر بالفرح للقائها خطيبها الحبيب و تعانقت العيون التي تألقت بدموع الشوق دخل رجل ضيق العينين يرتدي الزي

العسكري تعلو صدره النياشين ورتبته تشير إلى انه لواء.. نعم دخل اللواء عوّاد البندر وخلفه اثنان برتبة مقدم و عقيد...

نظر رئيس المحكمة في ملف القضية ونهض محامي للدفاع من المتهمين معين من قبل المحكمة فطالب رئيس المحكمة بإنزال أشدّ العقوبات بحق هؤلاء الخونة!!

كانت الأحكام جاهزة ولا أحد يدري السرّ في تمسك أزلام النظام البعثي بهذه الشكليات.. وخلال دقائق لا أكثر حكمت محكمة الثورة العسكرية على: أحمد عباس وتوت وحسام حميد وميسون غازي وحسين هاشم ومحمد الملّي بالاعدام شنقاً حتى الموت حسب المادة ١٥٦ ألف من الدستور المؤقت وعلى أنعام حميد وإيمان عبد اللهّ بالسجن المؤبد وفق المادة ٢٥٧ و سبع سنوات على مهندسين .

تلقت ميسون حكم الإعدام على أيدي هؤلاء الأمويين بابتسامة فالإعدام على أيدي البعثيين يعني وسام رفيع يتألق بنور الاستشهاد في الطريق إلى اللهّ... وهذا هو جوهر الخلود .

انتهت المحاكمة التي لم تستغرق سوى عشر دقائق فقط...

وودعت ميسون خطيبها بنظرات تشع بالحب والفضيلة والحنان.

كانت سيارة مسلّحة تنتظر لنقل ميسون وأنعام وإيمان إلى سجن الرشاد الواقع على مشارف مدينة الثورة من جهة الشرق حيث يوجد القسم

السياسي الثالث أمّا حسام ومن معه من الشباب فقد نقلوا إلى مدينة السجون في أبي غريب السجن المركزي حيث الأقسام المغلقة.

لقد مرّت خمسة شهور على افتراقهما لكنها عندما رأته وجدته كما هو لقد اصابه الهزال لكن عينيه لم يخبو فيهما ذلك البريق النفاذ.. وتشعان بالشهامة والأباء....

ورأت مجموعة من أزلام النظام أنهم يتشابهون في بدلاتهم الأنيقة وشواربهم الكثة ووجوهم القاسية وعيونهم الغائرة هذه هي الكائنات التي تحكم العراق.. لك الله أيها الوطن المقهور... كل جيران العراق ينعمون بالحرّية والأمان أمّا هنا فان الرعب يكاد يخنق الأنفاس .. هل يأتي يوم تنزاح فيه الظلمات عن أرض العراق و تشرق على ربوعه شمس الحرّية؟ آه يا لدفء الأمان وجمال الأمنيات.... هل يأتي اليوم الذي تنطفئ به نيران الحرب لقد مرّت أربع سنوات وماتزال النار التي أشعلها صدام متأججة ولا أحد يعلم متى ستكف طاحونة الموت عن ازهاق آلاف الأرواح!!

كانت ميسون ترسل نظراتها إلى شوارع بغداد... كم هي حزينة الناس يرتدون السواد حزناً على أحبة لهم رحلوا.. توقفت السيارة المسلحة أمام مبنى سجن الرشاد ونزلت ثلاث فتيات احداهن تشبه حورية هبطت من السماء ..

حتى العباءة التي مزقتها سياط الجلادين لم تنل من هالتها كانت تبدو أميرة سبية..

كان الجوّ بارداً ورياح تشرين تهبّ فتنفذ في الاجساد ا لمرهقة حتى تصل في العظم.. لكن ميسون لم يبد عليها الانكسار ابـداً الحـب الالهـي يمـدّها بطاقة روحية لم تكن شعرت بها من قبل... قادت الرقيبة أُم سفيان ميـسون إلى غرفة فيها سرير واحد في القسم الخاص باللائي حكم عليهن بالاعـدام وهو القسم السياسي الثاني.

كان وصولها إلى الرشاد حدثاً ليس عادياً كل السجينات كن يتطلعن إلى وجه يفيض براءة ونقاءً حتى الـسجينات في الأقـسام غـير الـسياسية كـن ينظرن إليها في ذهول ومازاد في اعجـابهن أنهـا دخلـت بـشموخ مرفوعـة الرأس بالرغم من حبل المشنقة الذي يلتف على عنقها .

ولم تفارق البسمة وجه ميسون إنّ أعماقها تنطوي على عالم مفعم بالحب والنور والسلام وهذا هو سرّ ابتسامتها والهالة التي تحيط وجهها...

احياناً عندما يـسرح خيالهـا إلى اسرتهـا إلى والـدتها ووالـدها وخالتهـا الحنون فان غيمة رمادية تعبر في تلك السماء وتحجب الى حين البسمة التـي تطل كالبدر من عينيها النجلاوين... أنها تدرك عمـق المحنـة التـي حلّـت بوالديها وتدرك هول المأساة التي نزلت على اسرتهـا تـشعر بالأسـى آه لـو يعلم والدها أنها لاتشعر بالأسف ولم تشعر بالندم لقد اختارت طريقها عن وعي تام فهي لاترى الموت في حب الله الاّ سـعادة ولا تـرى للحيـاة تحـت حراب البعثيين الاوغاد قيمة.. لقد اغتالوا مجد الحياة اغتـالوا كـل الأشـياء

الجميلة وحولوا جنان العراق إلى غابة موحشة لا يسمع فيها الإنسان إلاّ نهيق الحمير ونعيق الغربان وعواء الذئاب أما الاحرار فهم أما يعيشون مشرّدين أو رحلوا بعيداً أو يرزحون وراء القضبان القاسية.. لك اللهّ ياشعب العراق ...

تلقى أبو ميسون النبأ الرهيب بعد أيام من المحاكمة فانتفض كالمجنون يطرق الأبواب هنا وهناك وتمكن من لقاء مسؤول نافذ وعده بتغيير حكم الإعدام إلى المؤبد لقاء نصف مليون دينار ا نه يقدّم ماتبقى من ثروته لكي يرفع حبل المشنقة عن رقبة ابنته الحبيبة...

وكان يسعى للقاء ميسون لكن دون جدوى فالمواجهة ممنوعة منعاً باتاً انهم يحرمونه حتى من رؤيتها.. ولكن لابأس سوف يتحمل كل شيء لقاء الغاء حكم الإعدام ... نعم سوف يتحمل كل شيء... أما ميسون فقد أدركت إنّ ما تبقى لها من العمر ربما بضعة أسابيع وربما بضعة أيام.. لهذا اتجهت بكل وجودها إلى المحبوب الأبدي وبدأت رحلتها الروحية في سباق مع الزمن، إن ساعة الرحيل إلى الأبدية قد ازفت وعليها أن تستعد للقاء الحبيب حتى حبها لحسام إنما كان مجرّد قبس من ذلك الحب الخالد .

تلقت أُم حسام الخبر بصبر ... أحياناً يربط الرب على قلوب الأمهات ولقد شاء اللهّ أن تبحث الأم عن فلذتي كبدها فتلتقي أُمهات ثكالى وأرامل وترى دموع اليتامى.. لقد اكتوت بنار ا لمأساة وانصهر قلبها في بوتقه

الصبر.. وعندما أصبحت قوية بما يكفي جاء النبأ في صدور حكم الإعدام بابنها البكر وبالسجن المؤبد على ابنتها...

تلقت الخبر برباطة جأش كنخلة جنوبية تواجه عاصفة مجنونة.. إن خيمتها في مهب الأعصار فعمود الخيمة يعاني من الأسر وابنها ينتظر تنفيذ حكم الإعدام وابنتها سوف تمضي شبابها وعمرها وراء القضبان إن قلبها فارغ... وفي مثل هذه الظروف الحالكة ينبثق بصيص من نور الايمان بالله فتنفتح نافذة الأمل.. وكل شيء انما يجري بمشيئة الله فالأرض جميعاً قبضته والسماوات مطويات بيمينه ...

بعد أكثر من ستة شهور التقى حسام أُمه في عناق طويل كانت تشمّه وتذرف الدموع وكان حسام يهمس بكلمات يعرف أنها ستنفذ في قلب أُمه المسكينة.. ومن الذي يمكن ان يحول دون اسم الحسين وكربلاء وما قدمه الإمام من تضحيات وما جرى على زينب من المصائب والأهوال .

ـ يمه انت رضعيتني حب الحسين.... وهذا طريق أبو عبدالله وأبو الفضل وعلي أكبر.. وزينب العقيلة..

راح يسألها عن أنعام وعن والده واخوانه نظر إلى وجه أُمه فرأى عينيها يطلان منهما حزن ورأى الشيب قد غزا شعرها عرف ذلك من بياض ثلجي لخصلة نفذت من اسفل الشيلة..

أما هي فقد كانت تتفقد كل جزء فيه لقد هزل كثيراً وغار ماء الحياة في

وجهه.. لكن دفء صوته وكلماته آه يابعد روحي اراد أن يسأل عن ميسون لكن الحياء منعه فعاد للسؤال عن أنعام فقالت الأُم وقد أدركت مايعتلج في فؤاده .

ـ يمه مانعين عنها المواجهة.. البنات كلهن يريدون خاطرها ويحبونها.. بالنهار صايمة وبالليل تصلّي.

تساءل بشيء من الدهشه :

ـ أنعام تصلّي صلاة الليل؟ !

ـ يمه يا أنعام .. ميسون أحچيلك عن ميسون .. ماخلّوني أواجهه.. انشاء اللهّ.

ولمحت في عينيه دموعاً فقالت له ملاطفة:

ـ يا عيني على الحب !

ابتسم على الرغم منه:

ـ صايرة بغدادية !!

فرح حسام برؤية بعض الصور ومن بينها صورة له وهو يرتدي الصدرية ويقوم بفحص أحد المرضى في مدينة الطب.. وهي الصورة التي التقطت له بناءً على رغبة من والده...

* * *

أبو ميسون اشتعل الشيب في رأسه.. لقد تجمعت كل مصائب الدنيا لتنصبّ على رأسه مرّة واحدة...

قبل اختفاء ميسون ظهرت بعض الشعيرات البيضاء التي لاتكاد ترى في شاربه الاّ عن قرب حتى صدغه لم يجرؤ الشيب على الاقتراب منه.. أما الآن فقد غزاه الشيب واطلق لحيته التي ظهرت في مثل بياض ثلوج كردستان.. آه ياميسون لقد انكسر ظهري فأنا اليوم مجرّد أب ذرّف على الخمسين يدور في شوارع بغداد هذه المدينة القاسية يطرق الأبواب يبحث عن ابنته التي تخطّفها الذئاب في ليل البعث الحالك..

مايزال يتشبث بالآمال والوعود.. لقد وعده أحدهم بتغيير الحكم من الإعدام إلى المؤبد مقابل نصف مليون دينار.. وها هو يحمل إليه نصف المبلغ وبعد تغيير الحكم يحول إليه النصف الثاني...

مرّت قبل أيام مناسبة اربعين الإمام الحسين وقد ذرف الدموع الغزيرة.. وهو يتصور ابنته في موكب السبايا وقد انهال الشمر عليها بالسياط...

انهم يضعون حبلاً غليظاً على رقبتها ويجرّونها فوق رمال الصحراء.. فتصيح وتنادي وتطلب الغوث.. لكن صرخاتها واستغاثتها تذهب مع الريح...

الفرات ـ 21

سأل حسام والدته عن زيارة الأربعين هل عندها أخبار؟ قالت:

ـ يمه الناس تمشي للزيارة. شبان يردّون لأهاليهم.. وشبان ياخذونهم للسجن. يا هو اليصدهم.. الناس تصيح ابد و اللهّماننسى حسيناه..

طلب حسام من و الدته أن ترسل صورته إلى أنعام.. بعد أن كتب خلفها بعض السطور.. واكدت له والدته مرة اخرى أنها لن تخبر والده بأي شيء مما حصل..

كان تشرين الثاني يلملم أيامه الأخيرة ويبشر بشتاء قارس البرد...

جاء مأمور السجن على عجل يستحث والدة حسام على مغادرة المكان فوراً... ان المحكومين بالإعدام لا يمكن لأهلهم من زيارتهم يمكن فقط استلام الطعام والأشياء الأخرى ثم تسلّم للسجين..

لكن لماذا سمح هذا المأمور باللقاء.. لقد كان يعاني من حساسية جلدية فكتب له وصفة طبية ناجعة.. وقد تأثر السجان القاسي بأخلاق حسام فكان يحاول اسداء بعض الخدمات له ولمن معه...

حضر أبو ميسون مع زوجته للمواجهة ولكن دون جدوى فالمواجهة ممنوعه وهناك تأكيد خاص من قبل مدير السجن حسن العامري الرجل الغليظ القلب.

لقد رفضت الرقيبة أُم سفيان استلام المواجهة كانت مجرد بعض الطعام والثياب..

لهذا ظلوا ينتظرون ريثما تنتهي المواجهة فيسألان عن حالها وعن الأحوال في السجن..

لقد بعثر آلاف الدنانير بل مئات الآلاف من أجل تغيير الحكم وهاهو الآن يحرم حتى من اللقاء...

رياح تشرين تلفح الوجوه الساهمة وهي تحدّق في باب السجن.. خلف هذه الجدران وهذه الأسلاك الشائكة تقبع ابنته وفلذه كبده.. لقد مرّت شهور طويلة وهو يحلم بلقائها برؤية وجهها المشرق وضحكتها الجميلة.. اخرج صورة ملونة من جيبه.. كان قد التقطها لها قبل شهر من اختفائها... ميسون جالسة على كرسي مصنوع من سعف النخيل في وسط حديقة منزلهم الكبير.. فبدت لؤلؤه في بحيرة من المرج الأخضر تحيطها ورود الجوري والقداح كما ظهرت شجرة البرتقال.. التي تذكّره بطفولتها...

راح ينظر إلى ميسون وكأنه يحاول ان يطفئ غليل الشوق المضطرم في أعماقه أن يعوض عن احساسه بالحرمان..

فتحت باب السجن وظهر وجه الرقيبة أُم سفيان.. لايدري لماذا تقدم نحوها:

ـ رجاءً وصّلي هذي الصورة لبنتي.. ميسون غازي

ـ خبرتك انه ممنوع المواجهة.

قالت أُم ميسون وهي ترى محنة زوجها لقد عصف الدهر به حتى أوشك أن يتوسّل بهذه الساقطة:

ـ يعني حتى الصورة ممنوعة.. صار ست أشهر محرومين من شوفته.. على الاقل سلّميها هذه الصورة حتى تعرف احنا جينا للمواجهة.. والله حنموت من القهر..

شاب كلماته شيء من غضب مكبوت. مدّت ا لرقيبة يداً غليظة وأخذت الصورة من أبو ميسون ودستها في جيب بدلتها الداكنة.. كان وجهها عابساً قمطريراً، إن قلبها ولاشك ليس سوى كتلة من رصاص..

بدأت الأُمهات يغادرن السجن وقد فاضت اعينهن بالدموع ورأت أُم حسام رجلاً مع زوجته فأدركت انهما قد منعا من المواجهة اتجهت إليهما كانت أُم ميسون تتحدث مع أُم خرجت للتو.. قالت أم حسام:

ـ.. سودة عليّه ماخلّوني أواجه أنعام...

انتبهت أُم ميسون والتفت إليها..

ـ حجية انت أُم حسام؟!!

- أُم ميسون؟ !

تركت أُم ميسون هذه الأُم الجنوبية تعانقها...

أما أبو ميسون فقد انسحب من المكان متجهاً إلى سيارته التي تكاثف عليها غبار شهور عجاف طويلة...

هل تدرك الفراشات ان عمرها قصير بعمر الربيع فهي تمضي ساعات النهار تطوف في الحقول والمزارع وتنتقل بين الورود بخفة؟! وهكذا ميسون ربما كانت تدرك إنها لن تبلغ العشرين من العمر كانت في الثامنة عشرة من العمر عندما تخطفتها ذئاب البعث وألقت بها في هذا المكان الموحش.. لكنها ظلت كما هي تنظر إلى الحياة كفراشة ربيعية..

أشاعت ميسون بهجة في هذه المكان الموحش فوجوه السجانين العابسة وقسوتهم والظروف السيئة حولت هذا المبنى العتيد إلى جحيم لايطاق.. ثم حلّت ميسون على قدر...

كانت تشتمل على روح عظيمة جعلتها تسمو فوق الآلام فإذا هي تبتسم وتشرق ابتسامتها على الجميع...

لهذا كانت تنتقل بين الأقسام بيسر لأن عطرها انتشر في كل مكان.. حتى المعتقلات اللائي جيء بهن لأسباب لاتمت إلى النشاط الديني..

عكفت بعضهن على إعداد حلّه الرحيل... فلا أحد يدري متى

تُستدعى لتنفيد الحكم.. ولم تكـن تلـك الحلّـة عاديـة فهـي عبـارة سروال طويل من القماش الأبيض محكم النهايات وقميص طويل أيـضاً ومـانتو.. ثم تأتي مرحلة كتابة سورة «يس» ودعاء الجوشن والعديلة .

أحياناً كانت ترغب في المشاركة في ذلك العمل ولكنها كانـت تمنـع مـن ذلك، لقد عرفوا مبلـغ عـشقها الـسماوي فـتركن لهـا الوقـت تـستثمره في العبادة. .

كانت تحفظ نصوصاً رائعة مـن الـصحيفة الـسجادية.. فـإذا قامـت في الليل للصلاة انسابت المناجاة بصوت رقيق شجي... كانت ميسون اشـبه ما تكون بفراشة تطوف حـول شـمعة الحـب الإلهـي.. ان وجههـا يـسطع نوراً.. انها على وشك الاحتراق..

ولهذا دّبرت لها أخواتها في المحنة امر انتقالها إلى غرفة الهندسة لقربها مـن الحمامات بعد أن فاضت المجـاري في القـسم الـسياسي الثـاني... ولم يكـن الأمر يخلو من مجازفة ولكن ميسون تستحق التضحية...

كانت تعيش في قصر كبير كأميرة فتحت لها الدنيا أبواب حيـاة الرفـاه.. لكنها رفضت إلاّ ان تكتوي بمحنـة الـوطن فاختـارت الطريـق الـصعب اختارت الموت من أجل أن يحيا الوطن..

كانت مخلصة في حبها ولهذا كانت في غاية الرقة مـع صـديقاتها بـل مـع جميع الناس الطيبين وكانت قويـة في مواجهـة نظـام همجـي مـدجج بكـل

وسائل التعذيب والدمار..

فإذا هي ثابتة كالجبل قوية كالعاصفة طاهرة كقطرة ندى رقيقة خجولة كوردة بنفسج.. كانت حورية شعرها يشبه حقول القمح عند اطلالة الحصاد... وعيناها النجلاوان تنفتحان على عوالم مفعمة بالصفاء ... بحيرتان من عسل مصفى ينهض عل ضفافهما صف رشيق من النخيل وفى قامتها كبرياء وشموخ ا لجبال فإذا تكلمت انسابت كلماتها كساقية من الشهد فإذا رآها المرء حسبها حورية هبطت من علياء الفردوس. .

يحلو لها احياناً أن تقف إلى جانب النافذة الصغيرة تنظر إلى النجوم في أغوارها السحيقة.. كما تفعل في هذه الامسية.. اقتربت منها أُم إيمان وهمست:

ـ ميسون ماذا تتأملين .

أجابت وعيناها تسافران في المدى البعيد البعيد:

ـ أتساءل مع نفسي متى يحين إعدامي لأعبد اللهّ أكثر وأحظى بقربه أكثر..

غمغمت المرأة :

ـ ويح نفسي أنا احسب العبادة تكليف وعبء ينتهي مع انتهاء حياة الإنسان وهذه الفتاة تريد أن تعبد اللهّ حتى بعد هذه الحياة!!

انسحبت وتركت ميسون في رحلتها عبر آفاق الوجود وجاء صوتها عذباً رقراقاً وهي تشدو بحبها الخالد :

ـ أحبك يا بديع الكون.. يا تسبيحة الزمنِ...

وبي شوقٌ إلى مرآك.. في الأحشاء يحرقني..

أحبك يا صباح الروح يا أنسي لدى الشجنِ..

كانت السكينة تغمر المكان وكان صوتها كجدول يدندن يملأ وادي الوجود بصوته ا لرقيق...

ـ لأنك في دروب العمر بالحسنى ترافقني..

وتسمع صوتي الواهي وحين أزلُّ تدركني..

ولو ينسى وجودي الناس تبقى انت تذكرني..

ويتركني جميع الخلق لكن لست تتركني..

أحبك يوم ترأف بي على نعشي وفي كفني..

ويوم يهيل فوقي الموت نسياناً فيسترني.

احبك مدركاً اني على سوئي ستقبلني..

وتفتح بابك العلويّ وفي الفردوس تدخلني..

أحبك ياصباح الروح يا تسبيحة الزمن...

وتهدج صوتها وامتلأت عيناها بدموع الشوق :

ـ إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً؟!

ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا؟!

إلهي فاجعلنا ممن اصطفيته لقربك وولايتك !

وأخلصته لودّك ومحبتك!

وشوّقته إلى لقائك!

كانت الدهشة ماتزال مسيطرة على أُم ايمان وهي تتطلع بعينين متعبتين إلى ميسون تناجي حبيبها قالت وهي على وشك أن تغمض عينيها :

ـ ميسون !

ـ نعم

ـ عندي سؤال؟

ـ تفضلي

ـ ..

ـ أشو سكتّي! شنو السؤال ؟

ـ ماتخافين من الموت؟

ـ ..

ـ أنا أعتذر.. بس بصراحة نظرتك للحياة والموت ما مألوفة..

ـ زين كل هذه الأحاديث الواردة عن أهل البيت شنو فهمنا منها.. الدنيا ممر وليست مقر فخذوا من ممركم إلى مقرّكم خلقتم للبقاء لا للفناء.. اسمعي هذه الرواية.. جاء رجل ا لى الإمام علي الهادي عليه السلام .. أخبره أن فلاناً قد نزل به الموت وهو الآن يحتضر ويبكي خوفاً، الإمام توجه إلى داره وجلس قربه وراح يصور له الموت بهذا الشكل: إنسان يرتدي ثياباً رثه قد

تراكم عليه الوسخ أفلا يجب أن يدخل الحمام فيغتسل ويزيل عن جسمه الوسخ ثم يرتدي ثياباً نظيفة؟ ثم أقسم الإمام قائلاً: واللهّ هكذا الموت فابتسم الرجل وأغمض عينيه..

أما إذا كان الموت شهادة فقد قال اللهّ سبحانه ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِن خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ان اشرف الموت قتل الشهادة. و ما أعظم ان يقتل الإنسان على أيدي هؤلاء الأُمويين..

سكتت لحظات ثم قالت:

ـ صدّقيني أحياناً أقول مع نفسي ماذا قدّمت لكي احصل على مجد الشهادة في سبيل اللهّ؟! هل هذا كاف أم تريدين ا لمزيد؟ !

ـ ...

ـ أُم ايمان!!

همست وهي تبتسم...

ـ صار لي ساعة أخطب لوحدي.. راحت ادراج الرياح.. وجاءها صوت فاطمة :

ـ أبداً كلماتك ستبقى خالدة.. خلود الشهداء.. وسوف يسمعها الناس ذات يوم.

ـ حبيبتي فاطمة حرمتك من النوم.. صحيح؟

وجاء صوت فائقة!!

ـ يابنات خلّونا ننام.

همست فاطمة:

ـ ميسون لاتنسي القصيدة.. يوم الجمعة مجلس عزاء بمناسبة وفاة النبي والملاّية كلثوم تريد قصيدة بالمناسبة .

قالت ميسون بصوت هامس:

ـ حاضر...

في قلب الليل سكينة تغمرها ظلمات متكاثفة وكانت السماء مرصّعة بالنجوم وقد غاب القمر... وقلما يصادف المرء سماءً صافية في نهايات تشرين الثاني.. لكن ميسون التي وقفت إلى جانب النافذة في تلك الليلة الخريفية رأت آلاف الملايين من النجوم.. انسابت كلمات مفعمة بالحب.. كلمات مضمخة بالدموع.. تصّاعد من قلب كسير تلقى الاشراق فأدرك الحقيقة.. لا شيء سواه وحده...

وبدت النجوم قلوباً تنبض بالحب.. آه ما أجمل ا الكائن البشري وهو يجثو في رحاب الوجود.. يمدّ كفيّه إلى نقطة تتجه لها بوصلة القلوب العاشقة..

واصغت الكائنات لكلمات لكلمات فتاة عاشقة هائمة في الحب الكبير..

العارفون العاشقون.. و العاشقون العارفون هم وحدهم من يعرف اسرار الكلمات في اعماق ا لليل المترع بالظلمات.. وفي قلب السكينة.. من أجل هذا ينفضون عن اهدابهم سنة النائمين فكؤوس الحب لاتنال إلاّ العشاق..

يارب.. وتنساب كلمات مفعمة بالعشق الإلهي لتؤلف لحناً سماوياً يتألق بالنور..

هذه السماوات المكتظة بآلاف الملايين من النجوم..المجرّات والسدم.. والشموس إنما هي جزء من ظلك الوراف يا إلهي! كل شيء خاشع أمام قدرتك.. مستسلم لإرادتك.. تبارك اسمك..

وما الأشياء يا إلهي إلّا ظلالك وما هي إلّا انعكاس لجلالك وفيض وجودك اللانهائي ... وجودك المطلق الممتد من الأزل إلى الأبد..

قلبي بين يديك.. اجعله يا إلهي صادقاً مؤمناً عاشقاً والهاً ومتيماً بحبك..

اجعله يا إلهي مؤمناً بك وحدك.. املأ جنباته بنورك الذي أشرقت الأرض واضاءت له السماوات..

املأه بفيض وجودك.. حتى لا أكاد أرى سواك ولا أرى شيئاً غيرك... حتى نفسي.. أيها الحبيب...

أنت البداية وأنت النهاية..

وغمرتها قشعريرة سرت في جسمها كما يسري التيار الكهربائي.. لم تكن لبرودة الهواء صلة بما اعتراها فقد شعرت بأنها ترتفع عن الأرض... وتتخفف من عبء الحياه...

إنها تطوف بين النجوم.. وكانت تلهج باسم حبيب الله.. فتبلغ سدرة المنتهى.. أنها تكاد تلمسه وتشم فيه شذى الحب الالهي.. وان اسمه الجميل يغدو انشودة ترددها الكائنات في تلك الليلة التي بدت في ظلمتها راهبة في معبد واسع تتدلى من سقفه آلاف الملايين من المصابيح..

آه إنها ليلة الذكرى الحزينة.. يوم رحل السلام إلى الرفيق الأعلى.. فإذا الأرض مظلمة.. والآفاق تضج.. بعواء الذئاب.. إنهم ينسلون من مغارات الجهل والعنصرية والطائفية ويحاولون إعادة التاريخ إلى الوراء إلى عصور الهمجية..

وتنساب كلمات تشكو إلى الحبيب ما يفعل أعداؤه القدامى .

عزائي فيك يا نعم الرسول

وذكراك ا التي ليست تزول

وأشكو سيدي ظلم الزمان

وطاغ سام شعبي بالهوان

فبا لاحزان دهري قد طواني

وبالحسرات دمعي قد كواني
فهاك اسمع بلائي يارسول
أنا في أُمة فنيت عذابا
وطالت محنتي والقلب ذابا
ودمعي لم يزل جارٍ سكابا
لمن شكواي ابدي والعتابا
سواك اليوم اسمع يارسول

وفي اليوم الثاني أقيم العزاء على صاحب الذكرى وجرت الدموع.. آه إن حرائر العراق سبايا تلهب سياط الجلادين أبدانهن.. وكان الغروب قد تكاثف حزنه كعادته في كل يوم جمعة..

وقفت ميسون في الشبكة وهي عبارة عن مساحة من الأرض الخالية كفلاة مقفرة يسمح السجانون أحياناً للسجينات في الخروج إليها..

والساحة يحيطها جدار مرتفع من البلوك الاسمنتي ثم أسلاك على ارتفاع ثلاثة امتار لهذا لم يتسن لميسون رؤية الأشجار التي نبتت على مقربة من السور حتى أشجار الكالبتوس السامقة.. ولم يكن لها هم في ذلك فقد كانت ترنو إلى السماء كطائر سنونو يترقب ساعة الرحيل إلى أرض الربيع.. وتسلل صوتها العذب عبرة النافذة وهي تشدو في حضرة الحبيب..

فليتك تحلو والحياة مريرة

وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر

وبيني وبين العالمين خراب

ذهبت أُم ميسون إلى منزل أختها وقد ترك أبو ميسون لها الحرية في أن تمضي أوقاتها بعد سماعها بالنبأ كيف ما تحب .

أحياناً كانت تنطلق إلى زيارة باب الحوائج موسى بن جعفر فتقف في باب المراد ذاهلة عن نفسها ثم تلج إلى الداخل وفي اغلب الاحيان كانت تذهب إلى الزيارة ومعها ابنتها الصغيرة..

أما في هذه المرة فقد اثارت استغراب زوجها الذي أوصلها بالسيارة إلى منزل اختها دون ان تصطحب أحداً معها..

عاد أبو ميسون أدراجه يجتر أحزانه ويفكر في سرّ ذهاب زوجته إلى منزل أختها في هذا الغروب الخريفي البارد..

يقولون إن الخريف يثير الحنين والأشواق وكانت أُم ميسون في الأيام الأخيرة تتخيل طيف ابنتها وهي ترتدي ثوب الزفاف سعيدة تشرق الفرحة من عينيها...

وعلى هذه الصور الملوّنة تغفو وتصحو.. اجتاحتها رغبة في أن تذهب إلى منزل اختها حيث تحتفظ هناك بحلة العرس وبعض الاساور والاقراط وعقد من اللؤلؤ..

تبادلت الاختان كلمات ودودة...

وضعت أمامها علبة كبيرة من الكارتون وصندوق صغير من الخشب..

فتحت أُم ميسون الكارتون واستخرجت حلة الزفاف كانت ناصعة البياض كغيمة رباب.. لم تحتمل المشهد فاستغرقت في بكاء صامت.. آه يا ميسون! ما أحلاك وأنت ترفلين في ثوب الزفاف!! .

همست ميسون في أذن فاطمة، أبدت رغبتها في رؤية حلّة الرحيل.. لم يكن لدى أي منهن ترحيب بذلك فرؤية الكفن أمر يبعث على الاكتئاب.. لكن نظرات ميسون التي أودعتها توسلات صامتة كانت أقوى من أن ترفض قدمت لها منديلاً مورداً فتحته برفق واستخرجت حلّه الرحيل البيضاء... كانت مطرزة بكلمات مقدسة. نشرت القميص فظهرت لها آيات من سورة يس قلب القرآن الكريم..

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِث فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾..

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ* اتَّبِعُوا مَن لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾..

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ * وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُند مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا

مُنزِلِينَ * إن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ* يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِن رَّسُول إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّة وَهُوَ بِكُلِّ خَلق عَلِيمٌ﴾.

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْء وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ثم راحت تتأمل في مقاطع من دعاء العديلة..

شهد اللهّ أنه لا إله إلّا هو وأولوا العلم قائماً بالقسط.. لا إله إلاّ هو العزير الحكيم.. إن الدين عند اللهّ الإسلام..

أشهد لمنعمي وخالقي ورازقي ومكرمي كما شهد لذاته وشهدت له الملائكة وأولوا العلم من عباده بأنه لا إله إلاّ هو ذو النعم والإحسان والكرم والامتنان.. قادر أزلي عالم أبدي حي أحدي موجود سرمدي سميع بصير...

أشهد أن الموت حق والميزان حق والكتاب حق والجنة حق والنار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن اللهّ يبعث من في القبور.. اللهم فضلك رجائي.. وكرمك ورحمتك أملي..

تشفعت إليك بالنبي وآله.. وأنت أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين..

وانتقلت عيناها النجلاوان إلى كلمات من دعاء الجوشن:

لك الحمد يارب من مقتدر لايغلب.. وذي أناة لا يعجل صلّ على

محمد وآل محمّد وأجعلني لنعمائك من الشاكرين ولآلائك من الذاكرين الهي.. كم من سحائب مكروه جليتها وسماء نعمة مطرتهاوجداول كرامة أجريتها...

الهي وسيدي كم من عبد أمسى وأصبح مغلولاً مكبلاً في الحديد بأيدي العداة لايرحمونه فقيداً من أهله منقطعاً عن إخوانه وبلده يتوقع كل ساعة بأي قتلة يقتل... و غرقت الكلمات في الدموع فأخذت فاطمة برفق بطرف من القميص فانفلت من بين أصابع رقيقة...

وتصوّرت ميسون والديها يطرقون الأبواب ويستعطفون الذئاب بحثاً عنها وسعياً إلى لقائها..

وانتقل خيالها الوثاب إلى حسام خطيبها الحبيب الذي نهض يقاتل ومعه ثلّة من الشباب نظاماً همجياً لا يرحم.

قالت إحداهن تريد أن تدخل شيئاً من المرح..

- يا عيني على الحب !

تورّدت وجنتها حياءً فكأنما تفتحت وردة جوري على خدّها.. وأطرقت برأسها ولاذت بالصمت..

من يراها في رقّتها وحيائها واطراقتها لن يصدق أنها جابهت ذلك الوحش تردّ عليه بشجاعة هي قبس من شجاعة زينب التي وقفت أمام يزيد سلطان الشرق الأوسط تقول له:

ـ ولئن جرّت الدواهي عليَّ يا يزيد مخاطبتك اني لاستصغر قدرك..

ولعل ميسون قد شعرت بروح العقيلة وهي تقول أمام الوحش المدجج بوسائل التعذيب...

ـ إنّ طريقي هو طريق الأنبياء ..

إننا نفتدي الوطن بأرواحنا ..

أُم ميسون تغرق وجهها في حلة زفاف ابنتها فتمسح اختها على رأسها وتبكي بصمت كسماء تمطر على هون..

دجلة ـ 24

تدهورت صحة أُم ميسون بشكل سريع ولم تتمكن من مرافقة زوجها إلى سجن الرشاد فاضطر للذهاب وحده عسى ان يسمحوا هذه المرّة باللقاء..

رياح كانون تلفح الوجوه.. وكانت ميسون تترقب هذه المرّة يوم المواجهة فكان قلبها يحدّثها بقرب الوداع.. كانت تتأمل في صورة تحاول اخفائها عن الأعين ... تعيد قراءة الكلمات التي حفظتها فتندمج الدموع بالكلمات كانت ميسون في غفلة عن النظرات التي تبادلنها انهنّ يدبرّن مؤامرة لمعرفة ما في الصورة..

اقتربت إحداهن..

ـ ميسون نريد رؤية هذه الصورة...

توردّت وجنتها وناولتهم الصورة راحت فاطمة تتأملها فتاة في ميعة ا لشباب تجلس على كرسي مصنوع من سعف النخيل في حديقة غنّاء تكشف

عن بيت فخم يشبه القصر فالحديقة كبيرة وقد ظهرت شجرة برتقال زاهية الخضرة. وميسون تلوح بيدها وترسم شارة النصر تجرأت فائقة لتقول :

ـ أما زلت تعدّين نفسك منتصرة؟

ـ ولم لا نحن نسير في طريق الحسين... لقد هوى صريعاً وفي جسمه عشرات الجراح ومع ذلك فقد انتصر... لأن الدم ينتصر على السيف..

تدخلت إحداهن وهي تشير إلى صورة أخرى في يدها !

ـ نريد تلك الصورة!

ـ أبداً !

ـ سنأخذها بالقوة.. أنت لن تتمكني من منعنا .

ـ فكري جيداً وكوني فتاة عاقلة ..

ـ لماذا هذا الحرص إنها مجرد صورة؟ !

ـ قولي لنفسك هذا الكلام !

وفي الأثناء كانت فائقة تتسلل من خلفها ثم تمدّ يداً خاطفة فإذا الصورة في يدها.. وراحت الصورة تنتقل من كف .

ـ وأخيراً رأينا صورة الخطيب .

ـ صورة الحبيب

كانت ميسون تذوب حياءً .

هتفت احداهن وهي تقرأ السطور خلف الصورة:

ـ سمعن يا بنات .

وراحت تقرأ بطريقة مسرحية:

ـ ابكيك فخراً إن بكوك حداداً .

فجأة كفت عن الاداء وتغيّرت لهجتها. لقد أثـر فيهـا الموقـف جلـست على الأرض وسوّت خصلة من شعرها الفاحم وراحـت تقـرأ الأشـعار.. فهذا الفتى هو الآخر عاشق على وشك الرحيل وهذه حبيبته أسيرة خلـف القضبان.. تهدّج صوتها وهي تقرأ ماكتبه الحبيب إلى حبيبته:

ـ أبكيك فخراً إن بكوك حداداً

وأذوب فيك محبّة ووِدادا

واطوف في دنيا الصبابة عاشقاً

دقّ الهوى في قلبه أوتادا

فدمي إلى دمك الشريف مسافر

وخطاى تسبقني إليك جيادا

كانت الصورة تنتقل مـن كـف لكـف والكلـمات تطـوف بـين العيـون وتسيل الدموع.. كانت فاطمة أكثرهن إحساساً بالفجيعة.

آه!! أهكذا يحيا العاشقون؟! لقد كان بإمكان حسام وميسون أن يلتقيـا ويعيشا حبهما.. ولكن حبهما كان كبيراً اتسع ليشمل الوطن.. كان في حبهما شيء سـماوي يختـلج في النفـوس المؤمنـة والأرواح الطـاهرة.. نعـم أحـب

أحدهما الآخر.. ولكن في ظلال السماء.. عشق أحدهما الآخر ولكن في أحضان ا لوطن.. وعندما حانت لحظة اللقاء أبيا إلّا أن تكون في عراق يستحم بشمس الحرّية..

آه أهذا ماكان يقصده شاعر العراق العظيم:

لو جئت في البلد ا لغريب إليّ ..

ما كمل اللقاء..

الملتقى بك والعراق على يدي هو اللقاء!

همست إحداهن :

ـ ميسون أتبقى هذه الرسالة دون جواب؟!

قالت ميسون وقد ماجت في فؤادها المشاعر

ـ هل من قلم؟

وما أسرع أن بادرت آمال تبحث هنا وهناك.. وأخيراً عثرت على قلم في الرمق الأخير كأنه ينتظر ليكتب آخر رسالة حب:

أمسكت ميسون بالقلم وشرعت تكتب فوق صورتها كلمات عاشقة:

ـ يا قلب لاتجزع إذا عظّك الأسى

ـ فإنّك بعد اليوم لن تتألما

ويا قدمي ماسرت بي لمذلّة

ولا ترتقي إلّا إلى العزّ سلما

فلا تبطئي سيراً إلى الموت وأعلمي

بأن كريم القوم من مات مكرما

قالت فاطمة:

ـ هذه الصورة يجب أن تصل بأسرع وقت إلى أنعام .

قالت أخرى:

ـ ستسلمها أنعام إلى أُمها في المواجهة.

ـ وأخيراً ستصل إلى حسام...

ـ الحبيب الغالي ...

ـ تورّدت وجنتاها حياءً..

آه ما أسماك يا ميسون.. ما أنبلك وأنتِ ترفلين بحلل من الفضيلة والحب والحياء...

دجلة ـ 25

لم يسمح لوالد ميسون في لقاء ابنته وطل ذلك الأمر لغزاً.. لقد بعثر أمواله على هذا وذاك وكأنه يطلب منهم أن يفرّقوا بينه وبين ابنته إلى الأبد..

رفضوا استلام المواجهة كعادتهم في كل مرّة كان يحمل معه برتقالة من شجرة البرتقال لقد اثمرت هذا الموسم برتقالة يتيمة حملها أبو ميسون إلى ابنته.. كانت تقول عنها أنها اختي التوأم... ظهرنا إلى الوجود معاً..

رقّت الرقيبة نورية وقلما ترق فأخذت البرتقالة..

أما هو فعاد أدراجه إلى منزله كسير القلب مهيض الجناح .

لم تكن ميسون ابنته فقط، كانت حبيبته، لقد أصبح له بعدها بنون وبنات ولكن ميسون ظلّت كما هي تتربع على قلبه وها هي الآن تستعد للرحيل..

لا أحد يدري كيف تمكنت زهراء من اقناع الرقيبة نورية في السماح لميسون بمقابلة أُم حسام.. عندما وقعت عيناها الكليلتان على ميسون عانقتها بلهفة حتى أنها لم تفعل ذلك مع ابنتها أنعام.. مرّرت كفها المعروق على حقل ذهبي قبلتها وملأت صدرها من شذاها..

قالت ميسون:

ـ عندي طلب يا خالتي.. أرجوك لا تردّيه:

ـ اطلبي بنتي واللهّ أنا حاضرة افديج بروحي

ـ اشكرچ خالة أريد تروحين إلى أهلي وتطلبين يدي رسمياً!

عانقت أم حسام ميسون وهي تبكي

قالت ميسون وهي ما تزال في عناقها :

ـ أرجوك لا تردّي طلبي.. لأن عاهدت حسام وأُريد أوفي بعهدي.

مررت ميسون أناملها الرقيقة على دموع المرأة التي ستثكل بفلذة كبدها وخطيبته .

ـ بنتي ميسون اشگول إلهم وما ندري يا ساعة .

ـ ارجوك خالة!!

ـ صار بعيني حبيبة...

أبقت ميسون البرتقالة فوق وسادتها تستنشق عبيرها، إن كثيراً من ذكريات الناس الحلوة والمرّة أيضاً ترتبط بروائح ما..

تكفي ورقة كالبتوس أن تعيد المرء إلى الوراء أربعين سنة وكان لميسون ذكريات مع شجرة البرتقال التي تنهض في زواية الحديقة.. كانتا تنموان معاً.. وسوف ترحل عن قريب لكن شجرة البرتقال ستبقى ذكرى لها حيّة لوالديها..

تحاملت أُم ميسون على نفسها واستقبلت أُم حسام بترحاب يليق بضيف يشاركهم المحنة..

على عكس أُم ميسون كانت أُم حسام تبدو قوية إنّها تنتمي إلى جيل الأمهات اللائي يرى في الحياة الذليلة أسوأ من الموت والموت الكريم أحلى من الحياة..

جلس أبو ميسون صامتاً بعد ان رحب بضيفته التي كانت على وشك ان تكون أماً لصهره..

أُم ميسون أيضا كانت ساكتة وإن بدت في حال لابأس بها ... في عينيها حزن عميق وانكسار.. ان ابنتها البكر ميسون التي فجرت في أعماق أُمها نبع الأُمومة وأيقظت في قلب والدها بحر الأبوة سوف تزف إلى الموت غريبة لا أهل ولا أصدقاء احتفلت بربيعها التاسع عشر وراء القضبان الصدئة وفي زنزانات البعث المقرورة بعيداً عن الشمس والهواء الطلق بعيداً عن دفء الأسرة.

قالت أُم حسام وهي تتحاشى النظر إليهما:

ـ جيت أطلب يد ميسون لابني حسام .

راح أبو حسام يبحلق في هذه المرأة ربما أصابها مس من الجنون فهي تهذي أو سيطرت عليها الأوهام.. ولكن لا شيء يبدو على محياها أبداً لقد كانت في كامل اتزانها تحيطها هالة من الوقار.. ولكن مامعنى هذا الكلام؟!!

أجهشت أُم ميسون بالبكاء قالت:

ـ حطمت بنتي شبابها.. ضيعت نفسها.. شنو فايدة هذا الكلام يا أُم حسام؟ !

هل تخبرها بأن ذلك كان رغبة ميسون وقد أصرّت على ذلك، هل تقول لها أنها قطعت عهداً لحسام وعليها أن تفي بوعدها؟

ـ يا أُم ميسون الذي صار قسمة والمكتوب على الجبين لازم تشوفه العين.. نطرت سنين يا سنين حتى يكبر حسام واشوفه دكتور.. تاليها صار اللي صار وجرى اللي جرى.. وإذا اللهّ كتب له الشهادة يروح فدوة لأبو عبداللهّ الحسين وياما راحت شباب بهذا الطريق...

السجون تغص بالشباب والبنات أنعام تگول: ميسون فرحانة واللهّ العظيم من شفتها تذكرت سكينة..

ـ انت قابليتها؟!

ـ إي واللهّ مثل الوردة.. طلبت مني ازوركم و...

ـ تفضلي حيبرد الچاي أُم حسام .

بذلت أُم حسام المستحيل لتحبس دمعة انبجست من عينيها المكدودتين، كانت تنتظر اليوم الذي تشاهد فيه ابنها حسام عريساً ولكن يا لقسوة هذا الزمان.. زمان الذئاب...

رياح كانون تلفح الوجوه والأشياء بـالبرد والـصقيع.. كـل شيء بـارد متثلج في ساعات الصباح وكانت السماء مثقلة بغيوم كابيـة.. وفي الـسجن يكون الشتاء اكثـر كآبـة حيـث يتلفـع الـسجين ببطانيـة منزويـاً في مكانـه منـسحباً إلى داخـل نفـسه.. وربـما يقـوم بانجـاز عمـل مـاببطء يـضاهي السلحفاة...

أما ميسون فقد غادرت غرفتها.. تنشر بخفتها وانطلاقها الدفء..

وخارج أسوار السجن كانت الـسواقي مـاتزال متجمـدة منـذ الفجـر والأشجار منكمشة والشمس منطفئة وراء جبال من الغيوم..

وتنطلق الكلمات تشدو بها ميسون كعادتها وهي تشيع اجواء الـدفء في القلوب حتى لا تضعف أمام المحن وعاديات الزمن :

ـ هاج شوقي للفرات
والنخيل الباسقات
انني آت قريباً
ليس يثنيني الطغاة

لطالما سمعت بالذين هاجروا وحملوا السلاح من أجل الإطاحة بالطغاة وتحرير الوطن.. لطالما رحلـت عيـون الـذين يرزحـون تحـت نـير الظلـم ويتأوهون من وقع سياط الجلادين.. إلى هنـاك إلى الأرض التـي أشرقـت فيها الشمس أنهم قادمون يحملون معهم النهـار.. والربيـع والفراشـات..

سوف يطردون جيوش الظلام.. سوف يبقرون بطن الوحش.. ولكن متى؟! متى.. انهم قادمون ولا شك يغنون للقائد الغائب والشاهد الشهيد .

باقر الصدر منا سلاما　　أي باغٍ سقاك الحماما
أنت أيقظتنا كيف تغفو　　أنت أقسمت أن لن تناما
كيف تناى بعيداً ولما　　يبلغ المؤمنون المراما
قد فقدناك زعيماً لا يجارى　　فبكيناك دماً دمعاً سجاما
غبت عنا سريعاً ولما　　يطرد الثائرون الظلاما
يا شهيداً قام فرداً　　ينتضي للطغاة حساما
أنت كالسبط حسين　　قد أبيت الحياة مضاما

دمعت بعض العيون وتندّت للكلمات التي تتغنى بالرجل الذي قال: لا في زمن مثقل بالخنوع..

اقترب صوت خطوات ثقلية أنها الرقيبة أُم سفيان التي أطلت بوجهها الصخري الجامد:

ـ هاي شبيهة ميسون.. فاتحة لنا إذاعة من الصبح.. هاج شوقي للفرات.. أريد افتهم انت اشجابچ على الفرات.. انت من بغداد هو من الناصرية.. دجلة وين والفرات وين؟!

قالت ميسون تحاول اغاظتها :

ـ معلوماتچ بالجغرافية ضعيفة .. دجلة والفرات يلتقون ويكونون نهر واحد .

ـ أصلاً انت شايفه الناصرية.

ـ لا .

ـ زين منو جابچ على الفرات .

ـ الفرات نهر خالد بقلوبنا.. تعرفين معنى كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء .

ـ لا .

ـ تعرفين معنى لا أرى الموت إلّا السعادة والحياة مع الظالمين إلّا برما .

ـ لا .

ـ تعرفين معنى : هيهات منا الذلة .

ـ لا.

ـ بس شنو تعرفين ؟

حاولت أن تثأر لنفسها:

ـ أعرف آني راح اتزوج ويصير عندي ولد اسمه..

ـ سفيان؟ !

ـ نعم سفيان.. وأنت راح يعدموچ بعد يومين ثلاثه..

ـ تعرفين شنو الفرق بيني وبينچ .

ـ واضح انت سجينة وأنا حرّة طليقة .

ـ بـالعكس. ان تخـافين حتـى مـن خيالـك.. تـرجفين مـن يجـي مـدير السجن. أنا وقفـت بوجـه المجـرمين.. الإنـسان الخـايف مـايعرف معنـى الحرّية..

ـ هذي فلسفة ماتفيدج.

ـ الفرق بيني وبينك أنا عشت حياتي مثل الفراشة عمرهـا قـصير لكـن سعيدة بالحقول والمزارع والورد والأزهار..

ـ وآني شنو عيني ؟

ـ انت مثل الركة.. تعيش مية سنة وكلشي ما تفتهم من الحياة..

فرّت الرقيبة نورية بعد أن علت قهقهات الفرح في القسم .

ثم تصاعد نشيد من أفواه الجميع وكانـت الـسماء قـد بـدت مـشحونة ترسل الصواعق ويهطل المطر .

أنا كنت أعلم أن درب الحق بالأشواك حافل
خال من الريحان ينشر عطره بين الجداول
لكنني أقدمت أقفو السير في خطو الأوائل
فلطالما نصر الإله جنوده وهم القلائل
فالحق يخلد في الوجود وكل ما يعدوه زائل
سأظل أشدو باسم إسلامي وأنكر كل باطل .

كفّت رياح كانون عن الهبوب لكأنها شعرت بالاعياء وساد السكون.. فجأة دوى الرعد فقطع أوصال الأرض.. وتدفق المطر غزيراً.. فتتكاثف مشاعر الغربة في روح السجين..

في ذلك المساء كان صوت ميسون ينساب رقراقاً وهي تقرأ دعاء كميل كلمات علي في احدى سجداته سجلها الشهيد كميل بن زياد الذي واجه جلاد العراق في العصر الأموي الحجاج بن يوسف.. هاهي ميسون تقرأه وقد واجهت جلاد العراق في القرن العشرين..

تصورت نفسها في ظلال آلاف المرايا حيث تمتمات العاشقين القادمين لزيارة ائمة الهدى من آل الرسول.. كان صوتها شجياً لأنّه يتدفق من قلب عاشق رأى الجمال المطلق وهام به هاهي تمدّ كفيها إلى السماء وتبتهل:

ـ أسألك يا اللهّ برحمتك التي غمرت الأشياء في هذا الوجود المترامي..

نورك وحده الذي أوجد كل شيء.. فخرجت من ظلمات العدم

خالق الكون وواهب الحياة.

وأسألك يا اللهّ بعظمتك التي تغمر الوجود وما جلال الكون إلاّ شعاع من مجدك..

وما هذه الطبيعة إلّا بعض فيضك..

أسألك بوجهك الخالد.. حيث كل الأشياء ماضية إلى الزوال.. وأنت.. وحدك الباقي..

تباركت أسماؤك..

أنت وحدك تعلم مواقع ملايين الملايين من شموس ونجوم وكواكب في السماء.. وتعلم مستودع ملايين الملايين من البذور في الأرض.. وتعلم يا إلهي ذرات الرمال الغافية في الصحاري .

أسألك يا إلهي بنورك الذي أشرقت به السماوات والأرض..

أيها النور الذي يغمر الوجود.. أيها الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية...

يا من هامت بحبك قلوب العاشقين.. وطافت حول عرشك الأرواح المتيمة..

إن قلبي يتفتح لتلقي النور الذي يشرق على الأفئدة

أنا قادمة إليك.. أرى تألق جمالك وبهاء جلالك..

إلهي خذني إليك لأنعم بالقرب منك.. وليسطع اسمك على قلبي..

إلهي هذه كلماتي مضمخة بدموعي وآهاتي يا رب عندما أسجد في رحابك أشعر بالأغلال تتكسر وبالقيود تتحطم وعندما أتضرع في حضرتك أشعر بكرامتي وإنسانيتي إن انسام حرّيتي تهب من سماواتك ونور الكرامة ينبعث من نور عرشك.. فما أعظم مجدك يا إلهي وما أسمى جلالك وأبهى جمالك!

منزّه أنت في سماواتك وأرضك..

كل شيء يهتف باسمك ويدّلني عليك.. أنت الذي غمرتني برحمتك

وحنانك منذ كنت جنيناً في بطن أُمي وبرحمتك نفخت فيّ من روحك..

وها أنا قادمة إليك فاقبلني واصفح عني لغفلتي

أنت يا إلهي وحدك الذي تراقب الوجود والحياة والإنسان

يا من تسبح القلوب العاشقة في بحار إشراقه

ويا من تطوف حول عرشه الكائنات

اغمرني بعطفك وحنانك

يا إلهي مالي أحدٌ سواك..

هذا فؤادي بين يديك.. اجعله يا إلهي صادقاً مؤمناً عاشقاً والهاً ومتيماً بحبك أنت وحدك..

ونظرت إلى الأعلى نظرة نافذة اخترقت حواجز الزمان والمكان.. كانت تعيش لحظات عوالم بعيدة.. لحظات ليست من زمن الأرض.. يتحرّر فيها الإنسان من اغلال الطين وسلاسل المادّة.. فإذا البصر حديد وإذا الروح تنفذ من خلال خلايا الجسد ويفلت القلب من بين قضبان القفص الصدري. فجأه يغمر نور باهر الكائن الإنساني كما ترتفع الطائرة النفاثه فوق جبال الغيوم فجأة تجد نفسها تستحم في ضوء الشمس..

وشعت هالة من النور أحاطت بوجه ميسون.. نور عجيب شفاف لا يشبه نور القمر ولا ضوء الشمس إنه نور ينبعث من أعماق النفس المطمئنة بالايمان..

من يراقب ميسون في تلك الأيام يدرك أنها تستعد للرحيل، إن القلب لا يخطئ أبداً..

كان وجهها يتألق نوراً والفرحة تشرق في عينيها النجلاوين.. إنها على موعد مع الحبيب..

وجثت للصلاة في استغراقة طويلة ملكت مشاعرها وضميرها وانطلقت الروح إلى حيث تحلّق ارواح ا العاشقين..

آه ما أقسى هذه الذئاب أنها تدوس بأقدام غليظة على ورود البنفسج فتذوي شهيدة، آه ما أقسى هؤلاء الأوغاد انهم يعربدون ويدمرون ويسفكون الدماء ويزهقون ارواح الأبرياء.. في نفس اللحظات التي سخر فيها الشيطان من آدم وقد تناول من الشجرة المحرّمة وفي نفس اللحظات التي قتل فيها قابيل أخاه وأُهدي فيها رأس يحيى إلى سالومي.. وفي نفس اللحظات التي هوى فيها سيف ابن ملجم على هامة علي وارتقى فيها الشمر صدر الحسين..

آه إن ميسون عاشت في لحظات زمن أطلق فيها صدّام رصاص الغدر على صدر العراق.. وها هي الجنة تفتح أبوابها لتستقبل قوافل الشهداء..

إن ميسون على وشك الرحيل إنها الآن في قافلة فيها ألف فتى وألف فتاة.. تتبعها قوافل وقوافل حتى يبلغ الكتاب أجله وحتى تنزل سورة النصر.

آه متى يحين موعد الإعدام لألتقي الحبيب؟ !

سوف تصعد المنصة وعندما يضعون الحبل على عنقها تكون قد انطلقت بعيداً تاركة وراءها رداء الطين.. ترفل بحلّة بيضاء بيضاء كطيور النورس تحلّق فوق شطّان بحر من نور..

هناك ستنعم بالنور اللانهائي .

بسم اللهّ النور

بسم اللهّ نور على نور

بسم اللهّ الذي هو مدبر الأمور

بسم اللهّ الذي خلق النور من النور

الحمد للهّ الذي خلق النور من النور وانزل النور على الطور في كتاب مسطور بقدر مقدور على نبي محبور

الحمد للهّ الذي هو بالعز مذكور وعلى السرّاء والضراء مشكور..

دجلة ـ 26

أفطـرت ميـسون عـلى شربـة مـاء وكـسرة خبـز ونهـضت للـصلاة.. استغرقتها حالة هيام يذهل فيها العاشقون عـن كـل مايـدور حـولهم مـن صخب الحياة..

غمرتها حالة من السكينة.. كل شيء يلفه سـكون مطلـق.. حتـى أنـين الرياح انقطع وصراخ المعذّبين الذي يراودها أحياناً في خلوتها تلاشـى هـو الآخر... ان روحها تسطع تتوهج لكأنها تريد النفاذ من خلايا جسم ينتمي إلى الطين..

فاطمة وزهراء وكل اللاتي التقين ميسون منـذ أربعـين يومـاً أدركـن إنّ ميسون تستعد للرحيل وهي في هذه الأيام تشعر بدنو الأمـر.. لقـد ازفـت الساعة أو أنها بلغت في عشقها مرحلة الفناء في ذات المحبوب.. إن ميسون ستبقى لغزاً يستعصي فهمه ليس على الجلّادين بل حتى على الذين التقوا بها في هذه الظروف العصيبة..

ميسون تترقب ساعة الرحيل بشوق!! أيّ فتاة هذه ما الذي رأتـه ميـسون؟

هل اخترقت جدار الطبيعة إلى ما وراء الطبيعة فرأت ما فجّر شوقها !

في تلك الليلة الشتائية ارتدت ميسون قميصها الأبيض الطويل المطرّز بالآيات وأوت إلى فراشها وعندما اغمضت عينيها إذا بهما تنفتحان على عالم لم تره من قبل ... تلال خضراء يغمرها نور شفاف.. وأنهار صافية تنساب مياهها بهدوء.. وحمائم بيضاء كالفراشات..

يحلقن كغيمة قطنية..

فتيات يرتدين حللاً ملوّنة من الحرير وأطفال صغار كالبلور يمرحون..

كانت تخطر على أرض عجيبة أنها ليست من تراب أنها تنقل خطواتها فوق الياقوت والزبرجد واللؤلؤ.. عالم يغمره الصفاء المطلق.. وفوق كل شيء ذلك النبع المتدفق من السعادة في القلب..

ولمحت فتى واقفاً على ضفاف نهر يرتدي حلة بيضاء ويتمنطق بنطاق ارجواني.. وعلى ربوة ينهض بناء من الرخام الشفاف المزين بالأحجار الكريمة.. شعرت ان هذا بيتها وان هذه الحوريات طوع ارادتها.. وان هذا الفتى..

ـ ميسون! ميسون!

ـ أنها لم تتناول فطورها.. غابت عن الوعي...

ـ ميسون! عيني.. حبيبتي..

فتحت ميسون عينيهـا فـرأت وجـوه أخواتهـا في المحنـة ينظـرن إليهـا بإشفاق..

ـ ما الذي تفعليه بنفسك يا ميسون؟ !

همست ميسون :

ـ كنت في رحلة.. كنت على وشك اللقاء...

لم تخبر ميسون أحداً بما رأت.. لكنها راحت تـشدو بقـصيدتها الأخـيرة أنها نشيد الرحيل .

ـ النور ملء عيوني
والحور ملك يميني
وكالملاك أغني
لجنّة وعيون
لجنة وعيون

***

أرى الحياة متاعاً
ورحلة وصراعاً
فاخترت دربي بنفسي
وسرت فيه سراعا

***

فصرت ناراً ونوراً
وغنوة وعبيراً
حتّى مضيت شهيداً
مرّحباً بالمنون

***

في جنة اللهّ احيا
في الف دنيا ودنيا
وماتمنيت شيئاً
إلاّ أتاني سعيا

***

فلا تقولوا خسرنا
ولتسألوا الأمس عنا
إن كان في الخلد خسراً
فالخير أن تخسروني

***

هذي الجنان مراحي
وعطرها من جراحي
سحر وروح وراح

يا نفس أي رواح

***

جلاّسي الأنبياء

واخوتي الشهداء

والله يضفي علينا

ظلال حبٍّ حنون

ظلال حبٍّ حنون

***

أجل إن ميسون تحترق بنار الحب الخالد .. الحب الكبير.. إنها في حالة فناء تام...

آه... أحقا ما يقال ومن الحب ما قتل؟!

بعد اليوم لم تعد ميسون تنتمي إلى هذا العالم... أنها تنتمي إلى عالم آخر.. عالم تحلّق فيه الحمائم البيضاء.. وتطوف فيه الملائكة وتخطر فوق أرضه حوريات الفردوس...

أجل إنّ ميسون على وشك العودة... وكأنها من حوريات الجنة هبطت إلى الدنيا ثم آن لها أن تعود إلى أرض الوطن..

أجل ستبقى ميسون لغزاً محيراً وإلى الأبد... وسيبقى اسمها مضيئاً.. كلما ولدت قصّة فريدة من قصص الحب الإلهي .

الفرات ـ 22

تراكمت الغيوم بعضها فوق بعض وبدا الجو مشحوناً بالآف الصواعق. ثم هبّت ريح شمالية باردة قطعت أوصال السحب حتى كادت الشمس أن تشرق قبيل الغروب. كان حسام في زنزانة يذرف الدموع ذكريات الأيام الخوالي فجرّت ينابيع الحنين إلى الماضي.. لم يكن آسفاً على شيء إلاّ على والدته.. كم سهرت من الليالي؟ كم عانت.. كم شقت.. وعندما آن لها أن ترى ولدها البكر طبيباً وكان ذلك حلمها ثم عريساً إذا بالقدر.. آه يا زمن.. كانت تحلم أن ترى أنعام ترفل بثوب العرس.. فجأة عصف الدهر بأحلامها وأمانيها..

فجأة توهج وجه ميسون .. آه إنها الجرح الأكثر ايلاماً شعر بطعنة خنجر يغوص في أحشائه ويمزّقه. ما كان عليه أن يشركها في نشاطه.. فالقتل والقتال قدر الرجال وعلى النساء جرّ الذيول.

واشتعل صوت عبدالزهرة الكعبي وهو يروي مقتل الحسين.. فقام عبدالله بن عمير الكلبي من بني عليم وكنيته أبو وهب وكان طويلاً شديد

الساعدين بعيد مابين المنكبين شريفا في قومه شجاعاً فأذن له وقال: احسبه للأقران قتالا..

وأقبل إلى الحسين يرتجز وقد قتلهما معاً.. واخذت زوجته أُم وهب بنت عبد اللهّ عموداً وأقبلت نحوه تقول: فداك أبي وأُمي قاتل دون الطيبين ذرية محمد(صلى الله عليه وآله)فاراد ان يردّها إلى الخيمة فلم تطاوعه وأخذت تجاذبه ثوبه وتقول: لن أدعك دون أن أموت معك.. فناداها الحسين جزيتم عن أهل بيت نبيكم خيراً.. ارجعي إلى الخيمة فإنّه ليس على النساء قتال...

آه يا ميسون.. يا لأحلام الشباب.. كانا يحلمان بحياة هانئة.. تذكر يوم جلسا معاً وقد غمرتهما شمس الشتاء بالدفء. وعدها بأن يبني لها بيتاً على ضفاف الشط.. أما هي فكانت تفكر في الفقراء.. عندما يفتتح عيادته سيعالج الفقراء مجاناً.. يعالج الأطفال الصغار.. ويعيد البسمة للأُمهات..

آه يا ميسون .. ما كان عليه أن يقبل بمهر ميسون..

طوال حياته الجامعية لم يصادف فتاة في مثل نقائها وثقافتها ونظرتها إلى الحياة.. عندما حدثته أخته عنها عن طيبتها عن تواضعها عن أنسها بالطالبات الملتزمات خاصّه القادمات من محافظات الجنوب.. وعندما التقاها.. ما كان ليصدق أنّ هذه الفتاة الموسرة التي تعيش في بحبوحة من العيش تنطوي على ذات الهموم التي يكابدها بل أنها تفوقه حماساً.. وعندما

اخبرته أنعام أنها لاتزين معصمها بأساور من ذهب أو فضة ولا تضع في جيدها قلادة سوى قرطين صغيرين في أذنيها بينما والدها يملك محلاً للحلي الذهبية في شارع النهر ظل يفكر في أمرها..

لقد وجد شريك العمر ورفيق الدرب..

تمنى أن صلتها بالخلية كان في حدود صلة أنعام وإيمان.. لنجت من حبل المشنقة.. ولكن ماذا بوسعه أن يفعل لقد كانت في اندفاع العاصفة. قالت له مرّة :

ـ نحن نسير في طريق واحد لهذا لا اسرار بيننا سرّنا واحد وهدفنا واحد ومصيرنا واحد.. نعيش معاً أو نموت معاً...

لم يرها سعيدة مثلما رآها بعد انجاز الهجوم على ازلام حزب البعث بالمتفجرات التي اسهمت في نقلها وايصالها الى النقطة التي اتفق عليها.. كانت سعيدة لأنها تستطيع ان تفعل شيئاً من أجل تحرير الوطن من نير عصابة البعث اللاإنسانية .

فاجأته مرّة وهي تقول :

ـ لقد تشربت كلمات بنت الهدى وعشت تجارب الشخصيات التي كانت تحلم الشهيدة بميلادها وكانت تطمح إلى رؤيتها.. ولهذا فقد كانت اول من بادرت للتضحية والسير في طريق الشهيد الصدر... إنها قدوتي لست وحدي في هذا الطريق الصعب.. في هذه اللحظات التي نجلس فيها

معاً هناك فتيات في مثل عمري يتعرضـن لأقـسى أنـواع التعـذيب.. أكـاد أسمع صرخاتهن تضيع في اقبية البعث المنحط..

علينا يا حسام أن نؤدي دورنا ونقوم بواجبنا.. ربما لا نستطيع إسقاط النظـام ولكن يمكن أن نزعزعه.. يمكن أن نسهم في إسقاطه.. ألم يقل علي:

الموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين؟!!

ألم يقل نجله لا أرى الموت إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برما..

إذا كنا نؤمن بالشهادة حقاً فان الموت لايعني شيئاً أنّه مجرد قنطرة لـيس اكثر..

سمع وقع خطى ثقيلة تتردد في الممر فانتبـه إلى نفـسه.. ووقعـت عينـاه على اسم علاء ونجيب وأحمد وكاظم وعشرات الأسماء والتـواريخ.. عـلى هذا الجدار يسجل العراق تاريخه الحديث.. هنا تكمن حقيقة شعب ينـشد الخلاص وهنا تكمن إرادته المكبلة.

ولكن ما جدوى هـذه الأسـماء؟ مـا فائـدة هـذه التـواريخ، أنهـا تـشبه ذكريات قديمة على جدران مدن منسية...

ها هو الدجّال قد أحكم قبضته لقد أضحى قدراً جاثماً وسـوف تـسيل أنهار من الدماء.. وتسير قوافل من الشهداء قبل أن يتحطم الوثن ويحـترق العجل .

راح يدندن بقصيدة شعر حفظها قبل سنين :

لا تقل لي أنه مازال في العشرين عودي
لا ترغبني الصدور البيض أوقب النهود
لا تؤملني جميل العيش في القصر المشيد
فلقد واعدني ربي بجنات الخلود
لا تقل عن ضنك السجن وعن ثقل القيود
لا تخفني بالهراوات ومحمي الحديد
لا تقل عن غرف التعذيب عن نزع الجلود
إنه الدرب الذي يعرفني قبل وجودي
إنه الدرب الذي ضم رفاقي وجدودي
درب عمار وفي متنيه آثار الحديد
وبلال في بطون الرمل في القيظ الشديد
بالذي ردّ به التمار للطاغي العنيد
بوصايا الثائر المصلوب على الأعواد زيد
بصمود ابن جبير وهو محزوز الوريد
ما الذي تعرفه الأجيال عن حجر الشهيد
دربهم دربي ومما وردوا القى ورودي
فاشهدي يا هذه الدنيا ويا كلّ الوجود
قد رفضت العيش في ذل فذا عيش العبيد

ورضيت الموت لم أخسر به غير قيودي

ولعنت الدهر ان يورق إلاّ في لحودي

مرحباً بالموت فالموت على ديني عيدي

ودوّت في ذاكرته أصداء الصدر الشهيد في نداءاته الخالدة:

إن الشعوب قد تصبر ولكنها لن تستسلم..

ولعل هذا آخر ماتسمعونه مني.. اني صممت على الشهادة...

فعلى كل مسلم في العراق وعلى كل عراقي خارج العراق ان يعمل كل مابوسعه ولو كلفه ذلك حياته من أجل ادامة الجهاد والنضال لإزالة هذا الكابوس عن صدر العراق الحبيب وتحريره من العصابة اللاإنسانية..

وراح حسام يسبح في عالم الأحلام..

الدموع.. دموع الأبرياء.. ودماء الشهداء تؤلف نهراً عظيماً تندفع امواجه كالاعصار يعصف بنظام البعث ويقذف به إلى مزابل التاريخ وتشرق شمس الحريّة على هذا الوطن المقهور..

آه يا ميسون هل سيكتب لنا لقاء ذات اليوم؟!

وسمع صوتاً قاسياً:

ـ حسام حميد!

وحيداً كان يمضي إلى قدره.. غريباً وسط قطعان الذئاب البشرية.. سوف يلتحق بالقافلة.. قافلة الحسين.. تتبعها قوافل الشهداء قوافل تسري

خلال الزمان وقد ملأت التاريخ اصداؤها...

اللّهم انا نشكوا إليك فقد نبينا.

وغيبة ولينا

وكثرة عدوّنا

وقلّة عددنا

وشدّة الفتن بنا

وتظاهر الزمان علينا .

دجلة ـ 27

جثمت الكآبة على تلك البقعة المسوّرة بجدران اسمنتية وبالاسلاك الشائكة، كما يجثم نسر على غصن ميت في غروب شتائي.. وتراكم الحزن كما تتراكم الغيوم الداكنة..

اختفت الظلال تماماً كان صباح يوم الأربعاء في أخريات كانون سنة ٨٥ كئيباً..

جثمت سيارة سوداء عند مدخل سجن ا الرشاد...

تسلم أبو ميسون بلاغاً من ادارة سجن الرشاد يتضمن تصريحاً بـ «المواجهة»..

فجأة شع الأمل في عينيه أن جهوده لم تذهب أدراج الرياح.. لم يهدر ثانية واحدة انطلق إلى شرق بغداد وكان قلبه قد طار إلى هناك، زوجته مرتبكة واختها إلى جانبها تشدّ على يدّها.. أخيراً سوف يتحقّق اللقاء بعد انتظار طويل... مئتان وخمسون يوماً.. خمسة عشر ألف ساعة.. ذابت فجأة كما تذوب حبات الملح..

سرى خبر قدوم السيارة السوداء في جميع الأقسام.. فوجودها ينبىء عن وجود تنفيذ حكم الإعدام.. ولكن من سيأخذون ومن هو الضحية؟ هناك خمس نساء محكومات بالأعدام شيوعيات.. وقضايا تجسس.. ميسون هي الوحيدة التي حكمت بالأعدام في قضية نشاط ديني مسلح.. ترجّل ضابط يرتدي بزّة بلون الظلام.. سلّم ادارة السجن كتاباً يحمل اسم ميسون غازي الأسدي كانت ادارة السجن قد امرت باخلاء الأقسام لاجراء ترميات فيها فتم جمع السجينات في قاعة «المواجهة».

مرّت الدقائق ثقيلة ثقل خطوات الرقيبة نورية...

التي ظهرت بوجهها الجامد جمود الصقيع.. نادت

ـ ميسون غازي..

جرت العادة في سجن الرشاد عندما تحضر سيارة الأعدام وينادى على الضحية أن تبادر بعضهن لأخبار الرقيبة بأن المطلوبة للحضور في الحمام..

وما أسرع أن بادرت فاطمة لتقول:

ـ ميسون في الحمام...

تلقت ميسون النبأ بوجه طلق يشع بالفرح.. لقد حان موعد اللقاء..

وما أسرع أن اغتسلت ميسون غسل الشهادة.. وارتدت حلّه الرحيل البيضاء أحكمت نهايات السروال جيداً.. لاتريد ان يبدو جزء من جسمها لأن البعثيين عندما يشنقون الضحية ثم ينزلونها من المشنقة يقومون

بسحلها من القدمين عبر البلاط الاسمنتي..

وميسون تلك الفتاة الطاهرة تأبى أن ينكشف سترها.. ارتدت المانتو ثم ارتدت عباءتها.. واستغرقت في الصلاة.. صلّت ركعتين وقرأت آيات من القرآن وراحت تناجي الحبيب..

وجاء صوت نورية يستعجل ميسون فانبرت إحداهن..

- أنها في الحمام..

كانت ميسون مستغرقة في الصلاة والمناجاة .

أسألك باسمك ياالله يارحمن يارحيم ياكريم ياعظيم ياعليم ياحليم ياحكيم سبحانك يا لا إله الاّ انت الغوث الغوث خلصنا من النار يارب..

يامن له العزة والجمال يامن له القدرة والكمال يامن لـه الملـك والجـلال يامن هو الكبير المتعال يامنشيء السحاب الثقال يامن هو شديد المحال..

يامن استسلم كل شيء لقدرته

يامن خضع كل شيء لهيبته

يامن انقاد كل شيء من خشيته

يامن تشققت الجبال من مخافته

يامن قامت السماوات بأمره

يامن استقرت الأرضون بإذنه

يامن يسبح الرعد بحمده

يامن لايعتدي على أهل مملكته

ياعدّتي عند شدّتي

يارجائي عند مصيبي

يامؤنسي عند وحشتي

ياصاحبي عند غربتي

ياغياثي عند كربتي

يا دليلي عند حيرتي

يابديع السماوات

يا جاعل الظلمات

يا راحم العبرات

يامحيي الأموات

يا منزّل الآيات

يا أحكم الحاكمين

ياعماد من لاعماد له

ياسند من لا سند له

يا من كل شيء يسبح بحمده

يا من كل شيء هالك إلاّ وجهه

يامن إليه يهرب الخائفون

يامن إليه يفزع المذنبون

يامن في عفوه يطمع المخطئون

يانور النور

يانور كل نور

يانوراً ليس كمثله نور

يامن له المثل الأعلى

يامن له الآيات الكبرى

يامن له الأسماء الحسنى .

يامن له السماوات العلى

ياحبيب من لا حبيب له

يا رفيق من لا رفيق له

يا انيس من لا انيس له

ياراحم من لاراحم له

يادائم البقاء

ياسامع الدعاء

ياحبيب الفقراء

ياكنز الاتقياء

سبحانك يا لا إله إلاّ أنت

كانت ميسون مستغرقة في صلاتها ولم تنتبه إلى ان القاعة تضج بالبكاء.. وقد وقفت أخوات المحنة ينظرن إلى حورية ستغادر إلى الأبد .. ان حبلاً غليظاً كثعبان هائل ينتظر رقبة رقيقة سوف يلتف ويخنق انفاسها وكانت أصداء رعود بعيدة تأتي من بعيد .

نهضت ميسون شامخة بقامتها كانت البسمة تشرق من عينيها ووجهها المضيء يشعّ فرحاً كان الوجه يسطع نوراً انها تقترب من الحبيب وما هذا النور إلاّ انعكاس لنور السماوات. .

ميسون في وسط صالة «المواجهة» بقامتها الرشيقة وهامتها الشامخة.. عيناها تنتقلان من وجه لوجه أنها نظرات الوداع.. كل الوجوه حزينة.. إلاّ وجه ميسون كان يشعّ بفرح بريء كوجوه الأطفال.. كوجه عروس في ليلة الزفاف كان مشهد الوداع رائعاً ميسون في مركز الدائرة واخوات المحنة تحلّقن حولها.

حتى الرقيبات كن يتطلعن إلى ميسون وقد صعدت على كرسي لتتخذ من منبراً فلديها ماتقول في هذه ا للحظات الأخيرة .

ـ لماذا كل هذا الحزن والبكاء

بعد قليل سأرحل إلى أرض الأماني

هناك سألتقي فاطمة الزهراء.. وزينب الحوراء

ان بشائر النصر تلوح في الأفق..

وماهذه المحن فانها امتحان للمؤمنين

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ وخطاب المؤمن للطاغية: ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاض إِنَّمَا تَقْضِي هذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ .

أخواتي:

لاتيأسن فالحق أقوى من الباطل ومالنصر الاّ من عند اللهّ .

أخوات !

أرجوكم لاتتفرقوا لطول المحنة وكونوا يداً واحدة:

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾...

ولوحت بكفها ترسم شارة النصر.. وهتفت

ـ النصر للإسلام والموت لصدام.

برقت عينا الرقيبة بالشر وانسلّت من بين الجمع نزلت ميسون لتودّع أصدقاء المحنة واحدة واحدة كانت تمسح الدموع بأناملها الرقيقة وتعانقها وكانت كلمات الوداع قصيدتها الأخيره :

عانقت زهراء بحرارة وهي تشدو:

ـ النور ملء عيوني

والحور ملك يميني

وانتقلت كما الفراشة إلى فاطمة .

ـ وكالملاك اغني

لجنة وعيون .

وعانقت رجاء:

ـ أرى الحياة متاعاً

ورحلة وصراعاً

واحتضنت سعاد:

ـ فاخترت دربي بنفسي

وسرت فيه سراعاً

كلمات ميسون تندمج مع بكاء من وقفن للوداع..

الكلمات المندمجة مع النّشيج تؤلف سيمفونية وداع فريد:

ـ فصرت ناراً ونوراً

وغنوة وعبيراً

حتى مضيت شهيداً

مرحباً بالمنون

وشدّت على يدي مريم وهي تشدو:

ـ في جنة اللهّ أحيا

في ألف دنيا ودنيا

وما تمنيت شيئاً

إلاّ أتاني سعياً

وقبلت جبين كلثوم وكفكفت دموعها :

ـ فلا تقولوا خسرنا

فلتسألوا الأمسَ عنا

إن كان في الخلد خسر

فالخير أن تخسروني

وعانقت شروق:

ـ هذي الجنان مراحي

وعطرها من جراحي

سحر وروح وراح

يا نفس أي رواح

واحتضنت أنعام مسك الختام :

ـ جلّاسي الأنبياء

وأخوتي الشهداء

واللهّ يضفي علينا

ظلال حبّ حنون .

كان الضابط ذو البزة السوداء يتميز غيضاً بسبب التـأخير صرخ بأحـد أزلامه :

ـ أبو وداد!

ـ نعم سيدي.

ـ اشتنتظر؟ ابن الكلب !

قفز أبو وداد كالجرذ لكنه ما إن اجتاز الدهليز إلى القاعة حتى اسـتحال إلى ذئب شارب كث وجسم مترهل وعينان تبرقان بالجريمة صاح بالرقيبـة نورية .

ـ أُم سفيان .

كانت الرقيبة نورية تتطلع إلى مشهد الوداع..

ميسون توصي أخواتها برجاء:

ـ أخوات رجاءً لا بكاء .

هتفت زهراء:

ـ صلوات على رسول اللهّ محمد وعلى آله..

وانطلقـت زغـردة شروق.. وتبعتهـا زغـردات وامتزجـت الـصلوات بالزغاريد...

وظهر الجلاّد أبو وداد يحمل أساور حزب البعث كان في غاية الإنزعاج بسبب التأخير وأثارته الزغردات فقال :

ـ يلّه اشطلعت هاي.. شنو عدنه؟ زفّة عرس؟!

مدّت ميسون يدين رقيقتين فوضع الجلاّد القيد على المعصمين..

كان الضابط المسؤول قد بدا متأثراً لمشهد هـذه الفتـاة وهـي تتقـدم إلى الموت في شجاعة..

في مكتب إدارة السجن، كانت الرقيبـة مـي تفـحّ في أذن مـدير الـسجن.. غادرت بعد أن أدت التحية..

رفع مدير السجن سماعة التلفون..

ـ ميسون غازي. في طريقها إليكم..

حولت مراسم التوديـع إلى مهرجـان خطـابي وهتفـت بـسقوط الـسيد الرئيس القائد!!

عبرت ميسون الدهليز إلى ساحة السجن.. وقفت أمام ضـابط المفـرزة بشموخ .

عادة ما يكون هـذا المـشهد عـلى نحـو آخـر.. عنـدما تقـاد المحكومـة بالإعدام فهي تمشي كـسيرة ترمـق الـضابط بنظـرات متوسـلة وقـد تبكـي وتتوسل بـذلّ.. حتـى الـشيوعيات الـلاتي كـن يحـاولن الظهـور بمظهـر الصمود كن يتخاذلن في هكذا لحظات..

يا له من مشهد رائع.. ميسون برقتها تقهـر وحـشية النظـام تلتفـت إلى أخواتها ترفع يديها عالياً تكوّر كفها اليمنى علامة القوّة.. أنها قـوة الحـق..

وترسم بكفها اليسرى شارة النصر..

أجل يا ميسون!

سوف تنتصر قوة الحق على حق القوّة.

أجل يا ميسون!

سوف يسقط النمرود..

ولعلّك رأيت مشهد سقوطه.. فأنت تنظرين بنور الله. ربما رأيت سقوطه في اللحظة التي قتل فيها الصدر الشهيد واغتال شقيقته بنت الهدى

.

أجل يا ميسون.. لعلك رأيت سقوطه منذ اعوام منذ اللحظة التي دوّت فيها اصداء الانفجارات في مؤسسات البعث المنحط..

ان الطغيان هو بداية النهاية..

ماذا يجري هنا؟! إن ميسون تقهر كل صخور القسوة في أعماق الرقيبة أُم سفيان.. إنها تبكي وهي ترافق ميسون إلى السيارة السوداء الجاثمة..

لوّحت ميسون للمرّة الأخيرة لأخوات المحنة ورفيقات الدرب الصعب الطويل.. أشرقت ابتسامة ملائكية قبل أن تغيب داخل السيارة وهي تصغي إلى الزغردات والصلوات .

نفثت السيارة كتلة من الدخان الكثيف وهي تغادر مبنى سجن الرشاد إلى سجن أبو غريب...

وفي لحظات استحالت قاعة المواجهة إلى مناحة كـبرى وانطلـق صـوت الملاية كلثوم:

ياكوكباً ماكان أقصر عمره
وكذا تكون كواكب الأسحار
إن الكواكب في علوّ محلّها
لتُرى صغاراً وهي غير صغار .

لمح أبو ميسون وهو يقترب من سجن الرشاد سيارة سوداء تغادر المبنى العتيد.. نغزه قلبه وانتابه شعور غامض.. كان المكان موحشاً..

طرق على الباب بقبضته.. انفتحت نافذة صغيرة وأطـل وجـه كـالح لم يكن وجه الرقيبة أُم سفيان..

قالت صاحبة الوجه الكالح :

ـ ماكو مواجهة ليش هذي الخبصة !

ـ استلمت بلاغ حول مواجهة ميسون غازي.

ـ ماعندنا سجينة بهذا الاسم .

تقدمت خالة ميسون:

ـ ست أُم سفيان موجودة .

ـ راحت بمأمورية لأبو غريب .

ـ اريد مقابلة مدير السجن !

ـ ماكو مقابلات ..

ـ اريد مواجهة بنتي ميسون صار..

ـ بلا كلام.. ليش متروح لأبو غريب تسأل من أُم سفيان..

اغلقت النافذة الصدئة وظل أبو ميسون جامداً في مكانه..

مرّت لحظات لايدري ماذا يفعل ا نفتحت النافذة وجاء صوت :

ـ الحگ بنتك بأبو غريب..

ادرك على الفور ان السيارة ا لسوداء كانت تحمل ابنته الحبيبة لتنفيذ الحكم ولهذا قالت له الرقيبة: ماعندنا سجينة بهذا الاسم .

كانت أُم ميسون تراقب من داخل السيارة ما يجري وسألت زوجها عن ابنتها فاكتفى بالقول :

ـ نقلوها لأبو غريب..

كان أبو ميسون قد ترك محرك السيارة يدور للتدفئة فزوجته ماتزال تعاني من ضعف شديد والشوق لرؤية ابنتها بعث في جسمها قدراً من الطاقة وجاء بها إلى هنا..

انطلقت السيارة نحو أبو غريب.. إلى حيث يقبع في هذه المدينة الفولاذية آلاف الأحرار الذين قدّر لهم ان يقفوا بوجه الطاغية..

كانت السيارة السوداء تسلك طرقاً ملتوية خارج المدينة وخيل إلى ميسون أنها شاهدت قبة ذهبية و منائر فهاج بها الشوق إلى أرض

الذكريات.. ذكريات الطفولة ما أحلى تلك الأيام.. سالت دمعة يتيمة أنها دمعة شوق إلى أيام الصبا أيام الفرح البريء إلى أيام كانت كل الأشياء تبدو ملوّنة.. بألوان الفرح وأقواس قزح...

قبل انتصاف النهار في ذلك اليوم الغائم الكئيب وصلت ميسون إلى مدينة السجون الموحشة..

نظر مسؤول قاطع الأعدام إلى ميسون وأطرق برأسه..

قال في نفسه: أيمكن أن تكون هذه الفتاة.. أحقاً أنها نددت بالنظام وبشرت بسقوط صدام رنّ جرس الهاتف..

ـ نعم سيدي !

يبدو ان مسؤولاً كبيراً يزوده ببعض التعليمات المشدّدة .

ـ نعم سيدي.. نعم سيدي .

اعاد سماعة التلفون وصاح على أحد الحرس

أمر ضابط قاطع الأعدام بأن تودع السجينة في إحدى غرف القاطع النسوي..

رفع سماعة الهاتف..

ـ حصل تغيير في نوع الحكم.. سيحضر ضابط من القصر الجمهوري للأشراف..

وصل أبو ميسون إلى مدينة السجون.. كانت زوجته متهالكة إلاّ من

بصيص أمل.. أما اختها فقد بدت وكانها تقاتل لدفع القدر..

تمكن أبو ميسون ترافقه خالة ميسون من مقابلة الضابط كان في داخله مايعتمل لمعرفة بعض خيوط هذه القضية ربما لأول مرّة تأتي أوامر من القصر الجمهوري في قضية تنفيذ الأعدام...

كان أبو ميسون في حال يرثى لها فكأنه سيق إلى الموت بدا منحني الظهر كما لو أنه ينوء بحمل هموم جيله من آباء فجعوا بفقد ابنائهم.. كانت نظراته تستعطف... في عينيه انكسار وشعاع أمل على وشك ان يخبو وينطفىء..

تقدمت المرأة من الضابط الكبير الذي تربع وراء مكتبه ومن خلال النافذة كان ثمة مبنى ينهض فوق قاعدة اسمنتية قالت المرأة التي تجاوزت الأربعيين :

ـ ميسون ماتزال طفلة.. اسجنوها مؤبد.. بس لا تعدموها...

خلوها بالميزان وبقدر وزنها ندفع ذهب.. بس لاتعدموها...

واللهّ حرام .. ثوب الزفاف...

نهض الضابط من وراء المكتب واتجه إلى النافذة والقى نظرة على المبنى المقابل وقال بصوت اجش:

ـ القضية مو بيدي.. كل شي انتهى..

ـ يعني شنو؟

التفت الضابط وصوب نظرة ثاقبة .

ـ السيد الرئيس وقع على اعدامها.. وانتهى الأمر .

غمغم الأب بصوت كسير:

ـ أريد مواجهتها..

ـ ممنوع .

ـ ليش ممنوع ... اريد. أودعها..

ـ التعليمات تمنع مواجهة المحكومين بالإعدام..

حاولت خالة ميسون ان تستعطف.. لكن الضابط

ـ بلا كلام.. تفضلوا برّا..

دجلة ـ 28

ميسون في غرفة الانتظار مستغرقة في الصلاة .. ميسون وحيدة غريبة في هذا المكان الموحش... المليء بالذئاب والوحوش الضارية..

الرقيبة نورية واقفة خارج الغرفة كما تقضي الأوامر..

تصغي بدهشة إلى مناجاة ميسون..

جاءت امرأة بشعة الوجه أسنانها صفراء طويلة.. تحمل القصعة.. رغيف صغير من الخبز صحن من الرز وكاسة فيها قليل من المرق..

قالت الرقيبة..

ـ لا فائدة ميسون صائمة.. صارلها مئة يوم ما شفتها تتغدى أبداً.

دخلت المرأة الشمطاء الغرفة وقبل أن تضع القصعة على أرضية الغرفة.. نظرت إليها ميسون بوجه مشرق وهزّت رأسها وهي تتمتم..

لم تكترث المرأة لذلك وغادرت المكان بطريقة آلية ما إن غابت المرأة في الدهليز حتى دخلت الرقيبة وأخذت القصعة والتهمت الطعام على عجل...

قالت خالة ميسون وهي تنظر إلى اختها من بعد :

ـ حتموت أختي إذا افتهمت .

ـ خلّيها عايشه بأمل..

قالت أُم ميسون بصوت متهالك..

ـ أبو ميسون خلّوك تقابلها..

قال وهو يتحاشى النظر إليها :

ـ أجلوا اللقاء.

ـ ماحددوا وقت .

قال مشفقاً:

ـ اللقاء قريب..

قالت أختها :

ـ أُم ميسون الله كريم ماكو غير الصبر....

والتفتت إلى أبو ميسون...

ـ إذا تسمح.. اختي تستريح يمّي تحتاج رعاية.. أمل هماتين موجودة...

توقفت السيارة امام منزل خالة ميسون وبادرت الخالة إلى مساعدة اختها.. وعاد أبو ميسون ادراجه إلى أبو غريب..

آه لو استطيع ان ادفع عنها شبح الموت... سوف يلتف حبل المشنقة على وردته ويخنق انفاس الربيع.. سترحل إلى الأبد.. دون وداع.. آه ياميسون

ان جراحك لن تندمل إلى الأبد..

انزاحت الغيوم عن الأفق الغربي وظهرت الشمس مصفرّة وهي تجنح إلى المغيب.. وصل ضابط من القصر الجمهوري ومعه ورقة صفراء..

القى مسؤول قاطع الأعدام نظرةً على الكتاب فقال موفد القصر الجمهوري .

ـ تم تغيير حكم الإعدام من الشنق إلى الكرسي الكهربائي..

تساءل الضابط المسؤول. .

ـ لكن لماذا؟

ـ لأنها ألقت خطاباً في سجن الرشاد هاجمت فيه السيد الرئيس وقالت بالحرف الوحد يسقط صدام... يحيا الإسلام.. .

ـ وهل هذه عقوبة جديدة..

ـ كلاّ سنجعلها تندم على ذلك.. أنها آخر حفلة تعذيب إنّ هدفنا هو تحطيم إرادتها..

ـ لقد جرت العادة انه لا تعذيب بعد صدور الأحكام..

هل تتحمل مسؤولية ذلك..

ـ أنا أنفذ توصيات ا لسيد الرئيس القائد. .

وأخرج من جيبه كراسة صغيرة.. وراح يقرأ :

ـ « أوصي الأجهزة الأمنية إلغاء أي حدود لممارسات التعذيب ضد

أعداء الثورة دون أي حرج أو خشية من مسائلة ».

«من وصايا الرفيق المناضل صدام حسين».

ـ هل يعني أنك ستشرف على تنفيذ الحكم الجديد ؟

ـ ستقوم بعملك وسأقف إلى جانبك..

ساد صمت ثقيل مدّة لحظات قبل أن يقول ضابط قاطع الأعدام:

ـ لقد تقدمت السجينة بطلب وافقت عليه .

ـ ما هو؟

ـ طلبت مقابلة خطيبها وهو محكوم بالأعدام في نفس القضية..

حاول ضابط القاطع أن يرى علامة تأثر في وجه موفد القصر ولكن دون جدوى..

قال الضابط الموفد :

ـ متى يتم تنفيذ الحكم؟

ـ مع غروب الشمس.

استيقظت أُم ميسون من نومها قبيل الغروب. .

كان قلبها يدق كطبل افريقي.. ياله من حلم اشبه بكابوس.. رأت ابنتها ميسون ترتدي ثوب الزفاف لكنها كانت حزينة ولم يكن حولها من أسرتها أحد رأت اناساً غرباء وجوهم مخيفة.. وكانوا يعوون كالذئاب..

قدمت أمل قدحاً من الماء إلى والدتها دخلت الغرفة المجاورة.. لتخرج بعد لحظات وهي ترتدي ثوب زفاف ميسون وتحمل صندوقاً خشبياً صغيراً...

دخلت الرقيبة وخاطبت ميسون:

ـ يلّه اطلعي...

قادتها إلى قاطع تنفيذ أحكام الإعدام...

قال الضابط المسؤول بلهجة رسمية جافة..

ـ لقد تم تغيير الحكم من الأعدام شنقاً إلى الأعدام بالكرسي الكهربائي.

لم يبد أي اكتراث على وجه ميسون وظلت تنظر خلال النافذة إلى آخر أشعة الشمس وهي تقرض المبنى الاسمنتي..

استطرد الضابط متسائلاً:

ـ لديك ما تقولين؟

ـ أريد رؤية خطيبي حسام!

قال الضابط:

ـ سيتم احضاره.

وهي هذه اللحظات يدخل حسام يرافقه ا ثنان من الحرس.. قاعة كبيرة..

تعانقت العيون في عناق نظر الضابط إلى ساعته...

ـ خمس دقايق..

نظرت إلى الرقيبة أُم سفيان..

ـ بلا زحمة.. شويه ماي

بادرت الرقيبة لاحضار قدح من الماء ولكن نظرات موفد القصر كانت محذرة ومهددة..

اشار ضابط الإعدام إلى بدء الوقت..

أجلست المرأة الشمطاء ميسون في الكرسي المخيف. وضعت يديها فوق المسندين وراحت تقيد معصميها بأذرع حديدية نصف دائرية موصلة بالأسلاك الكهربائية..

أُم ميسون تنظر إلى العروس أختها تضع في معصميها أساور ذهبية..

قيدت المرأة الشمطاء قدمي ميسون بأذرع حديدية هي الأُخرى نصف دائرية موصولة بالكهرباء..

خالة ميسون تستخرج من الصندوق تاجاً مزيناً بورود الياسمين الصناعية المطلية بالذهب كانت خالة ميسون تريد تقديمه هدية إلى ميسون في ليلة زفافها..

وضعت المرأة الشمطاء طوقاً حديدياً فوق رأس ميسون كان قلب ميسون يستعر عطشاً طلبت جرعة ماء..

أشار موفد القصر إلى الرقيبة بأن تحضر قدحاً من الماء..

عندما أرادت أُم سفيان مساعدة ميسون لأن تشرب نظر الضابط الموفد شزراً واخذ القدح بعنف.. ثم خاطب ميسون بقسوة:

ـ كل شي بثمن.. اهتفي بحياة الرئيس القائد مثل ما هتفتي بالرشاد. .

أدركت ميسون سرّ تبديل الحكم إنهم يريدون تحطيمها بلعت ريقها بصعوبة وقالت:

ـ عاش العراق .

ردّ الضابط بفظاظه..

ـ العراق هو صدام.. عاش القائد صدام..

إنهم يريدون إذلالها.. أجل يمكنهم تمزيقها ارباً ارباً ولكن من المستحيل أن يهزموني... هتفت:

ـ عاش العراق !

أشار الضابط إلى البدء في ارسال الصعقات بشكل متقطع لتعذيبها صاح الضابط:

عاش صدام!!

ارتعدت أوصالها بسبب التيار الكهربائي.. ثم توقف، شعرت أن

النيران تشتعل في أعماقها أخرجت طرفاً من لسانها كان متخشباً أشارت إلى شدّة عطشها..

لوّح لها الضابط بالقدح..

انتفض جسمها تحت وقع الصعق الكهربائي، بدا أنها تحاول أن تقول شيئاً أشار الضابط بقطع التيار.. جمعت ميسون طاقتها :

ـ عاش.. الصدر الشهيد..

عاد جسمها إلى الانتفاض بشدّة.. راحت تصرخ بسبب موجات الألم الرهيب..

كانت صرخاتها تصطدم بجدران هائلة القسوة.. بدت ميسون كحمامة برّية بين فكي ذئب..

دمعت عينا الرقيبة.. ربما لأول مرّة يتفجر الصخر عن قطرة ماء..

بان التأثر على ضابط الإعدام أما موفد القصر فكان يعوي بعصبية ويلوّح بالقدح :

ـ عاش القائد صدام...

كانت ميسون تجمع كل ماتبقى من طاقتها ارادت ان تلحق بالوحش البعثي هزيمة ساحقة أنها تعرف مدى حقدهم على القائد الفاتح الذي اطاح بطاغية بلاده.. جمعت كل ماتبقى لديها من رمق الحياة فدوّى هتافها:

ـ عاش الخميني القائد !

راح الضابط يعوي كذئب متوحش..

فيما كانت ميسون تنتفض تحت وقع صعقات هائلة..

تخشب لسانها بعد ساعة من زمن البعث في اقبية التعذيب..

كان ضابط الإعدام في قرارة نفسه ينظر إلى ميسون باجلال.. أنّه لا يفهم السرّ في قوّة هؤلاء..

لقد أعدم مئات الشباب رآهم يتقدمون الى المشانق بشموخ.. كانوا يسجدون يقبلون موضع السجود ثم يصعدون الى منصة الأعدام..

هل كانوا يبثون ارض الوطن لوعة حبّهم هل كانوا يقبلون موضع سجودهم للهّ لأن ذلك الموضع هو أقرب نقطة للربّ؟

ميسون تئن ... الحياة تغادر كل خليّة من خلاياها..

اصفرّ وجهها كوردة ذابلة.. كانت تتنفس بصعوبة.. إنها تموت بدت كشمعة تخبو شيئاً فشيئاً إنها تذوي قليلاً قليلاً.. ثم توقف القلب وساد السكون..

الفرات ـ 23

حسام مغمض العينين مسجّى بعدما أن قام أبو وداد بسحله..

كانت ملامح وجهه هادئه تماماً.. ينتظر قدوم والدته التي تم ابلاغها بالحضور..

كان حسام بعد أن ودّع زوجته الحبيبة قد وضع في قاعة حيث تنهض عشر مشانق.. سوف يشنق بعد قليل..

طلب فك قيوده ليصلّي ركعتين..

حسام يصلّي آخر صلاة له في هذه الدنيا...

تردد صوت في اذنيه..

ـ ماهي الدنيا؟! مجموعه من الأوهام.. لكن دنيانا أكثر وهماً من دنيا الآخرين..

حسام مستغرق في نوم هادئ.. روحه البيضاء تحلّق بعيداً في عوالم مجهولة.. أو تحوم حول ردائها الطيني أنها تحمحم كمهر حسيني مجنّح، إن الشهداء أحياء لكن المخلوق الطيني لا يمكنه رؤيتهم وسماع صوتهم.. ولو

أمكن ذلك لسمعوا روح الشهيد المسجى تتساءل
ـ أنا لست ادري هل ستذكر قصتي ؟
أم سوف تذروها رحى النسيان؟
أو انني سأكون في تاريخنا متآمراً أم هادم الأوثان؟
كل الذي أدريه ان تجرّعي كأس المذلة ليس في امكاني
فإذا هويت هويت احمل عزّتي
يغلي دم الأحرار في شرياني
أهوى الحياة كريمة لا قيد لا ارهاب لا استخفاف بالإنسان .

فتحت المرأة الشمطاء القيود.. وسُجيت ميسون فوق ارضية الغرفة..

غادرت الذئاب وراح أبو وداد يسحل الجسد من القدمين إلى القاعة..

ظهر الكفن المطرز بالكلمات المقدسة...

لمح أحد الذئاب ذلك فهرول باتجاه اسياده !

ـ سيدي.. سيدي:. اكو كتابة على الملابس.. يمكن معلومات حساسة..

كان أبو وداد يعرف حقيقة الأمر جيداً لكنه تركه يزهو باكتشافه!!

عاد الضابط المسؤول وألقى نظرة على الكلمات وقال :

ـ يلّه اقرأ..

راح ذلك الوغد يمعن النظر.. ويحاول قراءة الكتابة...

نهره الضابط :

ـ أثول.. يلّه اقرأ..

ـ سيدي يمكن انگليزي.. مكتوب يس .

ـ طيّح اللهّ حظك.. ياسين.. وآيات قرآنية وأدعية.

والتفت إلى أبو وداد قائلاً :

ـ ذبه سجن إلى أن يحفظ سورة الفاتحة .

ـ نعم سيدي..

ميسون نائمة لا تدري ما يجري حولها لقد غـادرت هـذا العـالم الـذي يضج من عواء الذئاب..

روحهـا الطـاهرة تحلّـق بعيـداً.. وجـسمها مـسجى... انطلقـت إلى الكاظمية راحت تطوف فوق القبـاب والمنـائر.. ثـم ولجـت بيـت خالتهـا الحبيبة رأت أُمها..

حمحمت كمهرة مجنحة

ـ أماه قد عزّ اللقاء وفي غد

سترين نعشي كالعروس يسير

وسينتهي المسعى إلى اللحد الذي هو منزلي وله الجموع تصير .

قولي لترب اللحد رفقاً بابنتي

جاءت عروساً ساقها التقدير

أمّاه لا تنسي بحق بنوتي قبري

لئـلاّ يحزن المقبور

روح ميسون اللطيفة تحلّق إلى الرشـاد.. الليـل يغمـر الأشـياء وينـشر فوقها غلالة مليئة بالأسرار..

صديقاتها جميعاً مستغرقات في نوم...

الأرواح الشفافة تسيح في عوالم فسيحة..

التقت روح صديقتها شروق .

ـ ميسون !

ـ شروق !

- يالها من حلّة رائعة.. أنت الآن أجمل حتى من الحوريات.

ـ ما أحلى الحياة هنا.. في هذا العالم.. انه مفعم بالصفاء لقد ارتحـت مـن شقاء الدنيا..

عندما ودّعتكم بالأمس.. اخذوني صبّوا علي العذاب. .

أما الآن فانا أنعم بالسعادة والراحة..

وداعاً فأنا في شوق للقاء الحبيب. .

ـ ميسون! ميسون!

امتدت كف لتوقظ شروق أنها تحلم...

تسلّم أبو ميسون ورقة صفراء تتضمن اعدام ميسون غـازي وتـصريح بالدفن..

وقع أبو ميسون على تعهد بدفن ابنته ليلاً مع عدم اقامة مجلس عزاء أو تلقي التعازي..

أخذوه إلى قاعة..

كانت ابنته نائمة.. وجهها تعلوه براءة الأطفال مرّت في خياله مشاهد ملوّنه قديمة.. يوم تلقاها بذراعيه وهي تفتح عينيها للحياة...

ومشاهد من لعبها في رياض الأطفال.. مشهد ذهابها في أول يوم من بدء دراستها الأبتدائية.. وهي تنثر الحب للحمام في الصحن الكاظمي المغمور بالضوء ... على ضفاف دجلة.. دخولها إلى الجامعة...

حملها بين ذراعيه كما لو كان يحملها طفلة صغيرة كانت نائمة مغمضة العينين !

ـ ميسون! ميسون! حبيبتي افتحي عينيك يا طفلتي..

في جوف الليل في وادي السلام وقف الأب وإلى جانبه زوجته. ينظران إلى التراب يغيّب ابنتهم..

ظهر القمر من بين أكوام الغيوم ثم غرق مرّة أخرى.. فاحت رائحة طيبة ملأت المكان.. وحبيبات التراب تنثال.. عاد السكون مرة أخرى ليغمر الوادي حيث ترفرف آلاف أرواح من رحلوا وغابوا من دون أمل بالأوبة...

روح بيضاء كهالة من انعكاس النور على شجرة برتقال في فصل الربيع

ترفرف في فضاء الوادي تـشدو بـصوت شـجي يـشبه نـشيج الميازيـب في مواسم المطر :

ـ يا حبيبات التراب ...

احضنيني ..

قبليني ..

مرّري كفّ أبي.. أُمي..

على رأسي وعيني..

وجبيني ..

ارحمي حبي وآلامي ..

ودمعي وشجوني ..

ردّدي همهمة الحزن ..

وآهات انيني ..

واحفظي هذا الشباب ...

يا حبيبات التراب ...

يا حبيبات التراب...

الفرات ـ 24

عندما انزلوه من المشنقة شعر بأن عذاب السنين ينزاح عن كاهله أصبح شفافاً كحزمة من نور السماوات لم يكن يسمع شيئاً سوى انين الريح تسفّ من خلال النخيل يعبر المسافات بينه و بين الشط.. ان أُمي تبكي كسماء الشتاء الحزينة..

جاءت امه عانقته.. شعر بدفء قبلاتها وشذى انفاسها وسقطت على وجهه دموع أخيه..

انطلقت به السيارة إلى وادي السلام وكانت روحه تحلّق في الدجى.

ابكي يا أُماه .. ابك يا وطني المقهور .

نحن في زمن يقتل الأنبياء .

وكان قدري أن ارحل .

ها أنا الآن على تخوم الزمان

اهيلوا التراب فوق ردائي

أما أنا فحذار أن تظنوا بي الموت

أنا حيّ. وهؤلاء رفاق الدرب الطويل

لقد رحلوا قبلي وسوف يلحق بي آخرون

ربما نصبح جزءً من التاريخ

لكننا سنبقى ذلك الجزء الحيّ

في نسيج الماضي.. انه باق ينبض بالحياة..

وأنت يا أخي !

ستنقل رسالتي للآتين.. إلى جيلي والأجيال القادمة اخبر جلاّدي!

انني حطمت سلاسله والأغلال..

انني مازال انتظر الشمس التي ستشرق غداً أو بعد غد قل له: أن حبّي
لن تكبّله قيودك

وأمنياتي الغافية ستشق تراب القبر..

ها أنا الآن أسمع صهيل ذي الجناح قادماً من كربلاء .

وان الدماء التي اريقت ستغدو فؤوساً

تهشمك..

وغداً.. عندما تشرق الشمس .

سنشهد انتصارنا.

وهزيتمك..

وداعاً ياأماه..

وداعاً يا اخي..

إني راحل للقاء الحبيب..

أخذت الأم الثكلى قبضة من ثرى الضريح مضمخة بدموع الأمهـات.. همست..

ـ يمّه وصية اخيتك أنعام..

وضع الأخ المفجوع جبهته على الثرى بثه حبه وهمس:

ـ عهد مني ان اسير في طريقك يا أخي...

أخي يا شهيد أخي يا شهيد.

مضيت فدربك درب الخلود .

عهدناك حرّاً طوال المدى

وفياً وكنت لنا مرشدا

وجدت بروحك يوم الفدا

فلوّن جرحك وجه الصعيد.

مضيت وكنت لنا هادياً

أضأت الطريق هدى سامياً .

علوت السحاب فطرا عالياً .

لأحلى الأماني وعيشاً رغيد

عروجاً تحف بك الأنجم

مدار الشموس لك السلم .
بيوم الشهادة يزهو ا لدم
ويتلو على الكون احلى نشيد
وسام الشهادة أغلى وسام
به يفخر المرء بين الأنام
بنور الشهيد يزول الظلام
ويبقى لذكراه يوم مجيد
أخي يا شهيد.. أخي يا شهيد .

من دجى وادي السلام تحلّق روحان.. طيفان مضيئان يخترقان السحب الداكنة وركام الغيوم. يعبران الأفلاك.. ومدارات النجوم..

حسام يرتدي ثياباً حريرية بيضاء ناصعة بلون قمم كردستان يشدّ شعره المتموج بعصابة ارجوانيه.. كفه تعانق كف ميسون.. أنها ترتدي حلّة فضفاضة ازهى وأجمل من حلّة الزفاف.. أنها تبدو أميرة..

ويسيران على ضفاف نهر ناعس وقد نبتت اشجار مكتظة بالثمار.. الطريق مرصوف بالأحجار الكريمة..

والمرج الأخضر مطرز بالورود وأطفال كالبلور يمرحون كفراشات ربيعية.. وحوريات يحملن أطباقاً من الفضة ملأى بعنب كالياقوت ورمان..

كانت ميسون تشدو بسعادة لاحدود لها:

النور ملء عيوني

والحور ملك يميني

وكالملاك اغني

لجنّة وعيون .

ومرّ عام و عام وعام.. في يوم ٢٦ / ٥ / ١٩٨٨..

كانت أُم حسام ومعها أبو حسام.. وبينهما أخو حسام يحمل باقة ورد يطرق منزلاً في مدينة الكاظمية في محلة علي الصالح..

جاء يطلب يد أمل وفاءً للشهيدين حسام وميسون وتحدّياً لنظام البعث الهجمي..

وإنه لطريق طويل.. طريق ا لنضال ضد الطغاة.. والشعوب قد تصبر لكنها لن تستسلم هكذا قال الصدر :

باقر الصدر منا سلاما	أي باغ سقاك الحماما
أنت أيقظتنا كيف تغفو	أنت أقسمت أن لن تناما
كيف تنأى بعيداً ولما	يبلغ المؤمنون المراما
قد فقدناك زعيماً لا يجارى	فبكيناك دماً دمعاً سجاما
غبت عنا سريعاً ولما	يطرد الثائرون الظلاما
يا شهيداً قام فرداً	ينتضي للطغاة حساما

أنـــت كالـــسبط حـــسين　　قــد أبيــت الحيــاة مــضاما
يــا أبــا جعفــر ســوف تبقــى　　رائـــداً للـــورى وإمامـــا
كـذب البعـث مازلـت فينـا　　كـــالخميني تهـــدي الانامـــا
نحـــن اقـــسمنا يمينـــاً ان　　أو نـــرى الاســـلام شرعـــاً
دعـوة قـدتها قـد تـسامت　　ثـــورة هـــدفاً والتزامـــا
وشـــباباً دعـــوت فهبـــوا　　يرخـــصون الـــدماء كرامـــا
وســبيلاً ســلكت انــيرت　　بالـــضحايا وطابـــت مقامـــا
ان دينــــاً شــــيدته　　أُمـــة بالـــدماء يتـــسامى
يهـــزم الكفـــر ويبقـــى　　يمـــلأ العـــالمين ســـلاماً
ياأبا جعفـر نـم قريـر العـين　　إنّـــا هجرنـــا المنامـــا
قـــد عـــشقنا الـــشهادة ذوداً　　عن حمى الدين حتـى يقامـا

النهاية

نيسان 2002

بورك الحب

لن يطول الزمان
فاللقاء الذي انتظرناه
قادم من وراء الدخان
عرسنا قائم هناك
انني اسمع منذ الآن
شدو الاغاني
وارى في عيون الصبايا
الضحاك
بزوغ الأماني
لن يطول الزمان
سيولد القمر بسمة في السماء
سماء العراق
والنجوم التي استشهدت في المساء
ستغدو منابت ورد
وتلك الدماء
التي قد أُريقت

ستغدو فوؤساً

تهشم وجه الذي قال إني إله

إله العراق

إله انهاره والمياه

إله أشجاره والنخيل

ذات يوم سيكبر أطفالنا

فجراً سيخرجون من رحم الليل

يمتطون عتاقاً من الخيل

هنالك يبهت نمرود

في بابل

* * *

ألا فانظروا

انظروا ها هناك

انني المح الآن عروساً

وراء تلال الضباب

ضباب ا لسنين

آه تلك ميسون

وذاك حسام

بورك عرس الشهادة

ويوم الخلود

خلود الحياة

وبورك حب تسامى على الطين

وذاب بدمع الإله .

2001